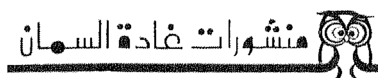
غادة السمّان

ع غ تتفرّس

الأعمال غير الكاملة ٨





الأعمال غير الكاملة

٨

ع غ تتفرّس

صورة الغلاف الاول : للفنان رينيه ماجريت .
صورة الغلاف ال[illegible] : المؤلفة ، بريشة الشاعر الفنان يونس الابن
المشرف الفني : نبيل البقيلي
الخطوط وتصميم الغلاف : حسين ماجد.
تنفيذ الطبع : مطبعة دار الكتب — بيروت

غـادة السـمّان

الأعمال غير الكاملة

٨

ع غ تتفرّس

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣٠٩٤٨٠ ـ ٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٨٠
الطبعة الثانية
تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩٨١
الطبعة الثالثة
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥
الطبعة الرابعة
كانون الثاني (يناير) ١٩٩١

مصارحة

١ — هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهمه ذلك .

كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الأولى ١٩٧٤ — ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن أصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة أكثرها .

واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها (حرب ما) ثانية أشعر أن من حقي الحيلولة دون احتراق أوراقي مرة أخرى ... ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً مني بأهميتها — وهي قد تكون أو لا تكون كذلك — ولكن بالدرجة الأولى لأنني لا أريد لها أن تحترق ! .. فهي جزء من ماضيّ الكتابي ، وهي ككل ماض لا يمكن إلغاؤه كما انه لا يمكن تبنّيه كلية .. وبطبعها ، سيكون لي في بيت كل قارىء عربي من قرائي ملجأ يحمي حروفي من الإبادة .. وهو احساس جميل وحميم يغمرني ويسعدني .

٢ — ليس هنالك فنان يرضى عن أعماله القديمة — إلا فيما ندر — ولست من هذه الندرة . أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمني الذي كتبت فيه . لحظة كتبتها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعي أفضل مما فعلت .

٣ — أعتقد أن العمل الفني كالخطيئـــة ، لا يمكن محو إثمهـــا بعد ارتكابها ، وكالرصاصة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإنني لم أبدل شيئاً يذكر . فالكلمة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين وإلى الأبد. هذا بالإضافة إلى انني قد لا أرضى في غدي عما أرضى عنه في يومي ، وهذا معناه —

لو أعدت بإستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه ـ أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدة لكتبي (!) وهو أمر مستحيل وخارج عن طاقة البشر .

٤ ــ اللمسات القليلة التي أدخلتها في بعض السطور لم تكن تحويراً في جوهرها بقدر ما كانت محاولة لمزيد من الاقتراب من جوهرها الأصلي .

٥ ــ « الأعمال غير الكاملة » هو الاسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الأعمال الكاملة » المتعارف عليها .

فهذه الاعمال ليست « كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري ــ مهما كان مبدعاً ــ هذا أولاً .

وهي ليست « كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبته بل كل حرف أتصور أنه يستحق حداً أدنى من الحرص ــ أي مختارات من أعمالي ــ (ما عدا أعمالي القصصية التي ضمها الجزء الأول من هذه السلسلة ، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على أعمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن ــ كما أتصور ــ في كتابة القصة) .

ثم أن هذه السلسلة هي بحق « الأعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً إلى كتابة الأفضل ، ويخيل إليّ أن عبارة « الأعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموت ، وذلك حظ لم يباركني بعد ! ...

غادة السمان

الساعة ٥,٣٧ فجر ٧ ــ ٩ ــ ٧٨

صدر من الأعمال غير الكاملة :

١ ــ زمن الحب الآخر
٢ ــ الجسد حقيبة سفر
٣ ــ السباحة في بحيرة الشيطان
٤ ــ ختم الذاكرة بالشمع الأحمر
٥ ــ مواطنة متلبسة بالقراءة
٦ ــ اعتقال لحظة هاربة
٧ ــ الرغيف ينبض كالقلب
٨ ــ ع غ تتفرس
٩ ــ صفارة انذار داخل رأسي
١٠ ــ كتابات غير ملتزمة
١١ ــ الحب من الوريد إلى الوريد
١٢ ــ القبيلة تستجوب القتيلة
١٣ ـ البحر يحاكم سمكة
١٤ ـ تسكع داخل جرح

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى ذلك المخلوق اللطيف الجميل البريء ، المذكور في الكلمة ٢ من السطر ٥ من الصفحة ١١ من هذا الكتاب ، والذي لن أذكر اسمه الآن كي لا يتشاءم أحد من قرائي !

إليه ، كرمز صغير لضحايا بعض الأفكار السائدة والمتوارثة التي تحلّ في نفوس البعض محل الحقيقة .

غادة السمان



عين غ تتفرس

في

البــــوم

« الخرافة ديانة العقول الواهية »
— ادموند بيرك —

« جدي يمسك بالبوم ، جدي (بوّام) ....
يقول لي (البوم كائن عاقل ،
لو أنصت الناس إليه ،
لاستطاعوا جعل عالمهم عالماً حكيماً) .
بوم في بيته ، بوم ، بوم ،
لا شيء سوى البوم
إنه أجمل الطيور
بوم قطبي أبيض .
بوم استوائي أسود
بوم داخل إطارات لوحات جدي
بوم جالس على مقاعده
عشرات طيور البوم مصطفة على سلم بيته »
— الشاعر تيد هيوز في قصيدته عن جده —

« التطير هو تفسير غير ناضج لأمر ما ،
نثابر على تبنيه حتى بعد انتهاء زمنه
وانكشاف أمره »
— جورج إيلز —

« هل تريد أن ترى الشيطان ؟ حدق في
المرآة » .
— أ . ر . أوراج —

١ / ٩ / ١٩٧٥

البوم : رمز لضحايا الخرافات المتوارثة !

البوم مخلوف سيء السمعة .

إذا كرهنا شخصاً قلنا إن وجهه مشؤوم كوجه البوم. وإذا سمعنا خبراً سيئاً قلنا: إنه نذير نحس كنعيق البوم .

في الاذاعة والتلفزيون يستعمل صوت البوم كمؤثرات صوتية للدلالة على جو من الشر والمتاعب المتوقعة . في الكاريكاتور يُرسم البوم دلالة على الخراب والنحس.

في الحياة اليومية يتشاءم الناس من صوته وصورته ، ويرث الاطفال كره البوم عن الآباء والجدات ، ويتعلمون خشيته والتطير منه .

فالبوم مخلوق سيء السمعة !

وأكثر الذين يكرهونه لا يعرفون شيئاً علمياً عنه ، وليست لديهم أسباب حقيقية لكرهه غير الشائعات . وأكثر الناس تتخذ الشائعة لديهم صفة الحقيقة القاطعة ، فلا يكلفون عيونهم عناء النظرة الجديدة الحيادية .

ونظرة جديدة حيادية إلى البوم تكشف أنه طائر بريء ، كبقية كائنات الطبيعة ، ومن حقه هو كبوم أن يتشاءم من الانسان — أكثر مما يتشاءم الإنسان منه — ولديه أسباب موضوعية لذلك التشاؤم لأن الانسان يعتدي عليه ويبيده ويؤذيه دونما مبرر غير أساطير ومعتقدات متوارثة — وما أكثر معتقداتنا المتوارثة الخاطئة التي تتخذ في نفوسنا صفة الحكم النهائي القاطع من دون أن نسأل أنفسنا ولو لمرة واحدة :

هل أكره هذا حقاً ؟ هل أحب هذا الانتماء حقاً ؟ وهل يعني لي شيئاً ؟ هل أنا « أنا » حقاً ، أم أنني مجرد حصيلة باهتة لوجهات نظر الآخرين ؟ هل أنظر بعينيّ أنا ، أم أنظر إلى الدنيا بعيون الآخرين المدقوقة في لا وعيي ؟ في اختصار ، كره البوم حقيقة عامة ، ولكن ليست لدى كارهيه أسباب خاصة لهذا الكره غير التطيُّر . انه ببساطة كره جماعي ، كره مبني على الشائعات ، كره لا علاقة له بالمعرفة الحقة ، كره كريه .

فالإنسان لا يرغب غالباً في حمل مسؤولية فشله ، ويريحه التهرب من هذه المسؤولية تحت ستار « النحس » أو الشؤم أو الصدفة ، فيرمي سبب هذا الفشل على قوى يعجز عن التحكم بها ، ومنها مثلاً مرور بوم مسكين به ، بوم يعمل جاهداً لتوفير طعام أطفاله أكثر مما يعمل الرجل الفاشل المتشائم الذي يعزو فشله إلى نعيق بوم عابر !

لماذا البوم ؟

تتساءلون لماذا البوم ؟ لماذا أتحدث عنه بحرارة كهذه ؟

وأقول : لأنه مثال بسيط على أن الافكار السائدة المتوارثة ليست بالضرورة صحيحة ، إبتداء من أفكارنا عن البوم ومروراً بأكثر معتقداتنا المتوارثة في الحقول الأخرى كلها ، كالسياسة والاقتصاد والتاريخ والدين والجنس ...

حين أعلن غاليليو منذ قرون أن الأرض كروية وتدور حول الشمس حكم عليه بالاعدام حرقاً ، (وطبعاً ظلت الارض تدور حول الشمس) !

و « الرأي العام » لم يقف مع غاليليو وإنما وقف ضده لمجرد إتيانه بفكر يتناقض والافكار السائدة .

انه في النتيجة المنطق ذاته . المنطق المتمسك بكل عتيق ، ابتداء بمبدأ الأرض المسطحة وانتهاء بأن البوم مشؤوم . وكل الذين يقفون ضد الولاءات المتوارثة والحقد المتوارث أو الحب المتوارث ، ويجدون في تحكيم الذات الحقيقية ضرورة في الامور كلها ، وفي اتخاذ العلم والموضوعية سبيلاً إلى المواقف كلها ، أولئك يستطيعون الاقتراب من البوم بعين جديدة .

كان البوم في بعض العصور رمزاً للحكمة . ومنذ ٢٥٠٠ سنة ، صك اليونان صورة البوم المقدس على عملتهم ، مقرونة بأثينا ربة الحكمة عندهم .

فهل يصير البوم رمزاً للمحبة في عصرنا ، رمزاً لتكفير إنسان العصر عن أخطائه الكثيرة التي طالما ارتكبها في حق بقية مخلوقات الطبيعة ؟ ! .

هذا على الأقل ما يراه مجموعة من البروفسورات والدكاترة وأساتذة الجامعات الذين أصدروا مؤخراً مجموعة من الكتب. ولعل أعمقها كتاب جميل عن البوم يقع في ٢١٦ صفحة من القطع الكبير والورق المصقول اسمه «بوم العالم» (*) ، أشرف عليه

(*) كتاب Owls of the World تأليف : John A. Burton بالاشتراك مع ١٤ بروفسوراً =
منشورات : Eurobook Limited

جون بيرتن وشارك في كتابته طائفة من العلماء من جميع أقطار العالم ، منهم مايكل فوجدن ، هاوارد جين ، دافيد جلو ، كولين هاريس ، ج . هكسترا ، هيموميكولا ، ايان برست ، جون سباركس ، فان در ويدن وغيرهم ، وهدفهم جميعاً رد الاعتبار لطائر التاريخ المظلوم ،وتبرئة ساحته من تهمة النحس والشؤوم ،ورسم صورة حقيقية له كطائر صديق للإنسان وككائن يهدد انقراضه توازن الطبيعة الدقيق ، هذا بالاضافة إلى أنه حمل طوال عصور طويلة وزر شرور الإنسان والميكروبات ، واعتبر مسؤولاً عن كثير من الجرائم والأمراض والوفيات ،ولعب دور كبش الفداء الفكري باستمرار.

والآن تعالوا نتجول ليلاً مع البوم ، نقرب وجهنا من وجهه بلا تحامل ولا أفكار مسبقة ، وننظر اليه بعيون جديدة ! ومن يدري ، فقد نقول قريباً عن شخص وسيم بانه جميل كالبوم « بدلاً من « جميل كالقمر » ؛ خصوصاً بعد انكشاف أسطورة « جمال القمر » وصورته التي تشبه وجهاً مجدوراً ! ولكن ، قبل أن تقول لرفيقتك « وجهك جميل كالبوم » أنصحك بإطلاعها على هذه السطور !

طائر بريء وجميل

يعتبر البوم علمياً من الطيور الليلية الجارحة . أي أنه يصطاد في الليل ، ولا يعيش من التغذي بالحبوب وانما يعتاش من اللحوم ، تماماً كالنسر والعقاب (وهما طائران نحترمهما ، وقد اتخذت منهما بعض الدول شعاراً لها .)

إذن فالبوم ليس مكروهاً لأنه يتغذى باللحوم — أي مثلنا — ومثل النسر الذي نقدّر ، فلماذا إذاً ؟ السبب يرجع ببساطة إلى شكله الخارجي وعاداته .

فالبوم طائر يلفت النظر . انه كالبجع والبطريق تميزه من أول — أو ثاني — نظرة ! البوم يشبه طائراً واحداً هو البوم . إنه كنجوم السينما ، تستطيع التعرف عليهم من صورهم ، حتى ولو لم ترهم قط من قبل !

إنه يشبه الانسان. رأسه محدد المعالم. له عينان شاسعتان. نظراته مركزة التعبير وشبه حكيمة وحزينة. ويزيد في هذا الانطباع اتزان حركاته كالكهول. جسده صغير جداً بالنسبة إلى مظهره ، فريشه كثيف ، وأجنحته طويلة بالنسبة إلى حجمه ، ولذا فانه يطير بهدوء ودونما

= كتاب A Natural History of Owls تأليف Michael Everett منشورات Hamlynn
كتاب The Dictionary of Birds تأليف Bruce Campbell منشورات Michael Joseph Limited

صوت على الاطلاق . وهكذا فإن الإنسان (أو فريسته) يفاجأ به أمام عينيه من دون أن يسمع صوتاً لطيرانه . فطيرانه شبيه بطيران الأشباح في الأحلام ! إنه يهوم أمام عينيك كالرؤيا والكوابيس دونما سابق انذار ، وربما كان في ذلك ما جعل الناس يهابونه ، هذا بالاضافة إلى عينيه اللتين لا تبصران جيداً نهاراً ، فتتسمران في وضع يوحي للإنسان بالحكمة ومعرفة الغيب والمجهول . والحقيقة هي أن البوم المسكين يتضايق من الضوء ، هذا كل ما في الامر . إنه لا يتنبأ بالمستقبل المشؤوم ، وليس في وقفته الجامدة ما ينبىء بالكوارث . إنه ببساطة كائن بريء ينتظر موعد سعيه وراء لقمته كأي صياد ينتظر موعد انطلاقه خلف اللقمة .

بالإضافة إلى عيني البوم الكبيرتين وخديه ، وبقية ملامح وجهه التي تمنحه مظهراً انسانياً حزيناً وغامضاً ، وإلى طيرانه الصامت كالأرواح ، فالبوم يقطن أحشاء الأحجار الحنون . فالأبنية العتيقة والخرائب والمقابر تتصف بوجود فراغات في جدرانها ، والبوم المسكين يقطنها من دون أن يعرف أنها تمثل بالنسبة إلينا رموزاً مخيفة وغامضة !

وهذه العوامل الثلاثة ساهمت في خلق أسطورة البوم الغامض المشؤوم ، أو البوم ذي القوى الخارقة المستمدة من أسرار ما وراء الطبيعة .

وليس الانسان وحيداً في خشيته من البوم . فالعصافير الصغيرة تخشاه ، وحين يمر بها البوم تتناثر وتزعق وتبدو مسحورة ومضطربة . فلماذا ؟ هذا طبيعي بالنسبة إلى صغار العصافير ما دام البوم يتغذى بها ، وبالفئران ، والقوارض ، والأسماك والسلاطعين (البوم المائي) ولكن الإنسان ، ما باله يخشى البوم ؟ ! .

نظرات البوم ترعب الإنسان . ولكن ما ذنب البوم إذا كانت عضلات العينين لديه لا تسمحان للبؤبؤين بالدوران في محجريهما (وهذا يساعده على تركيز الرؤية ليلاً) ؟ فعدم تحريك البؤبؤين يوحي بأنه عرّاف يتأمل كرته الزجاجية مبصراً الغيب والاحزان القادمة لا محالة !

طيران البوم يرعب الإنسان . ولكن ما ذنب البوم إذا كان قد طور خلال العصور قدرته على الطيران الصامت بحيث يكون أكثر قدرة على انشاب مخالبه في فريسته ؟ ! إنه لا يقصد تخويف الانسان ، ولكن ما ذنبه إذا كان ضمير الإنسان مثقلاً ، ترعبه عينان تحدقان فيه بصمت اتهامي ؟! ما ذنبه إذا كان الإنسان يرى في عيني البوم مرآة لمخاوفه وخطاياه ؟!.

زعيق البوم يخيف الانسان . ولكن ما ذنب البوم إذا كانت حباله الصوتية مشابهة

للحبال الصوتية للإنسان ، وبالتالي فإن الصرخات التي يطلقها تشبه ندب قبيلة مفجوعة مُرَوَّعة ؟!. ثم إن البوم حين ينعق لا يقصد تخويف الانسان بقدر ما يقصد الحوار العاطفي مع الحبيبة والقبيلة ومناجاة الأصحاب والخلان ! ..

وإذا كانت قوة البصر الليلي لدى البوم تفوق طاقة الانسان بخمسين إلى مئة مرة ، فإن طاقته على السمع تفوق ذلك بكثير ، وما يتوهمه الإنسان بمثابة الخدين للبوم هو في الحقيقة كصيوان الأذن لدى بعض الحيوانات ، يساعد البوم على التقاط الأصوات مُركزاً على منطقة معينة من الارض. وهكذا فالبوم قادر على سماع أصوات تعجز أذن الانسان عن التقاطها ، كصوت اهتزاز ورقة عشب تحت ذنب فأر أو غيره . إنه مخلوق بريء ، طوّرته الطبيعة بحيث يقدر على اكتساب عيشه من الصيد الليلي ، لكن هذه الصفات المميزة للصيد الليلي يتفق أنها تثير الذعر لدى مخلوق آخر هو الانسان !

والبوم حيوان عظيم الصبر ، وهو قادر على العيش في مناخ قطبي وفي مناخ صحراوي على السواء ، بل هو قادر على الاستمرار في أمكنة تعجز أنواع الأشجار كلها على النمو فيها .

بعض البوم يقطن الغابات وبعضها الآخر يقطن الخرائب والمقابر وساحات الكنائس القديمة ، أو يحوم فوق الصخور العتيقة المتآكلة . وهو يفضل أن يبيض في أعشاش مهجورة عتيقة (يعشق الرحيل كالشعراء الجوالين، ولا وقت لديه لبنـــاء مسكن) ! ونمط حياته شبيه بنمط حياة الانسان،فحين تضع البومة بيوضها تقوم هي باحتضانها بينما ينطلق البوم الذكر بحثاً عن قوت الاسرة .

ويتبع بعض البوم نظام تحديد النسل كالانسان ! والبوم صديق للانسان ، وحليفه ضد هجمات الفئران والقوارض ، ولذا نجد المزارعين في بعض البلدان يعاملون البوم كما لو كان شرطي حراسة في المزرعة ، ويبنون له بيتاً خاصاً به كي يغروه بالإقامة فيه والحراسة المجانية مقابل طعامه من فئران المزرعة وديدانها وبقية المخلوقات التي تضر بالنباتات .

البوم والانسان : علاقة تاريخية ؟ ..

علاقة الانسان بالبوم تاريخية . الدين اليهودي يحرم أكل لحمه (ولكنه لا يحرم صيده) !

وفي بلدة تروا فريرز في فرنسا نجد نقشاً في أحد الصخور لبوم قطبي جميل يعود

تاريخه إلى العصر الحجري .

والعلاقة بين الانسان والبوم كانت دوماً غير ديبلوماسية منذ أقدم العصور .

فالانسان يشعر نحو البوم بـ « الحب — الكره » ، أي بشعور متضاد متناقض في آن واحد ! وهو يجد فيه نحساً وشؤماً بمقدار ما يجد فيه أيضاً رمزاً للحكمة والمعرفة . كثيرون يكرهون البوم ، والبعض يحبونه ولكن القلائل يستطيعون المرور به بلا مبالاة وقد فسر ذلك أحد العلماء بقوله : « البوم يشبه الانسان كثيراً . ومخالبه المخبأة تحت ريشه تذكر الانسان بشره المخبأ تحت قناع تهذيبه الاجتماعي . البوم هو كاريكاتور الانسان ، ولذا نكرهه ونحبه في آن واحد . إنه انعكاس لصورتنا في مرآة الحياة الحيوانية في الطبيعة . ثم إنّ البوم يملك أكثر العيون جاذبية وغموضاً وإثارة في العالم » !

وفي استفتاء قام به برنامج تلفزيوني في لندن اكتشفوا أن ٣٩ في المئة من المتفرجين يجدون البوم مخيفاً ، قوياً ، قاسياً ذكياً وحزيناً ، وأن ٣٥ في المئة منهم يجدونه جميلاً وبريئاً وغير مخيف . وهذا الانقسام في النظرة يوحي إلينا بأن نظرة الانسان المعاصر إلى البوم تشبه نظرته إلى دكتور جيكل ومستر هايد . يستحق احترامنا لذكائه وجماله ، لكنه في الوقت نفسه شرير ومخيف !

ولم تكن أثينا وحدها التي اتخذت من البوم رمزاً للحكمة منذ ٢٥٠٠ سنة ، ففي أساطير الملك آرثر والمائدة المستديرة في انكلترا نجد أن الحكيم مرلين كان يحمل على كتفه في استمرار بوماً يرمز إلى الحكمة والمعرفة والاطلاع على الغيب .

وفي العصور الوسطى طالما كان البوم رفيق الحكماء . ويتجسد ذلك في وضوح بأسطورة « البوم والعندليب » في القرن الثالث عشر .

وفي عام ٣١٠ قبل الميلاد حاصر أجا ثولكلز القرطاجيين بجنود يحملون البوم على أكتافهم ودروعهم وخوذهم مما لعب دوراً هاماً في الحرب النفسية الأولى للعصور القديمة .

وعينا البوم الواسعتان هما وسيلته لالتقاط أكبر قدر من الضوء في الليل : مرعاه ومسرح صيده . والانسان في طبعه يخاف من المجهول ، ويخاف من الليل المسكون بالمجهول والاسرار ، ويخاف بالتالي من عينَي البوم المسكونتين بالغموض والمعرفة ! وهكذا نجد بعض الأقوام تجل المعرفة المتمثلة بعيون البوم ، وبعضها الآخر يكره « المعرفة — النبوءة » فيها .

فقد كان قدماء الرومان يستعينون بالبوم ضد العين الشريرة ، وأقوام الإينو في

اليابان يضعون على أبواب بيوتهم نماذج خشبية للبوم دفعاً لشبح المجاعة والنحس .

والعلاقة بين البوم والموت وثيقة . ففي الصين كانوا يعتقدون بأن نعيق البوم هو بمثابة استلال للارواح من الاجساد ، وتلقب صرخات البوم هناك بـ « حفر القبور » . وفي استراليا ما زالوا يعتقدون بأن أرواح النساء تحل في البوم بعد الموت ، ولذا يحرم صيدها (كي لا يصطاد شخص ما روح أمه أو حبيبته من دون أن يدري !) . أما الهنود الحمر ، وبصورة خاصة قبيلة كيروا ، فقد كانوا يعتقدون أن روح ساحر القرية وطبيبها تحل في البومة بعد موته ، لذا فالبوم لديهم مقدس كما البقرة في الهند . وفي صقلية يخاف الناس من البوم ، وإذا كان نعيق البوم نائياً وغامضاً فهذا معناه موت الجار ، وإذا كان النعيق واضحاً ومحدداً فإن سامعه هو الذي سيموت (حتى ولو أغلق أذنيه !) .. وإذا نعق البوم قرب رجل مريض فهذا معناه أنه سيقضي نحبه بعد ثلاثة أيام ! ..

أما في الحبشة ، فحين يحكم على رجل بالاعدام يقتاده الجنود إلى منضدة محفور عليها صورة بوم وحين يرى السجين صورة البوم يدرك الحكم ومن المفروض أن يموت ميتة شريفة بانتحاره بواسطة سلاح يتركونه له مع صورة البوم ! ..

أما في ويلز ، فالغريب أن نعيق البوم نذير للفتاة بفقدان عذريتها ! ... وفي بعض مقاطعات فرنسا يعتبر نعيق البوم بالقرب من امرأة حامل نذيراً بولادة « بنت » لا « صبي » (أي كما هو الحال عندنا !!) ..

وبعض الهنود المعجبين بقوة بصر البوم يعتقد أن أكل عيون البوم يقوي بصر الأطفال ! وقد نقل عنهم بعض البريطانيين ذلك ! .. أما الهنود الحمر فقد (طوروا) هذا الدواء وصارت تقوية البصر تتطلب أكل بيض البوم المجفف والمسحوق ! .. أما في مقاطعة يوركشاير ببريطانيا فيتوهم الكثيرون أن شرب حساء البوم يشفي من السعال ! .. (والفكرة التي يستند إليها هذا العلاج مستمدة من قوة حنجرة البوم التي تنعق وتزعق دون أن تتأثر حبالها الصوتية أو حنجرتها العظيمة) . ولكن هنالك (وصفات) كثيرة متعلقة بالبوم تستعصي على فهمنا ! . . فالبعض يعتقد أن وضع قلب البوم وساقه اليمنى فوق جسد شخص نائم يدفعان به إلى الاعتراف وقول الحقيقة . لماذا ؟ الحقيقة لا أحد يدري ! ..

وكذلك يعتقد البعض أن حساء بيوض البوم يشفي من داء الصرع ومن إدمان الكحول .. وإذا أطعمت طفلاً بيضة بومة فإن في ذلك ضماناً له في بنك المستقبل كي

لا يصبح سكيراً عندما يكبر ! ...

حتى الشعراء والفنانين !

والمفروض أن للشعراء والفنانين عيناً بريئة وحيادية .. لكن الغريب ان أكثرهم لم يكن حيادياً في موقفه من البوم ... فشكسبير نفسه كان يتشاءم من البوم أو على الاقل يتبنى النظرة السائدة بخصوصه .. ففي مسرحيته (ماكبث) نجد أن الساحرات يغلين في قدرهن ذنب الحرذون وجناح البوم . كما أن الليدي ماكبث تهمس بينما هي تنتظر أن يرتكب زوجها جريمة قتل الملك :

« انصت . هدوءاً . كان ذلك هو البوم الذي يزعق .

البوم : قارع ناقوس القدر المشؤوم الذي يعلن عن ليلة حزينة . »

وفي مسرحية شكسبير « يوليوس قيصر »، نجد مصرع القيصر مسبوقاً بنعيق البوم .

« والبارحة ، جلس طائر الليل (أي البوم)

حتى في وقت الظهر

وصار ينعق وينوح

في ساحة السوق ! » ...

وسبنسر ، الشاعر البريطاني الكبير كان يسمي البوم : رسول الموت المروع ...

ولكن البوم لم يكن قطباً لهجاء الادباء فحسب ، بل لمديحهم أيضاً ... كالخلفاء ! ..

وفي قصيدة للشاعر أنون ، نجد البوم رمزاً للحكمة والمعرفة إذ يقول الشاعر :

« بوم حكيم ، جلس فوق سنديانة ...

رأى كثيراً ، فتحدث قليلاً ..

وكلما رأى أكثر ، كلما صمت أكثر ..

وكلما صمت أكثر .. كلما سمع أكثر ..

لماذا لا نستطيع أن نكون جميعاً ..

كهذا الطائر القديم الحكيم ؟ .. »

والحقيقة أن البوم ليس حكيماً . وليس صامتاً . وليس ناظراً في أعماق المستقبل . إنه ببساطة طائر جميل وبريء من كائنات الطبيعة العظيمة ، لا يتأمل في أسرار المستقبل وإنما يتأمل في جحور الجرذان التي تخبيء مشروعاً لوجبة هائلة له ولأطفاله ... ولا يحدق في النهار بحكمة بل يحدق بضيق لأن معظم البوم يعجز عن الصيد نهاراً في ضوء

الشمس ! .. ومع ذلك فإن كثيراً من كتب الاطفال الغربية تصر على نموذج البوم الحكيم وتصوره والنظارات على عينيه حاملاً كتابه أو مرتدياً ثياب الفلاسفة والعلماء ومسوح رجال الدين ! ..

الديناصور والبوم

ظهر البوم على وجه الأرض – على حد علم أخصائيي علم الحياة – منذ ٧٠مليون سنة ... أي أن ظهوره رافق انقراض الديناصور (يستطيع المصرون على نحس البوم، اعتباره نحساً على الديناصور الذي انقرض بمقدمه !) وهكذا فهو أقدم بكثير من انسان نياندرتال الذي لا يرجع تاريخ وجوده على الارض إلى أكثر من مئة ألف سنة ! ...

والبوم لا يأكل الجيف كالضبع . ولا يأكل الحبوب (ولذا لا حوصلة له) . ولعل الفلاح الاوروبي هو أكثر الناس صداقة للبوم منذ أقدم العصور إذ وعى منافعه وصداقته للإنسان ، أو بالأحرى« أن مصالحهما مشتركة » ، وفي أكثر المزارع الاوروبية نجد بيوتاً خاصة بالبوم وصداقة حلوة تربط بين أطفال المزارع والبوم ذي الوجه الانساني الجميل الحزين والنظرة السحيقة الأغوار كحكايا الجدات ...

البوم .. طائر العصر

ويشهد عصرنا ردة فعل عنيفة نحو حب البوم ... وفي الغرب وأوروبا نجد البوم ممثلاً في لوحات وتماثيل مختلفة الصور والاحجام، ويقبل الناس على شرائها إقبالاً كبيراً...

كما أن جمعيات حماية الحيوانات تنادت للدفاع عن البوم ، وعام ١٩٦٤ شهد العالم أول مؤتمر لحماية البوم حضره ممثلون عن ١١ دولة مختلفة ، وكانت قرارات المؤتمر فعالة في الدفاع عن حقوق البوم أكثر من قرارات « الامم المتحدة » ومحاولتها الدفاع عن حقوق الانسان ! ..

ومنذ ذلك التاريخ بدأ تحرير البوم (لا المرأة) من نظرة المجتمع الاعتباطية نحوه .. وبدأ يحتل مكانه الحقيقي ككائن بريء من كائنات الطبيعة لا يستحق كرهاً ولا عشقاً ... وكل ما فيه يدعو إلى الحب أكثر من الكراهية ...

وبعد هذا كله ...

أما زلت تتشاءم من البوم وتكرهه ؟ .. أم أنك ستقول لرفيقتك غداً صباحاً : وجهك جميل كالبوم ؟؟ ...

عين غ تتفرس

في

طه حسين

« الأدب مهنة تضطرك إلى إثبات موهبتك كل يوم لأولئك الذين لا يملكون أية موهبة » .

- جول رونار -

« الفنان لا ينجز عملاً البتة ، كل ما في الأمر هو أنه يهجر عمله ، فيُنشر .

— بول فاليري —

« لا جديد في الفن سوى الموهبة »

— تشيكوف —

٢٤ / ٥ / ١٩٦٨

في عرض البحر معه !

لا أدري لماذا ارتديت أحلى ثيابي ، ووقفت ساعات أمام المرآة قبل ذهابي للقاء العظيم الأعمى طـه حسين .. تماماً كما تفعل الأرملة الطروب الذاهبة إلى الكنيسة ... كانت فرحة غامضة لها طعم التوق والخشية معاً تتفجر من حواسي كلها .. فرحة طفولية حارة ، كذلك الشعور الذي يخامرنا حينما نتأهب لزيارة غابة قضينا في مغاورها طفولتنا ، وعرفنا تفتحنا الأول في مفاجآتها وسحرها ، أيام كانت الدهشة ..

وأخيراً السادسة إلا الربع . والميناء ، ورائحة انسلال النهار من الأشياء تفوح مالحة ممزوجة بعرق عمال شبه عراة يجرجرون عضلاتهم المضفورة بالتعب والشمس . ويعلو صوت باخرة ما منادياً بالرحيل .. صوت حزين وغامض ، وأسمع فيه أصوات عشرات الذين أحببتهم ورحلوا ولم يعودوا ، واذكر أبي ، وصديقتي الكبيرة سميرة عزام وعشرات سواهما ، وعبثاً أهرب من قبضة الحزن المفاجئة .. عبثاً أتخيل أن الباخرة تمضي بهم إلى شواطىء مسحورة ، سماؤهـا قوس قزح ثري الألوان وأرضها غيمة واحدة مضيئة أبداً ...

وأخيراً أقرأ : الباخرة اوزونيا ... وأتأمل النوافذ ... خلف واحدة من هذه النوافذ يجلس رأس ضخم يتضمن قلباً واسمه طه حسين ، وليس بين جيلنا كله من لم يقرأ له ... أو يتأثر بإشعاعه ، بأسلوب مباشر أو غير مباشر ، سلباً أو إيجاباً ... لقد كان موجوداً حقاً ... فرض نفسه ...

وتنزلق داخل رأسي اسماء مؤلفاته الكثيرة، وأسمعها اسماً اسماً: قرع مطرقة نحاسية تحملها يد جبارة على صنج نحاسي كبير ومع كل ضربة يزداد صوته علواً وهديراً ويغطي الزحام خلفه والحقول خلفه والمرئيات كلها ...

صوت الضابط على باب المركب يوقظني . يعيدني إلى عالم الزمان والمكان والقوانين والأنظمة ، وأين الإذن بالصعود إلى الباخرة ؟ وابرز له بطاقة وردية ، وحينئذ فقط

حين قرأ الضابط اسماً آخر غير اسمي ، والتفت إلى مصور المجلة (فاروج) تذكرت أنه يرافقني . أتسلق درجات الباخرة ، يرافقني (فاروج) .

طبعاً كان من الضروري أن يكون لقائي مع طه حسين هكذا . ضمن شروط استثنائية . على متن باخرة في الترانزيت . كما يلتقي اثنان في مطار ما ، دقائق ، ريثما تتابع طائرة كل منهما الاقلاع إلى اتجاه معاكس أو مواز ، ولكن ليسا معاً .

ولو تخيلت مرة كيف وأين يمكن أن التقي به ، لما تصورت قط أن ذلك يمكن أن يحدث في حفلة (كوكتيل) مثلاً ، حيث تجرني سيدة عانس من اللواتي يتبنّين عادة الادباء بعد أن يبلغن الخمسين ويصبحن فجأة (مثقفات) ، تجرني من يدي إلى رجل يستند على حوض رخامي فيه زهور اصطناعية ويقهقه وتقول هي: مستر طه حسين، أقدم لك المدموزيل السمان ، فيرد هو : هالو ، مدموزيل غاده . طقس جميل ، أليس كذلك ؟ ! ..

كما لم أتخيل أن أدخل مرة أحد مقاهي بيروت ، لأرمي بجسدي فوق أول مقعد ، فأدوس بقدمي خطأ على قدم شخص أتبين فيه فيما بعد طه حسين . . .

مع رجل غير عادي ، تم زرعه عبر الأعوام في نفوسنا بطريقة غير عادية ، لا يمكن أن نتخيل معه إلا لقاء كهذا له طعم الاسطورة ، في المنطقة الحرة ، وعلى متن باخرة سترحل بعد قليل ...

الاستاذ فريد شحاته ، سكرتيره ، يقابلني بلطف من اعتاد لقاء أسوأ أنواع الفضوليين وأكثرهم براءة خبيثة : الصحفيين .. يقودني في ممر طويل . يغيظني أن جدران الممر من المعدن ، وأرضه وسقفه كذلك .. الطريق إلى طه حسين أتخيلها من الخشب مثلاً ، من خشب حي ما يزال يتعرق ، أو أتخيلها درباً داخل أحشاء حوت مثلاً ! ...

ثم باب . ثم يُفتح الباب . ثم أصير في الداخل وأراه . وقبل ان أشربه بنظراتي يذكرني صوت سيدة بأن (فاروج) ما يزال معي . بالفرنسية وبعصبية تقول : ماذا تحمل معك ؟

بيساطة يجيب : كاميرا ...

تقول : لا صور ... لا صور أبداً .

يضايقني هذا الحوار الجانبي ، أريد أن أتفرغ لرؤيته وهم يضايقونني . قلت لفاروج: إذهب . ثم عدت داجنة ، فقلت له بتهذيب : تستطيع أن تنصرف إذا أحببت .

لا حاجة للصور .

وأخيراً ، طه حسين أمامي ...

تقدمت منه ، وشددت على يده في لحظة زمنية لم أسمح لها بأن تطول أكثر من زمن المصافحة .

أتأمله بصمت . زوجته انسحبت ، والاستاذ فريد جلس صامتاً ...

تمنيت أن أظل صامتة .. بل انني بدأت أتساءل لم جئت ؟ أحسست أنه ليس لدي ما أقوله ... تمنيت أن يقول أحدهما شيئاً ما ! ..

كان جالساً على كرسيه ، منتصباً في كبرياء ، ووجهه كله كان يرتدي نظارة سوداء ... بدا لي متعباً في ترفع ، وصدره الذي يعلو ويهبط جناحي نسر يتسلق صاعقة ..

ولما بحثت عن صوتي ولم أجده قررت — كعادتي — أن أفكر بصوت عال . قلت لطه حسين : من الصعب جداً أن (يحدثك) الانسان ... أشعر بأن كل ما يمكن أن يقال قد قيل لك .. كل ملحمة مجاملة أو اطراء يمكن أن تخطر بالبال قد أُنشدت على مسامعك وصارت لاتثير إلا مللك ... كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني منذ صغري عايشت حروفك .. قرأت كتابك « الايام » قبل أن أكون حتى قادرة على فهمه ، لذا فانني أحمل لك شيئاً عاطفياً غامضاً وعتيقاً ، نحمله عادة لما التصق بنا منذ الطفولة وكبر معنا بغض النظر عن موقفنا العقلي منه .

لم يجب . بدت على وجهه ابتسامة ساخرة ، متحدية وحنون في الوقت نفسه .

هذا الوجه العتيق الصامد كمعبد محفور في الصخر ، ماذا يمكن أن أسأله وأنا أعرف أن كل ما يمكن أن يخطر بالبال من اسئلة قد سبق وطُرحت عليه مرات ورد عليها مرات .. وأي حوار معه كلعبة شطرنج يعرف سلفاً كيف يديرها وما يمكن أن يقال وكيف تنتهي ...

قررت . لن أسأله شيئاً . تركت أوراقي من يدي وأغلقت قلمي وقلت له : ليس لدي ما أسأله . أعرف أن ذلك صار يثير ضجرك . في وجهك ملل وسخرية قرون ..

سألني بعتب : وهل جئت من أجل حديث صحفي ؟

— ليس بالضبط . جئت أنا لأسمعك .. جئت ككاتبة تشق طريقها وتبحث عندك عن بعض علامات الطريق . ولأني أعرف أن كثيرين غيري يتمنون سماعك فقد قررت أن أنقل إليهم حوارنا إذا لم يكن لديك مانع .. وقد تصادف أن اسم عمل

كهذا : حديث صحافي .

تابع طه حسين : حسناً ، والمصور لماذا ؟ ...

فعلاً ، المصور لماذا ؟ أحرجت . وجدتني أنا نفسي أتساءل : المصور لماذا جئت به ؟ ليصدق الناس أنني كنت هنا ؟ أم لأصدق أنا ؟ أم للعرف الصحافي ؟

قلت : الصور لنشرها ...

– واذا رفضت ؟

– احتفظ بها للذكرى ...

علت وجهه ابتسامه ناعمة كحد الشفرة ! أضفتُ مفسرة : لا تنس أنني انتمي إلى شعب شرقي ، وللذكريات أهميتها لدينا ، ونحن غالباً نحب شواهد حسية عليها .

قال : ولكنك بعد أن تخرجي من هنا ستكتبين . أعرف ذلك .

قلت باخلاص : لا .. ليس إذا وعدتك ..

قال بمرارة ساخرة : كلهم يقولون ذلك .

قلت : وأنا أيضاً قد أضعف مثلهم ، إلا اذا طلبت مني أن أعدك . اطلب مني ذلك ، جرب مرة واحدة أن تصدق .

لم يفعل ، كأنه اشفق علي من التجربة !! ..

وفرحت لانه لم يفعل ، إذ لو طلب مني ذلك لما كتبت ، فعلاً ! لذا أحزنني أن يرتسم في وجهه شك حزين ، تاريخ من الخيبات بالبشر (وهو احساس أعرفه جيداً !) غلّفه بصمت صارم ، قلت له هامسة (في الواقع كنت أناجي نفسي) : كم هو مفجع أن يبلغ الانسان مرحلة يفقد فيها قدرته على تصديق أي شيء..أي شيء على الاطلاق!..

لم يسمعني فقد كنت أهمس لكنه فهمني .

أظنني كررت عبارتي. رد طه حسين هامساً: «الحمد لله» . . . لفظها بطريقة غير عادية لا بالطريقة التقليدية .. وأحسست انها تحمل شبه جواب .. وأن هذا الانسان ما زال يؤمن .

قال لي فجأة : لماذا لم تعد لهجتك في الحديث (شامية) ؟

– وكيف عرفت ؟ لا بد أن لك كثيراً من الاصدقاء السوريين ..

تهلل وجهه . قال : فعلاً . كان المرحوم والدك أحدهم ... كان من أقربهم إلى قلبي وقد حزنت حينما علمت بنبأ وفاته ...

(المرحوم أبي ... إذن مات أبي ! .. إذن مات حقاً ! ..

أحياناً كثيرة أنسى أن أبي قد مات ... كل ما في الامر ان غيابه طال هذه المرة ، وذات ليلة سيقرع باب بيتي وحين أفتحه سأجد على عتبته أبي مبللا بالمطر وأعشاب الغابات والطين) .

ومع ذلك سقطت في بئر معتمة ، وسمعت بإلحاح صوت باخرة يؤذن بالرحيل . وشعرت بيد طه حسين تعرف موضعي من البئر وتمتد إلي لتنشلني إذ قال : أحب السوريين .. عرفت عدداً كبيراً منهم وهم من أحب اصدقائي ... الاستاذ سامي الدهان مثلاً ... شكري فيصل .. سامي الدروبي .. قلت لطه حسين : لقد أعدتني إلى دمشق بكلماتك .. كلهم من أصدقاء والدي ، وقـد لقيت منهم كل تشجيع لما بدأت الكتابة ...

قال : والشاعر شفيق جبري ..

قلت له : والآن حملتني ورميت بي في بلودان وسط الثلوج ... كان هذا الشاعر جاراً لنا هناك ، وكان يذهب إلى داره الصيفية تلك في الشتاء ، والثلج يغطي كل شيء .. وكان أبي يذهب بي أيضاً ، ويمر به دون أن يخاطبه رغم صداقتهما الحميمة ، ويقول مفسراً : إنه رجل شاعر .. يأتي إلى هنا ليكون وحيداً مع الثلج النقي والسماء كالطيور ... سيزعجه ان يرى آثار خطواتنا على الثلج ...

قال : وسامي الدروبي ؟

قلت : كان مريضاً جداً في فترة ما ثم لقيته منذ أشهر في أحسن حال وقد استعاد شبابه .

وصمت كلانا . كان واضحاً أننا نطير . كرر طه حسين : الحمد الله . الحمد لله . من الله عليهم بالعافية .

وكنت أهيم في أفق رمادي حزين وحميم من ذكريات أصدقاء مشتركين . فانتشلني بسؤال مباشر وبسيط : ماذا جرى لدراستك ؟

— أتابعها بين لندن والقاهرة ..

— والجامعة السورية ؟

— تخرجت منها بالليسانس ..

— من أثر في نفسك من أساتذتك العرب ؟

— كانوا جميعاً من الانكليز والأميركان . مصري واحد انطبع في ذاكرتي هو الدكتور لويس عوض . كنت في صف الثقافة العامة ، وعلمني لمدة شهر فقط ...

كان مذهلاً ، ما زلت أذكر ترجمته لقصيدة كولريدج (كوبلاخان) ... كانت أفضل من الأصل ...

– فعلاً .. إنه أديب كبير ، أذكر جيداً انه ذهب ليدرّس في جامعة دمشق ثم أعيد إلى القاهرة بعد فترة وجيزة ..

فجأة أحسست بالنقمة على طه حسين . جئت أتحدث إليه ، وها هو ينبش حياتي وماضيّ وعالمي الذي أهرب من ذكراه . لذا سألته بحقد شديد كله محبة : وانت ، هل تقرأ للأُدباء الجدد ؟ هل تقرأ لجيلنا ؟ ..

اجاب : ماذا تعنين بالأُدباء الجدد ، وجيلكم ؟ ..

قلت : أعني الأسماء التي ظهرت خلال الاعوام العشرة الاخيرة ... أعني الكتاب الذين لم يبلغوا الثلاثين من العمر بعد .

– مثلاً ؟

– حسناً . أنا مثلاً . أتمنى كثيراً أن أعرف رأيك بما أكتب .

– لو كان ذلك صحيحاً لأهديتني كتابك !

أحرجني .

تابع : لو كان جيلكم يطلب المشورة حقاً لجاء يطلبها ... إنني أقرأ كل ما يصل اليّ .

شعرت بأن النقاش الموضوعي يسره ولا يغضبه لذا قلت له بصراحة : ولكن ذلك ليس تبريراً . أنا مثلاً قرأت لك ، دون أن يخطر ببالي أن عليك ان تهديني كتابك . ثم إننا لا نستطيع أن نهدي كتبنا لمن نريد منهم ان يقرأوا لنا ... على أية حال ، ما رأيك بما تقرأ لسواي مثلاً ؟

أجاب : ينقصه أن يغرس جذوره في التراث ... الثقافة الغربية ضرورية ، لكن استيرادها بدلاً من هضمها مؤذ ..

سألت : ما رأيك بمسرح اللامعقول مثلاً ؟ إنني أعد اطروحتي للماجستير عنه .

قال : (خسارة) تعبك . مسرح اللامعقول وهذه الصرعات كلها لا شيء .. حينما اشاهد مسرحية ليونيسكو مثلاً وأسمع الحوار (اللامعقول) الذي يقال،لا أشعر إلا برغبة في الضحك . مسرح اللامعقول سخافات ... كله سخافات غربياً كان أم عربياً ...

أجبت : ولكنه قائم وتعشقه النخبة في أوروبا .. وله نقاد لا ينقصهم الاطلاع

على تاريخ المسرح ولا الوعي الأصيل . مارتن ايسلر مثلاً .. ألم تفكر بذلك ؟ .

قاطعني بصرامة : كيف أفكر ما دام أتباعه انفسهم يصفونه بأنه غير معقول .. والتفكير شيء معقول .. فكيف أفكر باللامعقول ؟ .. اسمعي .. مسرح اللامعقول موجة من زبـــد ... ولن تدوم ... من المؤسف أن نقلدهم بها ... وأن لا نفكر بالعربية ! ..

صمت كحارس مرمى يلتصق بشبكته ويستريح بعد الشوط الاول ...

عدت اتأمل طه حسين . كان طعم صوته ما يزال يهدر في أذني ، كصوت هدير القطار بعد رحلة طويلة ، والذي نظل نسمعه حتى بعد الرحلة .. صوت طه حسين عميق وأجش وواضح ويدهشك أنه يخرج من ذلك الجسد المنهك رغم تماسك صاحبه كعمود من الرمل . لكنني وقد سقطت في عالم صوته ، وحواره ، كففت عن أن أراه مريضاً ومتعباً ، وكان من المفروض أن أنسحب لأريحه فلم أفعل ، بل خيل الي أنه بعد لحظات سيرمي بالغطاء عن ساقيه وسيشدني من يدي لنقفز معاً على سلالم الباخرة كلها ...

سألته : ماذا تكتب ؟ (سألته هذا السؤال لانني لم أعد أراه كما يبدو ، مريضاً منهكاً) لم يحمل رده أية خيبة . قال : أكتب الجزء الرابع للأيام ... وأكتب جزءاً جديداً لـ « الفتنة الكبرى » ...

— وهل انتهيت منها ؟

— انتهيت من الجزء الرابع للأيام ، وسيصدر قريباً .

هذا الرأس الجبار ما يزال يعمل ، لقد تحرر من لجامه : الجسد ، بما يضمه من شهوات ومرض وارهاق ، وما زال قادراً على الانطلاق والعطاء ... شعرت فجأة بأنه لا عدالة في هذا العالم ... هنالك كثيرون منحوا شباباً لم يستغلوا لحظة واحدة من (انسانيته) ... ومع ذلك ، فنصيبهم من سنوات الشباب يعادل نصيب طه حسين .

سألني : هل تحبين السفر ؟

— إني مريضة به ... اللااستقرار يأكلني ..

— السفر مفيد للأديب ، بشرط أن يظل مسيطراً عليه ، ويعيه .

كنا نتحدث ببساطة .. بارتياح . قبل أن أجيء ، تخيلت أن حوارنا سيكون حواراً بين جيلين . تخيلت أن جداراً ما سيقف بيننا ، أن نقاشنا سيكون كنقاش اثنين يصلهما هاتف معطل ، شعرت بأن الهوة التقليدية بين الأدباء (القدامى والجدد) يصنعها وهمنا

فتصبح حقيقة ... إن لديهم ما يقولونه لنا وهذا ما نجهله ، ولدينا رغبة في الاستماع اليهم وهذا ما يجهلونه ...

فجأة ، خيل إلي أنني أسمع صوت الأمواج ، وحينما نظرت عبر النافذة توهمت أن الباخرة قد أقلعت منذ صعودي اليها في رحلة مجهولة .. سألته : لماذا تسافر بالباخرة بدلاً من الطائرة ؟

قال : سافرت مرات عديدة بالطائرة ، كنت أشعر بضيق لا يصدق ، أكره قيد المقعد ، وعجزي عن الحركة الطبيعية . أحب الباخرة ، ففيها الكثير من الأرض . أحب قدرتي على السير فوقها والحركة . علاقتي بالارض ما تزال قائمة ... ثم إنني أحب رائحة البحر .. سألني :

– وانت ؟

– أنا أفضل الطائرة . حينما تسقط الطائرة ماذا يحدث ؟ نموت سريعاً ! أما في الباخرة ، فيخيل الي أن الموت يستغرق زمناً أطول ..

انفجر ضاحكاً وقال : كيف تفكرين بالموت وأنت في مقتبل العمر ؟ ..

قلت : افكر به أكثر من أي شيء آخر .. بل انني أعايشه !

قال : هذا غريب ... جيلكم كله هكذا ..

قلت : لا . هذا ليس غريباً . الموت ليس من اختصاص الشيوخ وحدهم . الموت لا علاقة له بالسن . الموت موجود في صلب وجودنا جميعاً . وعيُنا به يرتبط بعوامل كثيرة آخرها السن .

ابتسم مشفقاً من حماسي في المرافعة عن حقي بالتشاؤم !

قرع الباب فجأة وعادت السيدة التي غادرت الغرفة لحظة وصولي . ولما كان ارتباكي قد غادرني ولم أعد أشعر بأنني شيء منفصل ومرفوض من الغرفة التي أنا فيها ، لذا جاء دوري لأتأملها بهدوء وبكثير من الفضول . متوسطة الطول والامتلاء . ما يزال وجهها يحمل كثيراً من النضارة ، ومن عينيها يشع ذكاء وقاد ... ولا أدري لماذا رأيتها ما تزال جميلة . ربما كانت نظراتها ، أو أنها فعلاً كذلك .

إذن هذه هي المرأة التي عايشت طه حسين ، والتي ربما لولاها لحُرِمْنا من الكثير الذي منحه في مرحلة كانت شبه خامدة لولاها ...

بدأت تحدثني بلطف وذكاء . رأيت بعينيها ان طه حسين رجل متعب ومريض ولا يجوز لأي انسان أن يتحدث إليه طويلاً هكذا ... أحسستها تحاول أن تأخذ عنه

عناء الحوار .. تحدثنا قليلاً في أشياء حميمة وعادية ، الأشياء التي يدور الحوار عنها عادة في أول لقاء لأشخاص لا يعرف بعضهم أي شيء عن البعض الآخر . وقبل أن تسأله فيما إذا كان متعباً ويحب أن يستريح ، لملمت نفسي بصعوبة ولملمت أوراقي بسرعة ، وبينما كان الاستاذ فريد شحاته يكتب لي عنوان طه حسين في إيطاليا ، كنت أعده بأن أرسل كتابي إليه أو أحمله بنفسي في طريقي إلى لندن . ودعني في كثير من المودة والحنان ، كما يبارك صديق ابنة صديقه المتوفى .

غادرت الغرفة وأصر الاستاذ فريد على مرافقتي في أحشاء الممر المعدني الطويل... قال لي : إنه متعب جداً . قلت له : فعلاً . لكنني لا أحس بتأنيب الضمير لأني أطلت بقائي ! لقد سعدنا للحظات !

وغادرت المركب والاستاذ شحاته يلح علي بأن أنقل تحيته إلى صديقيه الاستاذ المنجد وعقيلته ... وكنت أسمعه دون أن أسمعه ...

فعلى رصيف الميناء ، كان المساء الحزين ينتظرني تعباً في جسد النور الشاحب ، تعباً في أجساد العمال المرمية على الرصيف ، تعباً في جسد البحــر ورائحة الملح تفوح من الأخشاب العتيقة التي بدت أضلاعاً لصدره ..

غادرت هذا كله ، ولا أدري لماذا سرت طويلاً حتى التقيت بأول مكتبة ، وفي واجهتها بحثت بين الكتب طويلاً عن الجزء الأول من الايام ، كيتيم يبحث عن طفولته الضائعة . ترى هل علي أن أقف هكذا طويلاً قبل أن التقي بطه حسين من جديد ؟؟ .

أم لا لقاء بعده ، بهما ؟؟ ...

عين غ تتفرس

في

جبران بقريته

« في جمهورية العادي والتافه ، العبقرية شيء خطر »

— روبرت . ج . أنجرسول —

« لا كرامة لنبي في وطنه »

— مأثور عربي —

« الكتابة هي أكثر المهن بؤساً — باستثناء مصارعة التماسيح — » .

— أولين ميللر —

« الفن هو الكذبة التي تتيح لنا رؤية الحقيقة »

— بابلو بيكاسو —

١٥ / ٣ / ١٩٦٨

بشري تغتال جبران كل صباح !

الثلج يغلي في الدرب الضيقة الخطرة . يغلي في الوديان السحيقة على جانبي الطريق . يغلي بين شجر الأرز والغابات الشاسعة . يغلي على قرميد القرية الموشومة في صدر الجبل . يغلي على صفحة عيني .. كل شيء جميل ، جميل ، يثير الرغبة في الامتلاك ثم الشعور بالعجز ثم بالبكاء وربما الكتابة ...

الطبيعة هنا جبارة حتى الخلق وحتى التدمير ... رائعة تشف عن الأبدية ... في مثل هذا المكان العظيم لا يمكن الا ان يولد فنان عظيم .. يكفي ان يستحيل شاشة يرتسم فوقها هذا كله ...

لوحة زرقاء كتب عليها « بشري » . تأملتها غير مصدقة أنني وصلت بسلام بعد ساعة من انزلاق عجلات سيارتي فوق الثلج .

أمام دار عتيقة توقفت. دار عتيقة وصغيرة ، ولا يميزها عن بقية بيوت القرية، سوى لوحة في مدخلها ، كتب عليها : بيت جبران خليل جبران .. ثم تمثال أسود في الباحة لوجه وسيم وحزين .. وجه جبران ...

هذه داره ... هنا ولد « المجنون » وعاش طفولته الأولى ...

قرعت باب الدار ، لم يُجب أحد . قرعت الباب من جديد (كنت أتوقع أن يفتح جبران الباب للفتاة المجنونة التي جاءت تبحث عنه عبر الثلج الخطر صبيحة يوم أحد حزين) .. لم .

أطل وجه مشعث متعب لرجل في الأربعين من دكان الفران المجاور بعد أن ناداه بعض الصبية الفضوليين من أبناء الضيعة ..

« أنا بيحرس بيت جبران » ... هكذا قال بلغة عربية ركيكة . والمفتاح ؟ ..

« المفتاح معي .. لحظة » ...

لحظات .. والباب قد فتح .. وأنا في الداخل حيث عاش جبران سنين عديدة من حياته ...

وأحسست برغبة في الضحك . حسناً هنا وُلد .. وماذا في ذلك ؟ ... دار أُخرى...
رجل آخر ... عجزت عن رسم اية علاقة بين جبران وبين هذا المكان ... وفي ثانية
قررت : لماذا جئت إلى هنا إذا كنت أريد أن أكتب عن جبران ؟ .. سأعود الآن .
حالاً .

لو ...

لو لم ألتفت إلى حارس الدار وأسأله محاولة إيجاد كلمة تقال ، أية كلمة ؛ ما دام
قد تعب وفتح الباب : منذ متى تحرس هذا المكان ؟؟ ..

ــ منذ (١٨) عاماً ...

ــ عظيم .. لا ريب في أنك تحبه كثيراً كي ترضى بهذا العمل ... طبعاً قرأت
لجبران ...

ــ لا ... أنا أميّ .. لا أعرف القراءة ولا الكتابة ! ! ..

هنا فقط أحسست أن هناك ما يستحق أن يرى في هذا المكان ... وهنا فقط ،
خيل إلي ان شبح رجل غامض ينتحب في زوايا البيت باكياً جهل بني قومه ، باكياً
(لبنانهم) باحثاً عن (لبنانه) ... تعذبه الأشياء نفسها التي عذبته قبل هجرته ...

وقررت ... سأبقى .

طبعاً لم يكن لدى الحارس ما يقوله عن جبران فهو لا يعرف شيئاً ...

إنه يحرس الدار المهدمة ، ولكنه لا يحرس ذكرى جبران ...

تلك هي المهزلة ...

وتذكرت يوم زرت بيت بيتهوفن . كان كل دليل استاذاً في الفن ، ومحباً شخصياً
للفنان .. ولم يكن مجرد موظف وحارس للحجارة والجدران ..

وتحت الثلج الــذي كان يندف بشدة ، وقف الحــارس السيد « لاوون م . »
(٤٠ سنة) أمام تمثال جبران وقد رسم على وجهه أحلى ابتسامة كي ألتقط له صورة...
سألني محتجاً : لماذا أمام التمثال ؟ ! . فهو لا يعرف شيئاً عن صاحب التمثال الذي
يحرس داره ، وكل ما يعرفه هو أن هناك شيئاً اسمه لجنة جبران تمده براتب ضئيل
مقابل حراسة داره الملاصقة لفرنه ... الفرن أولاً طبعاً . الحارس الأمي لا يعرف
شيئاً عن صاحب الكنز الذي يحمل مفاتيح داره .. وعن ذلك التمثال تحت الثلج ..

وأنا التقط صورته كدت أطلب منه ألا يتحرك (من التمثال لا من الحارس !)
فقد خيل إلي أنه وجه حي لإنسان محكوم أبداً بالحزن .. فهو منصوب على مرتفع ،

وعيناه تواجهان ساحة القرية .. تريان كل شيء .. أذناه تسمعان كل شيء .. وكل شيء ما زال كما كان منذ ولد هنا .. الجهل والاستغلال وكل ما وقف طيلة عمره ليحاربه ...

إذ بعد يوم واحد في بشري خرجت مقتنعة أن هـــذا التمثال يبكي في الليل طويلاً طويلاً وبصمت ...

ضد مخدرات مدرسة جبران

قبل أن أزور مسقط رأس جبران ، وقريته التي دفن فيها والتي أوصى لبلديتها بريع كتبه ونتاجه ، كنت اعتقد اعتقاداً جازماً ان عصرنا قد تجاوز جبران فكرياً وأدبياً واجتماعياً .

وكنت مؤمنة بأن عظمة جبران تكمن في عطائه ضمن إطار الحقبة التاريخية والأدبية المجدبة التي عاشها ، والتي أنعشها وغذّاها ...

كنت اؤمن بأنه يستحق الخلود ضمن إطار تاريخ الأدب لا ضمن إطار روائع الادب الخالد ... وكنت أجد في رأي الشاعر توفيق الصايغ ما يلخص موقفي من جبران « إني لست من المولعين بالنتاج الجبراني ، وأرى أن الاطلاع عليه في طور مبكر من أطوار حياة المرء عندنا هو عارض لا بد وأن يصاب المرء به ويضحي بعده بمنجاة من تكرره » ...

فقد كان جبران يمثل في نظري مدرسة في الاسلوب تفرض علينا المرحلة الراهنة — سياسياً واجتماعياً وفكرياً — تجاوزها ... مدرسة الوقوع في غرام اللفظة إلى حد تمييع الفكرة . مدرسة نفخ الكلمات واللعب بمرادفاتها ونحتها إلى حد نسيان بث الروح فيها : روح الفكرة ...

مدرسة الهرب من صلابة الأفكار وتحديدها إلى « تتويهها » تحت برقع من ضبابات الأخيلة والرؤى .. هذا بالاضافة إلى أن ثورته الفكرية والاجتماعية قد تم تجاوزها أيضاً .. وكنت لذلك اجد في جبران كاتباً جيداً ضمن إطار عصره ، فهو ثائر في أيامه ، ولكن ثورته ليست مبدعة وانسانية وشاملة إلى حد تظل معه أبداً ثورة .. وصار أي تكريم مبالغ به لجبران يمثل في نظري تشجيعاً لمدرسة تمييع اللغة والفكر العربي وبالتالي مزيداً من التشويش للفرد العربي في مرحلة من أخطر مراحل تاريخه .

كان ذلك انطباعي قبل أن أذهب إلى بشري ، وأقضي يوماً واحداً بحثاً عن جبران

ثم أقضي أكثر من ليلة مع نتاج جبران من جديد ، ومع رسائل جبران (جمع الدكتور جميل جبر) التي سبق لي أن أهملتها لأن أدبه لم يعد يثير فضولي منذ مراهقتي الأولى !

ووجدتني أكتشفه من جديد ... جبراناً جديداً ..

وبعد ان كنت ضد هدر الطاقات في إقامة اسبوع جبران ، واعادة ترجمة كتابه « النبي » ، عدت وكلي مع فكرة تكريمه ، فقد صار يمثل في نظري مأساة الاديب في بلادي ..

ما تبقى من جبران

ماذا تبقى من جبران في قريته « بشري » ؟ متحف ومقبرة ...

ماذا تبقى منه في عقول أهل القرية (وهذه القرية اللبنانية تمثل نموذجاً راقياً جداً بالنسبة لبقية القرى العربية من الناحية المادية على الاقل) . وإلى أي حد نفذت كلماته إلى قلوبهم ونفوسهم وضمائرهم ؟

هذا ما وجدته خلال يومي اليتيم في القرية الجميلة المزروعة بالثلج والاطفال ... وإلى بعض التفاصيل ..

مطلوب سارق مثقف

بيت عادي من الحجر . ما يسمونه (بناية) ، يذكر بدور السكن ، والجمعيات الخيرية ، وعيادات الأطباء ، أو مخافر الشرطة ، يذكر بأي شيء إلا بالمتاحف . ولكن لوحة معينة على مدخل الدار تصر على أن في الداخل متحفاً . « متحف جبران » ! .

وصعدت في السلم أبحث عن (شقة) لوحات جبران !! ... أخيراً : (شقة جبران) .

الباب مقفل . بحثت عن الجرس (ربما هنا كل شيء مختلف ، وأبواب متاحفنا لا تفتح الا بالتحايل) أطل ابن الجيران ! قال : الحارس غير موجود ..

ــ يجب أن نجده . صحافة !

ابتسم للكاميرا . قال : لماذا لم تخبروه بمجيئكم لينتظركم !! ..

لم أجب (المتاحف في بلاد العالم كله كالخبز والهواء والشمس .. للجميع .. هل على السواح أن يبحثوا عن الحارس ؟!) ..

هبطت إلى الشارع . تجمع بعض الفضوليين وأولاد الحلال وصبية الشارع ..

ـ الحارس صايم .. ذهب للغذاء ..
ـ الدنيا ثلج وبرد .. ذهب لينام ..
ـ الحارس هنا .. الحارس هناك ...
أين الحارس .. لا حارس .. برد .. لا سواح .. لمن الحارس .. من جديد إلى ساحة القرية .. إلى أزقتها بحثاً عن الحارس ! ..
الحارس في المتحف اخيراً ...
ولوحات جبران الزيتية التي رأيتها للمره الأُولى في حياتي ... وقد أذهلتني ! ...

لوحات جبران رائعة فعلاً ... إنها تشبه إلى حد بعيد رسوم الشاعر «ويليم بليك»، إلا أنها تفوقها رقة ولوعة . وقفت أمام بعضها بذهول .. إنها ثروة فنية عظيمة ... وأنا أتجول امام الجدران المغطاة برسومه ، أحسست أن جبران الرسام في نظري أعظم من جبران الكاتب بمراحل حتى لأكاد أقول : جبران في نظري رسام ظلمناه وأديب جاملناه ! ...
واللوحات معلقة بجهل تام .
ليست هنالك أية إضاءة خاصة كما في المتاحف كي يرى الانسان اللوحات .
إنها مرصوصة على الجدران بعضها إلى جانب بعض كما يرص الأثاث أثناء بيعه في المزاد العلني .. وكما ترص المواشي في الزريبة ! ..
وليس على اللوحات أو قربها أي شرح أو تاريخ ... لا شيء أبداً يوحي بأنك في متحف .
الحارس الذي تكرم بفتح الباب يدعى شفيق ع . خ . وهو ليس دليلاً مثقفاً يستطيع أن يعتمده الانسان في الاستفسار حول اللوحات .. تصرفاته ولهجته توحي بأنه يستطيع أن يكون (ناطور) كروم ناجح ..
وقد شاركني البحث عن الحارس في متاهات الضيعة شاب يدعى ميشال على مستوى جيد من الثقافة والوعي ...
وحينما سألت الحارس شفيق فيما إذا كان قد خطر له في لحظة من لحظات الملل ان يعد اللوحات على الجدران كما يعد ناطور الكروم النجوم في الليالي الطويلة ، قال إنها ٤٠٠ لوحة .
واعترض الاستاذ ميشال . أ. بقوله : كانت هنالك لوحة تشير إلى ان عدد اللوحات التي رسمها جبران ٨٤٠ لوحة . وإن هذا المتحف يضم ٤٥٠ لوحة . كان ذلك على

الأقل منذ عامين ...

واكتشفت أن ميشال . أ كان قيماً على المتحف بين عامي ١٩٥١ — ١٩٦٣ ، وانه رافقني مدفوعاً بحبه لجبران ، وللوحاته التي عايشها ...

ولكن الحارس الحالي لم يستسلم ، قال بصوت حاد مليء بالغضب : « على أيامي » لم تكن هنالك لوحة تحمل عدد نتاجه ... « على أيامي » هذه هي اللوحات ولم تنقص واحدة ..

وهكذا كان من المفروض أن أقسم نتاج جبران « على أيام » الحارس و « ما قبل أيام » الحارس ...

ومع ذلك ، حاولت أن أستفسر منه عن اللوحات التي تم نقلها إلى دار الفن لعرضها بمناسبة اسبوع جبران في بيروت ، لكنه أصر على (الإنكار !!) وكأن في الامر تهمة تشين سلوكه المسلكي وحراسته ، وظل مصراً على أن لوحة واحدة لم تتحرك من مكانها « على أيامه » !! ..

وبعد ، فقد خرجت من المتحف وأنا أسأل : من يحرس هذا الكنز ليلاً ؟ أو ظهراً ؟ أو في فترات غياب الحارس كهذا الصباح مثلاً ؟ ...

وجاءني الرد العجيب : لا أحد !! هذه الثروة الفكرية والفنية ، مرمية هكذا في الثلج فريسة لذئاب الثقافة وسماسرتها ...

عن لجان جبران كلها ، بلا استثناء ، التي جاءت في الماضي وفي الحاضر أكتب...

عن آلاف الليرات المتدفقة عليهم من ريع نتاج جبران .. أما من نور يضيء لوحاته للأعين (ما دام فتح النوافذ ممنوعاً ، والتصوير كذلك، بأمر من اللجنة!) .. أما من مكان رحب تتوافر فيه كرامة المتاحف .. أما من حارس مثقف يؤمن للسائح شرحاً وافياً بدلاً من استعراض مريض لحزازات أهل الضيعة ؟ ..

أما من حراسة لهذا الكنز المرمي للصدأ والعفن والبرد ؟ ..

غادرت المتحف وكلي دهشة لأن أحداً لم يسرقه حتى الآن ونادمة لأنني لم أسرق بعضاً من لوحاته بنفسي ، وأهرب بها إلى الشمس لأراها بوضوح ، لتسعد برؤية محب لها يتأملها للمرة الاولى منذ تم سجنها ، يتأملها بحرية وصدق ، بعيداً عن جو المهاترات المريض وصياح الحارس الموتور ...

مطلوب سارق مثقف فوراً ينقذ هذه اللوحات من سجن يضمها مع كل ما وقفت ضده : الجهل .. والتعصب .. والاستهتار ...

مطلوب من نواب بشري إنقاذ جبران من بشري ومن لجان جبران ومن أمراض الوطن العربي في مسقط رأس جبران ..

مطلوب الكف عن قتل جبران بحجة حمايته ...

كتبه ، وأشياؤه الصغيرة

ويضم أيضاً (سجن) ذكرى جبران الملقب خطأً (متحفه) كتبه ، وسريره ومرسمه ، وصندوقه العتيق ، وشمعدانه الأسطوري ذا الفروع الستة ...

وحينما وقفت أمام كتبه تذكرت لحظة مشابهة وقفت فيها أمام مكتبة جوته في المانيا ... ما أعظم الفارق بين رعاية الشعوب الاخرى لمبدعيها وإهمالنا لهم أحياء وأمواتاً .

مقبرة جبران

ومقبرة جبران كانت أيضاً مفاجأة مؤلمة أخرى ...

الدرب إليها جميلة ... الأشجار العملاقة والجبل الشاهق والوادي الجبار بشلالاته.. ثم جسر ... ثم دير !! ...

جبران مدفون تحت الدير !!

باب قبره مقفل أيضاً . المفتاح مع الجارة . فُتح باب القبر . تركت حارسته تثرثر حول مغامرات جبران مع «حلى الظاهر» ونساء الضيعة ثم تحوله بقدرة قادر إلى قديس ذي كرامات تشفي أهل الضيعة (من الفقر على الأقل !) وبحثت عن جبران في مقبرته فلم أجده . لم أجد شيئاً منه إلا الجثة .

وجدت وكراً للأشياء كلها التي قام جبران بثورة ضدها ...

جبران ضد الوساطة بين الله والبشر وقد تم دفنه تحت الدير .

جبران ضد الزيف الحضاري ، ولكن وروداً اصطناعية بشعة فجة كتلك التي نجدها في الاعراس التقليدية تغطي وجه قبره .. و (لمبة) كهرباء ظاهرة للعيان وبشعة تلتمع فوق التابوت المسور بقضبان حديدية قبيحة الإيحاء تسور إلى الأبد ذلك الذي عشق الحرية . وإلى يسار الكهف المعتم الا من نافذة قزمة ، هنالك شبه موقد ، مغطى بالاسفنج واعشاب البحر .. ثم ستارة تغطي باباً مفتوحاً على حجرة ضيقة جداً بحجم صندوق وبلا نوافذ وليس فيها سوى مقعد للاعتراف ! وجبران كان ضد سماسرة

الدين والوساطة بين البشر والله .. وأمام النافذة الوحيدة في مقبرة جبران ، يتمزق النور فوق مجموعة من (البورت بونور) والتذكارات التجارية المعدة للبيع التي رسمت فوقها صورة الضحية جبران .. مقاطع من شجر السنديان الذي أحب ، وعليها صورة وجهه .. كوم كبير من هذه الاشياء البشعة التي يفترض ان يجدها السائح في أي دكان أو مقهى لا داخل قبره ! ...

مذهولة وقفت أمام القبر ، والاشمئزاز يأكلني . شعرت بأني عاجزة عن متابعة الحوار مع الكبار (الناضجين) الذين صاروا في سن المتاجرة بجبران ، لذا سألت طفلة صغيرة رافقتني إلى القبر واسمها إقبال خ . (٩ سنوات) ، وجهها بريء وجميل كعمرها :

– ماذا تعرفين عن عمو جبران ؟

(كنت اود أن أعرف ماذا يتعلم الأطفال عن عبقري قريتهم) . قالت ببراءة : عمو جبران كان بياع خشب . سافر ومات .

– كيف عرفت يا حلوة يا إقبال ...

– لأن قبره مليء بالخشب !! ...

ورأيت جبران ينهض فجأة من قبره .. يبصق على الورود الاصطناعية .. يدمر قضبان سجنه ... يرمي بالتذكارات القذرة إلى قاع الوادي ، فهو قد جاء ليزرع الوعي في قلوب اهل القرية قبل النقود في جيوب مستثمريها ...

وسيركض إلى الجبال والوديان ، ويصرخ اهل القرية من جديد : عاد المجنون .. الأطفال وحدهم سيركضون خلفه إلى الحقول ... وهناك سيقول لهم أشياء كثيرة وجديدة ... وعندئذ فقط ستنبت أجيال جديدة بعيداً عن الخزعبلات والجهل والاساطير ، وتوظيف ذكرى مبدع لخدمة التخلف .

جبران قضية طائفية مالية

في قرية شكسبير ، ليس هنالك من لم يقرأ شكسبير ، وهم يعرفونه كأديب قبل أن يكون وقفاً مالياً تنتفع القرية مادياً به كمورد سياحي . أي أن قرية الأديب في البلاد المتحضرة تعامل ذكراه بطريقة تختلف عن الطريقة التي تعامل بها مياهاً كبريتية أو معدنية في القرية أو أي مورد سياحي آخر يدر عليها رزقاً مادياً ..

جبران في بشرّي ليس أكثر من بئر بترول آل فجأة إلى قبيلة لا تعرف مدلوله

الحقيقي ولا قيمته ...

وقفت في ساحة القرية أسأل الناس عن جبران ... حدثني كل واحد عن حكايته مع جبران، وعن مصلحته الخاصة في (موضوع) جبران ، وعن المحسوبيات في لجنة جبران، والمؤامرات والحزبيات وكل شيء إلا عن جبران ...

وخرجت بنتيجة واحدة : لا جبران في بشرّي ...

شعرت أن بشري ليست سوى تلك القرية الوهمية ، حيث تستحيل اللؤلؤة لعنة سوداء وتضيع ...

وتضيع لؤلؤة بشرّي : جبران ..

حكاية « لجنة جبران الوطنية »

الاستاذ مالك . ط يدرس في مدرسة بشرّي الرسمية ، وهو عضو سابق في لجنة جبران الوطنية ...

ذهبت إليه في داره لأقابله بعد أن تردد اسمه أكثر من مرة في أحاديث ابناء الضيعة ، وأحسست أنه يمثل تياراً أو على الأقل وجهة نظر .

استقبلني في دار متواضعة توحي بالصدق .

كانت تحيّتي إليه : انت انسان مثقف وكنت في لجنة جبران ، كيف تسمح بأن تكون لوحاته على هذا الحال ، وقبره ، وذكراه ... أليست هنالك جائزة في بلدتكم باسم جبران ؟ منحة للمتفوقين باسم جبران ؟ علمت من أهل الضيعة أن نقوده تصرف على شراء بنايات ، وتستثمر مادياً على أفضل وجه استغلالي ، أما فكرتم بإضاءة لوحاته أو حراستها على الاقل ؟

لم يجب .

نهض، وعاد وفي يده كرّاس اسمه « حكاية لجنة جبران الوطنية في بشري » .. وقلبت الكراس ، ووجدتني أمام فضيحة حقيقية اسمع بها للمرة الأولى ... وقد أدهشني أنها لم تهز لبنان بأكمله .. لم تهز صحافته ومثقفيه وقضاته وسلطاته إلا إذاكان الأشخاص الذين تتناولهم الفضيحة من أصحاب النفوذ — وهم كذلك ! .

أيّاً كان المسؤول عن مأساة جبران ، سواء كان الاستاذ يوسف . ر أو التيار الآخر المعاكس (مثقف تقدمي) ، فهنالك مأساة يجب أن يوضع حد لها ، وفوراً ... مأساة تسربت أنباؤها إلى الصحف مراراً ، بالرغم من أنه قد تم طمسها بطريقة أو

باخرى ... ففي أرشيف (جبراني) اطلعت على حقائق مفجعة ...

فقد كتبت جريدة « النهار » في الملحق رقم ٨٧٩٢ « جبران في التصليح عند مصور طرابلسي » وفيها يتحدث المحرر المختص فيروي حكاية تلف سبع لوحات أفسدتها الرطوبة في متحف جبران وأرسلت سراً إلى مصور عادي لتصليحها ، وحينما ذهب المحرر بحثاً عنها ، وجد الأخ المصلح يكشط العفن عنها بشفرة حلاقة ! !

وتحدثت مجلة « الصياد » عن فضيحة أخرى .. عن مبيع دفترين ثمينين سرقهما جاهل من متحف جبران وباعهما بعشرين ليرة وهو يجهل قيمتهما الحقيقية ... يجهل أن قيمة كُلٍّ منهما تفوق آلاف الليرات .. وصيحات أخرى رددتها جريدة « لسان الحال » وغيرها وغيرها من الصحف ولم تلق أي صدى على صعيد العمل ، وانما اتخذتها بعض الفئات مادة اضافية للمزايدات السياسية والوطنية .. ولم يأت بعد من ينقذ جبران الذي أحب لبنان ، من أمراض لبنان ...

جبران الأسطورة

وإلى جانب جبران « نبع البترول » الذي تستغله القرية ، هنالك جبران الوهم — الاسطورة ...

فجبران كان في نظر نساء القرية إبان حياته عربيداً مجنوناً ، ولكنه الآن في نظرهن — بعد أن صرن عجائز — قديس إلهي تنسب إليه المعجزات والكرامات ..

لوحاته العارية ؟ «لا .. ليس هو راسمها» ... «يا عيب الشوم!».. كان هذا رأي عجوز قروية .. الحديث الوحيد حول جبران ، الذي بدا لي فيه شيء من الوعي والفهم ، كان للصبية دنيا. ط (١٨ سنة) الطالبة في صف البكالوريا . إنها تحترم جبران ولكنها ليست مدمنة عليه . طبعاً شاهدت لوحاته ولم ترَ العري فيها وانما رأت الفن والابداع . يؤسفها حاله في المتحف والقبر وتتمنى أن تكون قادرة على ان تفعل شيئاً ما يوم تكبر ...

جثة من ذهب

وأنا أغادر بشري ، رأيت أهل القرية جميعاً متجمعين في ساحتها وهم يتجاذبون جثة من ذهب .. كل يحاول أن يفوز بأكبر جزء منها ... جثة جبران .

وأحببته كما لم أفعل قط من قبل .. فقد كان يمثل مأساة الفنان في بلادي... ووعيت أهمية أن يقوم عمل أدبي عربي في زحام الفوضى والمحسوبيات والمصالح الخاصة ليترجم

كتاباً لأديب يعتقد أن ترجماته الثلاث لم تكن وافية .. وليقوم بعمل بناء ..

ضرورة تجديد الترجمات باستمرار إلى لغة العصر :

الشاعر يوسف الخال هو الذي ترجم افضل نتاج جبران « النبي » إلى العربية ، رغم ان للكتاب نفسه ترجمات ثلاثاً ... الاولى لـ « الارشمندريت انطونيوس بشير » ثم « ميخائيل نعيمة » ثم « ثروت عكاشة » ؟ .. لماذا ؟؟ ..

« لأن أياً من الترجمات الثلاث السابقة لم تكن في رأيي على جانب من الدقة الكافية .. كنت أحس أنه من الضروري أن تحدث محاولة جديدة أفضل لترجمته ... محاولة لترجمته بلغة عصرنا ، بلغة تقترب إلى أقصى حد ممكن من روح جبران وأسلوبه الوجداني الرمزي الذي عرف به ... ترجمة تلتقط جبران عارياً من الحشو ، وتسع معانيه دون زيادة أو نقصان .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أعتقد أنه من الضروري إعادة ترجمة روائع الأدب من وقت إلى آخر بلغة العصر الحديث .. هذا بصورة عامة » .. هكذا قال يوسف الخال ، وتابع القول :

« كتاب النبي هو من أفضل ما كتب جبران . الدليل ؟ حسناً . لنقل الزمن ما دام من أبرز الحكام في موضوع الأدب . لقد ترجم إلى جميع اللغات الحية وطبع ٧٧ مرة بالانكليزية ويباع منه حتى اليوم ٥٠٠٠ نسخة في الاسبوع » .

أقاطعه وماذا في ذلك ؟ ... أنا شخصياً لا أؤمن كثيراً بأن قيمة الكتاب الادبية تتناسب طرداً مع عدد الكتب المباعة ، ولا أعتقد أن عدد مبيعات كتب جيمس بوند تشفع لمؤلفهـــا أيان فلمنغ في دنيا الخلود وأنا أميل إلى الأخذ بتقويم الشاعر توفيق صايغ المتحفظ نحو جبران ونتاجه ... لدى الشاعر الخال رد على هذا : « انا معك ، جبران في إطاره التاريخي هام جداً ولكنه كان أيضاً شخصية خلاقة ومبدعة ... وقد كان له أثر كبير على تراثنا العربي » ...

ويلخص الشاعر انسي الحاج الموقف « نعم . لدى جبران ما يقوله لعصرنا . إنه ما يزال قادراً على تعليمنا إلى حد بعيد النظر بعينين جديدتين إلى الحياة والعالم .. أعظم ما في جبران ثورته وجدته ، وروحه غير التقليدية في مواجهة الوجود .. »

أشاكس : حسناً ، ولكن ذلك كله لا يكفي ليكون الاديب خالداً عبر تبدلات المكان والزمان ...

يلين أنسي الحاج « طبعاً جبران ليس من الكبار كدانتي وشكسبير .. إنه عظيم ضمن إطاره التاريخي وعلى صعيد المقارنه بمعاصريه .. أما على صعيد الأبدية ، فهو أكبر ما يضم تراثنا اللبناني حتى الآن ، ولديه حجم انساني جيد » ...

ويتابع الاستاذ الخال « ثمّ إن فئات كثيرة في العالم ترغب في قراءة جبران . إنه يرضي بوجه خاص النازعين نحو القضايا الروحية تحت ضغط مادية عصرنا وآليته .. إن المستقبل معه وليس ضده » ...

ماذا عن فضائح لوحات جبران في بشري ؟؟ .. « مخزية ومؤسفة » ــ قال يوسف وأنسي وعبسا ، وهمس أحدهما بحرارة (أنسي على الأرجح) ــ « لعل جبران الرسام رغم تأثراته ببليك ورودان أهم أربعة رسامين في لبنان منذ بدأ الرسم هنا » ...

مشروع أديب عظيم

بعد الشعراء الذين تحاورت وإياهم طيلة أيام عن جبران ، لم أجد أصدق من جبران مقيماً لنتاجه... لذا اترك له الكلام . إنه يكتب : « لقد ولدت وعشت لأضع كتاباً ... كتاباً واحداً صغيراً لا أكثر ولا أقل . قد ولدت وعشت وتألمت ، لأقول كلمة واحدة حية مجنحة . لكنني لم أصبر . لم أبق صامتاً حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتي . لم أفعل ذلك بل كنت ثرثاراً . فيا للأسف ويا للخجل . وبقيت ثرثاراً حتى أنهكت الثرثرة قواي ، وعندما صرت قادراً على لفظ أول حرف من كلمتي ، وجدتني ملقى على ظهري وفي فمي حجر صلد » .. ــ من رسالة لمي زيادة كتبها بتاريخ ١٩٢٩ ــ .

إنه يعي عجزه أكثر مما يعي ذلك نقاده إذ يقول « أنا يا مي بركان صغير سدت فوهته ، فلو تمكنت اليوم من كتابة شيء كبير أو جميل لشفيت تماماً » ..

ولكن ....



عين غ تتفرس

في

عبدالله الخوري : ابن الأخطل الصغير

« الكتابة الجيدة نوع من الترلج الذي
يقود الكاتب إلى حيث لا يرغب » .
– رالف والدو ايمرسون –

« فعل الكتابة مغامرة : في البداية تكون
لعبة وتسلية . ثم تصير عشيقة . ثم سيداً .
ثم ديكتاتوراً » .
– و . تشرشل –

« الأديب الحق يكتب لفتيان جيله الحالي ،
ولنقاد الجيل القادم » .
– سكوت فيتزجيرالد –

١ / ٨ / ١٩٦٩

نورس سجين في قفص والده !

عبء مهول ، على جانحي ، هو شعر والدي !
إلى أي مقاس منه يمكنني أن .. ارفرف ؟ ...
وأبي ، انه ما فتر يوماً ، في انهائي عن الشعر .

المحامي عبدالله الخوري
تصادف أنه ابن الأخطل الصغير

جمال عبد الناصر . صباح السالم الصباح . الحسين بن طلال . فيصل آل سعود . وغيرهم ...

هذه الاسماء ، كانت تذيل برقيات طيرت إلى « ملكوت الشعر » في مثل هذا اليوم من العام الماضي ، ورافقتها ملايين البرقيات الاخرى الصامتة ، المبثوثة عبر الاثير في بلاد العرب ، بلا تواقيع ... ولا صوت ... ربما .

كانت مظاهرة حب ووفاء ، لأنه في مثل هذا اليوم منذ عام ، شيع لبنان في موكب مهيب شاعره « أمير شعراء العرب » الأخطل الصغير ...

يومها لم يبق منبر لم تنطلق منه صرخة رثاء .. سعيد عقل بكى موت الشمس (!) بقوله « قلم الاخطل من شرارته الشمس التي لا تغيب » ونقيب الصحافة الاستاذ رياض طه بكى فيه محارباً قديماً في ساح الصحافة « لقد حملتنا إلى القمة ، وجعلتنا أهل الفخر في هذه الدنيا » ... و .. « فخراً للناطقين بالضاد ، ومجد لبنان — بولص بطرس المعوشي بطريرك انطاكية وسائر المشرق » .

وكان « مفخرة لوطن ، وحدثاً في تاريخ شعب ، ووجهاً في كتاب التاريخ للعرب جميعاً — الرئيس صائب سلام » وكان في لبنان « كبيراً من كباره ، وعظيماً من عظمائه ، وشاعراً هو في قمة شعرائه — الاستاذ عصام كرم » وكان « شاعراً ، والشاعر

كالأرض ، كالوطن تنتمي اليه — الياس الديري » وكان « غنائياً مرهفاً ، يتلألأ شعره صافياً أميناً كالدمع — أدونيس » وكان « ليس في جيله من هو قادر أن يحمل ذلك السيف ، وليس في الجيل الذي جاء بعده — رفيق خوري » وكان « حتى نحن ، الذين تظاهروا انه لم يعجبهم العجب في شعر العرب احببناه — انسي الحاج » ، وكان وكان.. كان .. كان ياما كان في قريب الزمان ... كان هنالك شاعر أمير ...

رثاء ؟ لا ..

لا . لا . لا .

لم آت بهذه الشواهد لأدبج هوامش تمجيد على تمجيد ... لا .

لن يكون في مقالي قرع طبول مزيد من التعظيم والتفخيم لشاعرنا الذي رحل . (عواطفنا لا تلتهب نحو مبدعينا الا بعد موتهم . أكاليل الغار لا نحيط بها اعناقهم احياء وانما قبورهم امواتاً) ولست في سبيلي إلى خطملحمة رثاء تقليدية (كما هو من المفروض أن أفعل) بمناسبة مرور عام على وفاة « الاخطل الصغير » ... وحتى لو أردت لما استطعت ... فهجرة « الاخطل الصغير » عن شبكية عيوننا ليست — في نظري — الموت الحقيقي له ، لأن الشاعر (ممنوع من الصرف) عن ذاكرتنا ، وممنوع من الهجرة ما دام مقيماً فينا عبر التراث .. (يدهشني ان يرثي الناس شاعراً مبدعاً بعد وفاته .. واذا كان لابد من الرثاء حرصاً على « تقاليدنا الخطابية » لرثيت أكثر شعرائنا المعاصرين الاحياء ، فالشعراء يموتون حينما يكف قلب قلمهم — قبل جسدهم — عن الحياة .. ولو فعلت لما انتهيت ! ولما جاء دور الاخطل !! ...) ...

دراسة ؟ لا ...

لا ...

ولم أورد هذه الشواهد مطلعاً لدراسة أدبية سوقعكاظية ، من تلك التي ألفنا رؤيتها في مثل هذه المناسبات .

وحتى لو كتبت دراسة ، لما اتخذت من هذه الأقوال والآراء كلها مصدراً أستلهم منه ولو فكرة واحدة واضحة عن « حقيقة » الأخطل الشعرية ، لأنها في رأيي — هذه الآراء كلها مجتمعة باستثناء رأي واحد ! — قد تصلح دليلاً على مكانة الأخطل من قلوب معاصريه ، وليس لأي غرض آخر !

إنها تحمل تفجعاً خطابياً ، وسخاء عاطفياً ، وتهويلاً ومبالغات لفظية من دون أي تقييم موضوعي فكري حيادي .... (الامر الذي تمارسه للأسف في بعض بلاغاتنا الحربية ايضاً مثل ما تمنا !) ... هذا أولاً .

ثم انني لا أعترف بأدب (اخذان الخاطر) ولا بنقد (التعازي) السنوية .

لذا ؛

لن أكتب اليوم عن « الأخطل الصغير » الذي ركض بالشعلة طويلاً قبل أن يهوي ، وإنما سأكتب عن مرشح آخر لحمل الشعلة التي سقطت من يده .

لن أرثي « الأخطل الصغير » ، وإنما سأكتب عن شاعر آخر دفنوه حياً يوم دفنوا الأخطل الصغير ، ورثوا الأخطل ولم يرثه أحد ... وأهالوا التراب عليه مع الأخطل ، وعادوا ليلتها من جنازة الفقيد دون أن يدروا أنهم ودعوا فقيدين لا فقيداً واحداً ، وأنهم دفنوا شاعرين في وقت واحد :

الأول : شاعر مشهور ، مات وأقفلوا التابوت عليه ...

والثاني : شاعر مغمور ، شاركوه في إقفال تابوت الصمت على موهبته ...

الأول شاعر (أمير) اهترأ رصاص حروف المطابع لكثرة ما عزفت اسمه ...

والثاني شاعر شاب صغير ، كل مأساته أنه ابن الأمير ! ! ... وكان من الممكن أن تظل حكايته إلى الأبد سراً ...

لو ...

لولا الصدفة التي قادتني اليه ...

صديق مشترك ، عرفني به للمرة الأولى منذ أشهر ثلاثة في مقهى ما . قال : أقدم لك المحامي عبد الله الخوري ...

كنت متعبة ، فلم أنظر إليه .. وحتى اسمه ، انزلق على قرطي دون أن يمس أذني ، أو يضرب على أي وتر ... قلت في نفسي (اسم آخر . رجل آخر . محام آخر. لا جديد) ... وهمس في أذني الصديق المشترك وهو الأديب الذواقة المولع بالشعر « إنه ابن الأخطل الصغير » .. (ابن الأخطل ؟ ما الفرق ؟ — هكذا كدت أقول لولا لجام التهذيب الاجتماعي !) ...

ولكن ، لما بدأ الاستاذ عبد الله يدمدم أبياتاً من الشعر ، أرهفت السمع وقد ظننتها لأبيه الأخطل . ومائدة المقهى حينما يلتف حولها أهل القلم وهواته تصير مكاناً عجيباً ، تصير سريراً في عيادة نفسية لاستشارة جماعية .

يتمتم كل على هواه . لكني لاحظت أن الجميع صمتوا وأرهفوا السمع لتمتمات عبد الله الخوري :

« بالورد ألعب ... والأقمار من لعبي/ إن شئت أشعلتها — أو لا — بلا سبب ! سلي النجوم المدى عينيك ساكبة/ على شفاهي ، انسكاب الكأس بالحبب/ تخبرك أن الذي عيناك لعبته/ سهل عليه — لعمري — اللهو بالشهب » صمت . صمتنا جميعاً وتابع هو : « أنا البحر

ما راعني عاصف

ويشهق كون على ضفتي ! »

صمت . بصوت منخفض يدمدم ، لا أسمع شيئاً . يعلو صوته قليلاً فألتقط من آن إلى آخر بيتاً أو بعض البيت ...

« نحن الشموع السود تشعلها — ليل الجفاء — أصابع عشر » .

يغيب صوته ويعود ، كذكرى وجه في حلم عبثاً تحدد ملامحه كلها ...

« في درج الليل خطانا البيض حلم الدرجات » ...

ينأى . يعود . هذه المره يخاطبنا . إلقاؤه جميل ...

« أصلي

وأقرع صدري ،

لعلي

سميع دعائي ، مجيب الي :

أنا الأصل

والكون والمنتهى

فسبحان شعر

— كما الموت —

حي ! »

— ما اسم القصيدة ؟ ...

— هموم شاعر ...

بعد أن انسحب عن المنصدة كالشبح ، ترك لنا صوته :

« ان عبرت — لم تلتفت — طير ! ترى ، يا طير ، جف الماء في وجه الغناء ؟ تمر مر السيف في الغيم ... فلا من نجمة سالت ، ولا جرح أضاء ! »

سألت : للأخطل ؟ ...

قال الرفاق : « بل له ... ولكنه لا ينشر !! ... ذلك مؤسف حقاً لأنه شاعر مبدع ... من الصعب أن تميزي بين شعره وشعر أبيه الأخطل ! »

طفولة ، وحزن لامارتيني

سأصفه لكم كما أراه . يقول إنه في الخامسة والاربعين . يبدو في الخامسة والثلاثين حينما يبتسم . يرجع طفلاً إذا ضحكت عيناه ، بالضبط إذا أضاء فيهما ذلك البريق ، البريء حتى الجريمة ، النفاذ كأشعة مجهولة ، أجل ، وجهه طفولي التقاطيع والوسامة والامتلاء ، ويذكرك بإعلانات (حليب نسله) ، وفيه دهشة طفل وجد نفسه فجأة في دكان للألعاب بلا رقيب .. دهشة عابثة نشوى ..

كل ما فيه يوحي للوهلة الاولى بالطفولة ... قامته الممتلئة القصيرة . مشيته ، وخداه الممتلئان جداً كما لو كان فمه محشواً دائماً بحفنة من السكاكر و (الشوكولاته) ..

هذا كله للوهلة الاولى ... ومتى بدأ الحوار ، بدأ ظل حزن « لامارتيني » يصبغ هذه الطفولة بضباب غامض الكآبة ... يصبح للضحكة صوت يشبه الأنين ، يشبه صوت جرس عتيق في كاتدرائية مهجورة مقدسة نسمعه عبر الحقول ذات فجر بارد حينما تعبث به يد الريح والأشباح وربما المطر .

ومتى صار بينك وبينه أكثر من جلسة وحوار ، ومتى امتد بينك وبينه جسر إنساني من الصداقة والفهم والمشاركة ، فإنك تشعر بطريقة ما أن في أعماق هذا الشاب سراً دفيناً .

عتيق كالخمرة ، لكنه بطريقة ما محكوم بالطفولة ... فيه شيء محكوم بأن يظل طفلاً ، بالضبط : موهبته ، وهو ممزق بين الرضوخ للحكم ، والتمرد ... طفولته إرغامية ، معذبة ، تذكر بقدم البنت الصينية التي كانوا يضعونها — في غابر العصور — داخل حذاء من حديد كي لا تنمو..وتكبر الطفلة ، ويحول القالب الحديدي دون نمو قدمها ...

فيه شيء ما ، مرغم على أن يظل سجين قالب حديدي ، لا يتجاوزه ولا يكبر أكثر من مداه ..

كان ذلك انطباعي عن هذا الرجل ، اللامارتيني الحزن والثقافة وانقلب (الانطباع) إلى يقين ، بعد أن سمح لي بالاطلاع على مجموعة أشعاره المخطوطة ...

مخطوطة وجاهزة للطبع مع فهرس للصفحات وأسماء القصائد ، ولم يبق إلا أن يدفع بها إلى المطبعة ، أو إلى نار الموقد !

(مخطوطه الآن بين يدي ، أحسه ينزلق من بين أصابعي ... كما لو كان إنساناً مصمماً على الانتحار وقد تدلى نصفه من الشرفة ، وعبثاً أمسك به) .

مخطوط رائع وعجيب لديوان ظاهرة ، لم يدر بخلدي يوم التقيت بصاحبه للمرة الاولى أنه يخفي كنزاً ..

لولا المصادفة لما كانت هذه السطور العجيبة بين يدي (أدهشني كيف سمح لي باستعارة النسخة الوحيدة لمخطوطه . حزنت من أجله ، شعرت بأنه يتمنى لو أضيّع المخطوط ، لأوفر عليه عذاب إحراقه ! ..) ..

عبء مهول ...

« عبء مهول على جانحي شعر أبي » ... هكذا كتب عبد الله الخوري (ابن الأخطل الصغير أمير شعراء العرب) في مقدمة ديوانه الذي تنتظره ألسنة نيران الموقد على الأرجح قبل عجلات المطبعة ! (تذكرت بهلع فرانز كافكا الذي أوصى صديقه بإحراق نتاجه كله ! لو فعل .. اية مأساة ! !) .. « عبء مهول » .. وهو على حق إلى حد بعيد ولكن ليس إلى حد الحكم بالإعدام على نتاجه ، ونظرته هذه تدلل على وعيه العميق بالمفهوم الحقيقي للشعر ... لقب أبيه ليس في نظره امتيازاً بورجوازياً ومادة دعائية جيدة ، وانما هو عبء ، وأي عبء ... فالأمير الوحيد الذي لا يورث ابنه غير (كمبيالة تحدي) هو أمير الشعر ، لأنه للشعر ملكوت لا مملكة ، ولا نظام ملكي وراثي ...

وإذا كان الامير يورّث في الإمارة ابنه . ففي ملكوت الشعر ، الأمير ترثه الانسانية جمعاء ، ويستحيل ميراثه إلى تراث انساني .

« عبء مهول على جانحي » ..

مجد أبيه جدار وأي جدار .. إذ ليس هنالك من لم يسمع بأبيه « الاخطل الصغير »... وحتى الذين لم يقرأوا له ، وحتى الذين لا يقرأون ولا يكتبون يعرفون بلا شك بعضاً من أشعاره التي غناها عبد الوهاب وفيروز وأسمهان — ولو قسراً عبر راديو الجيران أو التاكسي — ، ومن منا لم يقرأ :

أيوم أصبحت لا شمسي ولا قمري   من ذا يغني على عود بلا وتر

أو :

كذب الواشي وخاب   من رأى الشاعر تاب

من لم يقرأ هذه فهو لا ريب قد سمع عبد الوهاب يغني : الهوى والشباب . جفنه علم الغزل . الصبا والجمال . يا ورد من يشتريك (وهي قصيدة سيئة بقدر ما هي مشهورة . ذكر في ديوانه أنه كتبها بناء على رغبة عبد الوهاب ، سامحه الله على هذه الرغبة فقد كانت قشرة موزة تزحلق عليها إبداع الاخطل) .. ومن لم يسمع اسمهان تغني له : اسقنيها بأبي أنت وأمي ...

ومن لم يسمع فيروز تغني له : يا عاقد الحاجبين . ندى . وداد ..

ولكن احداً لم يسمع بعد القصيدة التي مطلعها :

يا شجر الخريف في سفح المساء

سواعد أتعبها ثقل العراء ...

وقد لا يسمع بها أحد أبداً ، إذا ظل صاحبها عبد الله الخوري ، ابن (الأمير)، مصراً على إحراق نتاجه في النار ... وعلى دفن موهبته ، أي دفن نفسه حياً في قبر أبيه ...

... (يذكرني بإحدى أساطير السندباد ، حيث تدفن المرأة نفسها حية في القبر مع زوجها الراحل وفاء له) ...

ذلك الحب العجيب الذي يقرب من العبادة ، ومن التأليه لأبيه (فهو ما يزال يقسم بحياة ابيه لا برحمته رافضاً التصديق ان أباه يمكن أن يموت !!) ...

انه وفاء طوطمي غامض،وأي توهم بأنه قصّر في طقوسه يدفعه إلى ما يشبه الحس بالذنب !

مبدع ... ولكن ...

ديوانه غير المنشور حتى الآن قرأته أكثر من مرة ...

ابرز ما فيه ان قارئه ، أياً كان ذوقه الشعري ، سواء أحبه أم كرهه ، لن يملك الا الاعتراف بأنه امام شاعر موهوب بطريقة غير عادية ... شاعر يملك (اللمعة) .

والظاهرة التي تلفت النظر في القصائد كلها بشكل عام هي : التشابه العجيب بين شعر الاب والابن ! .. حتى ليكاد القارىء يعجز عن التمييز بينهما ...

ما مدلول هذه الظاهرة ؟ تراها دلالة عافية أم مرض ؟

« عبء مهول على جانحي شعر أبي » لم يكتبها المحامي عبد الله الخوري ابن الاخطل الصغير في مقدمة مخطوط ديوانه (الذي سيحرقه ولن يطبعه) عبثاً ، وانما بدا أثرها واضحاً في شعره نفسه ... وفي سلوكه ... وفي موقفه من ذاته ، ومن موهبته .. وفي توجيهه لطاقاته الابداعية ... وفي نحره لها ! وهذا هو أهم ما في المأساة ! ! ..

اتابع قراءة الديوان المخطوط في كثير من الفصول ... لم تكن مفاجأة أن يقع بصري على عنوان قصيدة « النهر المتعب » وتحت العنوان عبارة « محاولة على لسان الاخطل » ... المحاولة ناجحة ولكن ما جدواها ؟

« النهر المتعب » ليست وحدها « محاولة على لسان الاخطل » ، بل ان أكثر ما يضم المخطوط هو كذلك ، وان لم يسمها كذلك ! بالضبط مأساة أكثر القصائد ، وبصورة خاصة قصائد الجزء الاول من المجموعة هي أنها يمكن ان تكون ببساطة ديواناً اضافياً « للأخطل الصغير » ...

أجل ! المأساة التي لم تنج منها إلا بعض قصائد الديوان هي انها كلها يمكن أن تكون « على لسان الاخطل الصغير » ! ! ... الا فيما ندر .. وحينما ينسى عبد الله الخوري نفسه ، وينسى (عقدته النفسية امام عظمة ابيه) ، نجده يحلق بطريقة ذاتية فريدة رائعة ... انه صقر حين يطرق موضوعاته الخاصة فيحلق ، لكنه حين يحمل على جناحي ابداعه عصر أبيه ورؤيا ابيه وموضوعات ابيه (ذلك نلحظه غالباً في الجزء الاول من مخطوطه) ، يصير صقراً في قفص ، لكنه صقر أصيل ، يحلق حتى بقفصه ، يقتلعه عن الارض ليطير حتى به ... ذلك بالذات يجعل الصمت عن موهبة كموهبة عبد الله الخوري أمراً يعادل الجريمة ... أمراً يجب أن تعاقب القوانين عليه كما تعاقب من يرى إنساناً مشرفاً على الغرق ولا يأتي بحركة ولا ينبس ببنت شفة ! . لا . أنا في محرق القضية لانني أحب الشعر . أنا ضد ابن الاخطل ، سجين حبه ، لانني مع عبد الله الخوري ! وعبدالله الخوري موهوب ومبدع ، ونريده صوتاً جديداً لا نسخة بالكربون عن والده !

النصف الثاني من الديوان يختلف إلى حد بعيد عن النصف الاول . فيه تمرد وعصيان رائع ... ومن الواضح ان قصائد النصف الثاني كتبت في مرحلة زمنية تختلف عن النصف الاول : مرحلة أكثر نضجاً وتطوراً وفيها ذاتية خاصة تؤكد لنا كم يصير عبد الله الخوري رائعاً حينما يكف عن رؤية الوجود بعيني أبيه ، ومن زاوية عصر أبيه ... رائع حينما يخلع عنه شرنقة الأخطل لا ليكون « الاخطل الكبير » بالضرورة ،

بل ليكون نفسه ... ليكون عصره . ليكون صوت جيله ... فعصر أبيه دنيا أخرى ... (وأبوه الاخطل كان صوت عصره، وبذلك كان عظيماً) . فانفصال الفنان عن عصره هو مقصلة لابداعه ... انه يقوده إلى اجترار ذاتي في الفراغ لصيغ بلا مدلول تتحدث عن الحب والحزن والضياع .. ان المرحلة (الهاملتية) أمر طبيعي في النتاج الاول – بل والثاني – للفنان ، الا ان الاستمرار في الهاملتية الفكرية والاسلوبية (مبنى ومعنى) ، والاستمرار في التآكل الذاتي يقضي على المبدع اذا لم ينجُ بموهبته من قمقمه الفردي الشخصي إلى عوالم الناس وحياتهم المعاشة ..

ان ولاء عبد الله (الطوطمي) لصورة الأخطل في خاطره شيء خاطيء . المطلوب ولاؤه للشعر أي ولاؤه للاخطل بالمعنى الموضوعي. عليه ان يميز بين ولائه لابيه كأب، وولائه لذاته كشاعر منفصل قائم بذاته ... وذلك هو الاهم ... (كان من بعض سر نجاح أبيه قبله ، تعبيره عن عصره ، ومعاناته الحقيقية لكل ما يدور حوله ، ثم اطلاقه لصرخات الناس عبر حنجرته) ... وعبد الله الخوري ايضاً ليس منفصلاً عن الاحداث المعاشة بقدر ما بدا لي في شعره حتى الآن ... ففي أحد دفاتره الخاصة التي حملتها خطأ (خطأ مقصود !) عن مكتبه ، وجدت الشاعر قد كتب تساؤلات شعرية جميلة ومعبرة عن حياتنا اليومية وفجائعنا القومية .

عبد الله الخوري ليس حقاً منعزلاً عن حياتنا المعاشة ولا عن مشاكل الناس القومية وغير القومية .. ما الذي يخلق تلك الفجوة بين حنجرته وبين صرخات الناس ؟ هل هي فقط عبادته الغامضة البدائية الطوطمية لصورة ابيه؟ ثم حسه بالاثم؟ ثم رغبة داخلية غامضة في تدمير الذات ؟ ...

... شعور يدفع به إلى نوع من تقديس الوثن، وثن أبيه ! ! ... شعور يدفع به إلى نوع من الانتحار الذاتي الرائع والمروع في آن واحد مثل (الباليه) الذي تؤديه الفراشة أمام المصباح قبل الموت ؟ ..

مما يلفت النظر ان والده كان يبذل جهده لابعاده عن ساح الشعر خوفاً عليه من (متاعبه) ... لماذا ، والاخطل كشاعر ، أدرى من سواه بذلك الوجع الذي لا مفر منه ، ذلك التسلل إلى حافة الهوة ، والنوم على حبل مشدود بين جبلين ، المسمى فناً ؟ ...

يقول عبد الله انه ظل طيلة عمره يكتب سراً ، وأنه لم يفكر بنشر كلمة قبل وفاة والده ...

شيء مروع ان يكتب مبدع مثله طيلة ٤٥ سنة سراً ، كما يدخن المراهقون .

ألا يجعله ذلك مثلهم ، يحس بشيء من الاثم ؟ أو الذنب ؟ أو ربما الاضطهاد ؟
ذلك كله ، يجعل احدى عباراته التي وردت في « الاهداء » تلفت النظر اذ يقول :

« اليك
سيدي وأبي
وقد يقرأني : بفضلك ، الكثيرون
وقصدهم – عفوك –
ليس سوى المقارنة
سامحني يا الله ..
وبياك يا أبي
بخشوع الثم جناحك » ..

« سامحني يا الله » ... هذه العبارة استوقفتني طويلاً ...

علام يطلب الغفران ؟ ... لماذا يحس بالاثم لمجرد انه يكتب شعراً بدلاً من ان يحس بأن في ذلك ما يجب ان يرضي أباه والله ؟ ...

في مقدمته كتب أيضاً : – « لم يلد الشاعر شاعراً ... الا باعجوبة !

– الموسيقي قد يلد موسيقياً .
– الكاتب قد يخلف كاتباً .
– ولكن الشاعر : أبداً .. لم يحصل ، لم يحصل الا في الاعجوبة ! »

في نفسه قناعة خاطئة هي : ابن الشاعر لا يمكن ان يفوق أباه ، وبالتالي لا جدوى من نظمه للشعر ... وسألته : وماذا عن أمين نخلة ابن رشيد نخلة . قال : إن أمين نخلة هو أبو رشيد نخلة ! ! ... وأسأله : ولم لاتكون أنت « الاخطل الكبير » ووالد «الاخطل الصغير » ؟ .. لا يرد ! ...

وأغرق معه في حزن عميق عميق ... ويبقى حزيناً .
انتقل أنا إلى حالة الغضب !! ... أجل ! الغضب ...

نحن ... القتلة ...

أجل ! نحن أيضاً مسؤولون .

نحن شاركنا في رسم مأساة ذلك الشاعر الذي عاش منذوراً للصمت يسلم للريح بيسراه ما تخطه يمناه ... يخط كلماته سراً كما لو كان يقترف إثماً ، ويرمي بها في

غياهب ادراجه كما يرمى باللقطاء أمام أبواب الاديرة : سراً ، وبحزن كبير ... وبحس مرير بالاثم ...

نحن شاركنا في تكوين صورة « الإله — الوثن » لوالده في خاطره . صورة الطوطم. التابو المحرم ...

نحن الذين نمارس الحب الوثني غير الموضوعي ، ونخلط بين خلود الشعر وخلود الشاعر ، وكأنه لا مكان تحت الشمس الا لشاعر واحد يقول بيتاً واحداً من الشعر ويموت بعده . مواقفنا من مبدعينا هي أبداً خطابية تقريرية مائعة ...

كلها سخاء عاطفي دراماتيكي . إننا نغرقهم بصقيع اللامبالاة والاهمال في مطلع حياتهم وتلك مصيبة ، واذا أحببناهم وكرمناهم فالمصيبة أعظم ! .. فحبنا مثل كراهيتنا .. حب وثني .. واليوم في ذكرى الاخطل الاولى ، لتكن طقوسنا (ايجابية) وبدلاً من (بكاء) الاخطل دعونا (نبعث) ابنه ، ليكون بعده حامل المشعل ..

(ومن الحب ما قتل) ...

فلنعترف بأن ذلك الحب اللاانساني غير الواعي هو الذي يقتل . الحب التأليهي فيه الكثير من الاتكالية والهرب من المسؤولية ... كأننا نهرب من مسؤولية التعمق في (الشعر) المبدع ، ودراسة هذا الشعر دراسة حيادية ايجابية موضوعية ، إلى عبادة شخص (الشاعر) .. ننصبه أميراً ونسند رؤوسنا إلى منبره كما نسندها إلى مزار وليّ ، متكلين على (المنطق الصوري) الخاطيء : (كلام الامير أمير الكلام) ... وهكذا فنحن نؤذي من نحب بقدر ما نؤذي من نكره ، ودون أن ندري ...

ترى هل كانت صدفة أن يصاب الاخطل الصغير بمرضه العضال الذي لم يشف منه — إلا بالموت — ليلة تنصيبه (أميراً) للشعراء ؟ ...

أجل ! ما الذي جعله يصاب بالمرض ، وبجفاف في الفم ليلة (تنصيبه) أميراً للشعراء ؟ ... هل هو ندى الليل فقط ؟ أم كانت في حلقه صرخة احتجاج كأن يقول : « سادتي ، تظنون انكم تكرمونني بلقب أمير ؟ لا .. انكم تكرمون لقب (أمير) باطلاقه علي ، أنا الشاعر !! » ربما كان يود لو يصرخ بهذه العبارة في وجوههم ، لكنه لم يقل ذلك . تراه لما اغتال صرخة الاحتجاج تلك في حنجرته ، تمردت الحنجرة وخاصمت الشاعر إلى الابد ؟ .

ولحظة اهالوا التراب عليه إلى الأبد، وكفنوه بكلمات خطابية (لا استثني من ذلك

إلا قولاً أو قولين) تنعى الشعر العربي بعده، تراهم كانوا يدرون ان حبهم الوثني غير الموضوعي الذي طالما استعرضوه كان من بعض التراب الذي اهالوه داخل حنجرة شاعر شاب صغير ؟ .

وانهم لو قالوا أشياء موضوعية ممكنة مفهومة لما كان ذلك الجدار ، ولما (جفل) عبد الله من مجد أبيه ، ذلك « العبء المهول » على جانحيه ! .

من يدري؟...

ربما كان الامر كذلك ... وربما كان كما يقول عبد الله :

« كم جناح ، عبقري الريش ، أدماه الدبيب !
أتعس الطير : جناح
لم يحالفه الهبوب ... »

ترى هل تعقد الريح تعايشاً سلمياً مع جناح ابداعه ؟ أم تتحقق نبوءته اذ يقول :

« أنا لوحة الاحلام ، طار
اللون وانهار الاطار
أمضي وينبلج الضحى
خلفي وينسدل الستار .. »

لا . ليت الستار لا ينسدل سريعاً هكذا ... في مقعدي بالصالة سأظل أنتظر !...



عين غ تتفرس

في

كتاب مدعوم دعائياً

« لا أبغض الذين أهاجمهم ، ولا أحب الذين أدافع عنهم » .

ـ للشاعر ييتس ـ

« شعر الأمير ليس بالضرورة أمير الشعر »

ـ غين ـ

٢٠ / ١٢ / ١٩٦٨

أخاطب أخاً في الكلمة ، لا « الأمير » !

من حق أي إنسان أن يناجي نفسه والوجود وحبيبته كما يشاء ... تحريرياً أو برقياً أو شفهياً ... مستخدماً أبجدية اعضاء جسده أو الابجدية الآشورية أو شيفرة خاصة به ... لاهثاً عبر تلفونه الخاص المذهب أو تلفون (البقال المجاور) الملطخ بالسعال والبرد ... ساكباً ببوحه في عبارات تقليدية ساذجة على موجة (يا تقبريني ...) مثلاً بحيث لا تهز كلماته سوى صاحبة العلاقة شخصياً ، أو صائغاً لمشاعره تلك في قالب جمالي راقٍ يهز أي إنسان يسمعه ... كأن يقول لها كما قال الاخطل الصغير :

لو مر سيف بيننا لم ندر هل أجرى دمي أم دمك

ومن حق أي إنسان أيضاً أن يسجل خواطره ، وأحاسيسه ومناجاته تلك ، وكل ما يعتبره خلاصة لتجاربه في الحياة ، في مذكراته الشخصية ودفاتره الخاصة — أياً كان مستواه الفكري واللغوي — ...

بل وله ملء الحرية في أن يسطر على دفتر يومياته الشخصية تلك عبارة « شعر » حتى ولو لم يكن فيها من الشعر الا بقدر ما في (أكلوني البراغيث) من الفصاحة .. وان يطلق عليها اسم (ملحمة البيان والتبيين في أحوال العاشقين) ، ما دامت لم تخرج من دائرة اشيائه الخاصة ...

اما حينما يقدم صاحب أي مخطوط على نشر كلماته في كتاب مطبوع ويسميه شعراً ، ويبيعه في المكتبات ، ويوزع الاعلانات منادياً الناس لقراءته ، فان عمله هذا يتضمن مسؤولية من المفترض أن كاتب المخطوطة قد أخذها بعين الاعتبار قبل أن يقدم على طرح كلماته للناس ...

وهذه المسؤولية هي ان تحمل كلماته تلك حداً أدنى من القيم الجمالية والحقائق الانسانية التي تؤهلها لتكون جسراً مضيئاً يمتد بين أعماق الكاتب وأعماق أي قارىء انسان في أي زمان ومكان ، لا مجرد انطباعات شخصية ذاتية لا تهز سوى أصحاب

العلاقة وصاحباتها وربما الجيران ...

وليس أمراً نادراً أن يخلط الانسان بين كونه (شاعري) الاحاسيس ، وبين ان يكون (شاعراً) ... بل ان ذلك هو الشائع ، واكتشاف (شاعر) حقيقي هو الحدث النادر ... والخلط بين (الخواطر الذاتية) و (الشعر الحق) ينتج كتاباً باهتاً آخر مصيره هو مصير كل زبد ، لا مفر له من أن يذهب جُفاءً مهما تفاقمت رغوته الآنية ومهما توافرت له من أساليب الدعاية المأجورة ... وهو قد يسطع كالشهاب لحظة في سماء حياتنا الاجتماعية (ولا أقول في سماء الفكر) ولكن البقاء الذي يستمده من قوة الدفع (النقدي) من دون قوة الدفع (الذاتي) هو بقاء آني عابر لأن رسوخ النتائج في أذهان الناس عبر الأساليب (المفوترة – نسبة إلى الفواتير) يظل في قيمته الانسانية شبيهاً برسوخ أية مادة اعلانية أخرى مثل (صابون وبرش حياة) و (قدموا لذوي الرجولة لاكي ستّرايك) و (شيكلتس غندور) ..

أما حينما يكون (الفاشل) فقيراً ، فان حظ الجمهور يكون أفضل ، اذ لا يشقى بمطالعة (كتابه) سوى عمال صف حروف المطابع ، والمصحح ، وربما ناقد رمى به حظه العاثر في درب الكتاب ريثما يتم دفنه في احشاء فئران المخازن بسلام .

لذا فالدعاية التي يوفرها تسخير المال تظل أداة خطرة ... انها سلاح يساعد الأثر الحق على الانتشار ، لكنها ايضاً بندقية تصيب من صاحبها مقتلاً علنياً سريعاً اذا استعملت خطأً ... الدعاية ضوء كشاف يسلطه المعلن عن أدبه على أثره ، وبوق يجمع الناس حوله ، ولكنها ليست كما يتوهم البعض تكريساً لعبقرية الاثر أو صاحبه .. وهي لا تخدع إلا ذوي الاذهان المحدودة ، وتخدعهم بعض الوقت لا كل الوقت ...

وحينما تتخذ الاعلانات لكتاب شعري لهجة ملحاحاً لجوجاً كالتي اتخذتها الدعاية لكتاب « من انت ؟ » – شعر – للامير خالد سعود ، يصبح من واجب أي متتبع للحركة الادبية وأي عاشق للشعر ان يتناول الكتاب بالاهتمام الذي يطالبنا الشاعر به .

وهذه كلها بديهيات من المفجع ان أجد التذكير بها ورفعها إلى مستوى الاستنتاج أمراً ضرورياً في فوضى حياتنا العربية الفكرية المعاصرة وما يسود مقاييسها من تهريج ، وما تلقى حرماتها من انتهاك ، وقيمها من لبس وابهام حتى في اذهان المختصين بشؤونها ...

وهكذا ، تناولت ديوان الشاعر خالد سعود دون أية احكام مسبقة – سلباً وايجاباً – إلا ما اسلفت .

ولقب (أمير) على غلاف الكتاب لم يبهرني كما أنه لم يحرجني . احسسته في هذا

الموضع مثل (ما) الزائدة على إن واخواتها ، (كافة ومكفوفة لا عمل لها) ...

ورغم ان المكتبة العربية نكبت في الآونه الاخيرة بظاهرة اقبال بعض (الاميرات) و (الامراء) على شراء الالقاب الادبية — وسأتحدث عن هذه الظاهرة مفصلاً — وكانت الحصيلة نتاجاً هجيناً يصح ان نفرد له رفاً من المخمل الارجواني في مكتبتنا العربية ونحتفظ به شاهداً على عار فكرنا المعاصر حين امتدت اليه لعنة النفط وصارت الكلمة مخصية تباع وتشرى كالجواري وسيارات (الكاديلاك)...

تجاوزت هذه الاعتبارات كلها لان ادانة أي اثر أدبي لا تجوز إلا انطلاقاً من الأثر ذاته ... ولان كل أثر أدبي لما نقرأه بعد ، تظل ادانتنا له (فرضية) حتى نثبت العكس ...

ثم انني ضد موجة (النقد البروليتاري) التي انتشرت في الآونة الاخيرة ، والتي يهاجم بموجبها فوراً أي كاتب لم يردد كليشيهات معينة مثل (الفقر — البؤس — الخبز — العرق ..) حتى دون قراءة الاثر ، أو يتم تأييد نتاج أي كاتب ما دام يحمل (شهادة فقر حال) أو وثيقة حزبية ما ...

فمنشأ هذا النقد هو الفهم السطحي والخاطىء للافكار اليسارية وعلاقتها بالادب.. وتمجيد نتاج (الفقير) لمجرد انه (فقير) أمر يسيىء إلى الادب بقدر ما يسيىء اليه تمجيد نتاج فرد ما لمجرد انه (أمير) ...

ألم يكن هيغل (الفيلسوف الامبرطوري) أول من هيأ الجو لتفقيس بيض الافكار (الماركسية) فيما بعد ؟ ألم تنقل الينا حنجرة (تولستوي) صوت الملايين ، صوت (الانسان) ، رغم ميراثه (الارستقراطي) من الدم الازرق والاراضي الشاسعة ؟ ألم يخلف ذلك كله ضارباً في الارض بحثاً عن الكلمة والانسان ؟ وشاعرنا أبو فراس ، ألم يثبت لنا ان (الدم الازرق) اسطورة لا اعتبار لها في دنيا الخلود الفكري وأن المهم هو ان يمر نسغ الانسانية عبر قلم الكاتب .. ولم يكن (دمه الازرق) هو الذي ينطق كما لم يحل دونه ودون الابداع .

اذن ، ليس من النقد الحق ، أن نكرس أديباً لمجرد انه (شحاذ في الصين الشعبية) أو (مليونير في بيروت) ... كما انه من الظلم تقييم أي انتاج استناداً إلى هذه المنطلقات من دون الاطلاع على النص ...

فلنعد إلى النص ، إلى ديوان « من أنت » .. للمؤلف الاستاذ خالد سعود (سأسقط في مقالي النقدي هذا لقب أمير ، فأنا هنا لا اتحدث عن أمير في بلاطه ، وانما اخاطب

اخاً في الكلمة وليس للكلمة بلاط ، وملكوتها لا يعترف بالمهرجين والندماء وكورس الحاشية وكشاشي الذباب) .. في مقدمة الديوان يقول الاستاذ خالد (لست شاعراً محترفاً .. أو كاتباً متفرغاً نظراً لكثرة مشاغلي ومسؤولياتي ، ولكنني في هذا الكتاب أسجل بعض خواطري .. واحاسيسي .. في كلمات من خلال تجربتي في الحياة ...)

منذ البداية صدمتني هذه المقدمة لانها لا تحمل إدراكاً واعياً لمفهوم الشعر والشاعر ، وانما هي تصف الشعر كما هو في تصور الأذهان الساذجة ... مر في خاطري بما يشبه وميض البرق مقدمة إليوت الخالدة عن الشعر ومهمة الشاعر (الشعر خلاصة المعرفة الانسانية ، انه اكتشاف حقائق الوجود عبر أداة تفوق أداة العلم والتاريخ والأديان... تلك الأداة هي رؤيا الشاعر الثاقبة النادرة) .

وتذكرت نظرية ووردزوورث عن الشعر (رد الاعتبار إلى الاشياء الصغيرة والعادية ، وإعادة خلقها من جديد في ضمائر الناس) ونظرية شيللي (بالشعر وحده نزداد التحاماً برحم الطبيعة وبالتالي أصالة انسانية .. وفي ذلك مفرنا الوحيد من العذاب المرصود للبشر) ... وتذكرت كولريدج (الشعر رؤيا أفيونية كالحلم ، لكن كثافتها الانسانية تفوق كل ما يستطيع الواقع المجرد ان يمنحه) ...

تذكرت ذلك كله بأسى ... فعلى رفوف الاستاذ خالد الانيقة قد تقبع موسوعة ما (انسايكلوبيديا) كعادة الاثرياء ... أليس مفجعاً انها ظلت هناك اداة تزيينية لم يكلف نفسه عناء اكتشاف كنوزها الفكرية الانسانية ؟ لو فعل بدلاً من الاعتذار (بكثرة مشاغله) ، لما كان حديثه عن شعره شبيهاً بأحاديث الاستاذ فريد الاطرش عن موسيقاه والحانه المرفقة أبداً بتقرير عن انشغاله بامراضه ...

١ — الادب لا يعترف بصنفين من الشعراء طلع علينا الاستاذ خالد بهما في نظريته واسماهما : (شاعر محترف) و (شاعر كثير المشاغل) !! ..

الشاعر يكون أو لا يكون .

يكتب لنا شعراً حقيقياً لا (شاعريات شخصية) أو لا يكتب ...

واذا فشل فهذا شأنه ، ومن واجبه أن يحجب عنا نتاجه . واذا لم يفعل ، وأصر على نشرها مرفقة (بتقرير طبي) أو (فرامان أميري) عن (انشغاله) ، فان عذره هذا قد يفسر لنا أسباب فشله — وهو أمر لا يهمنا كثيراً — لكنه لا يبرر قصور نتاجه ، ولا يشفع به ...

الاستاذ خالد مشغول ؟

سواء كان مشغولاً بانفاق ثرائه مالا وشباباً ، أو بفقره ولهاثه خلف اللقمة والعافية ، أو بحكم العالم أو باختراع صاروخ أو بزرع القلوب أو بتربية الارانب فذلك شأنه وحده كما ان نتاجه وحده هو من شأننا ...

٢ — أن يسجل الانسان خواطره وبعض احاسيسه من خلال تجربته في الحياة لا يعني بالضرورة أن الحصيلة ستكون (شعراً) أو ضرباً غير عادي من ضروب التعبير حتى ولو كانت حياة صاحبها حياة غير عادية ... لم تكن المغامرات هي التي صنعت من همنغواي أديباً ، لكنها موهبته وثقافته هي التي صنعت من مغامراته أدباً .

واذا كانت مقدمة الديوان تنم عن قصور كبير لدى الاستاذ خالد في الاطلاع على التيارات الشعرية المعاصرة والقديمة ، فان ذلك أمر يمكن تلافيه فيما لو توافر الشرط الاساسي والاهم : الموهبة ... وتاريخ الأدب يدل على تخطي عدد من العباقرة لهذا المنزلق ، اذ كان التهاب موهبتهم يقودهم إلى الخلق بعفوية مذهلة الطاقات ... وكانت موهبتهم الخام تضيء بين السطور كما تضيء عروق الماس في قطعة من الصخر البكر...

ثم ان (انشغال) الاستاذ خالد عن المطالعة الفكرية المنظمة أمر تفسره — ولو جزئياً — مذكراته التي تتابع نشر حلقاتها احدى المجلات ففيها نجد شاعرنا متفرغاً (لدونجوانياته) مكرساً وجوده للغزو المسلح بشاربيه وثرائه وشبابه وألقابه على حقول اللوز والكستناء والضياء لأجساد جميلات الهند والسند ، وبلاد العجم والعرب من المحيط إلى الخليج ليمتد ... ثم إن ثغور نساء العالم لما تجتمع بعد في ثغر واحد ليقبله ويستريح (على رأي الشاعر بايرون) ..

والواقع انني لست ضد (دونجوانيات) الاستاذ خالد وان كنت في هذا الرأي اخالف الكثيرين ...

لست ضد أية تجربة — من حيث المبدأ — ما دام صاحبها يعيشها بعمق ويمنحها كل شيء بصدق ، ويعي أبعادها الإنسانية ويملك الموهبة لنقل مدلولها الوجودي إلينا عبر ذلك الجسر المكهرب المضيء المسمى شعراً ...

وغزوات الشاعر العظيم (بايرون) الدونجوانية ، لم تكن كما تبدو من الخارج مجرد عبث مراهق أرعن ، وانما كشف لنا حين عزف حكايته على أرغن موهبته ان (دونجوانياته) تلك كانت تعبيره الخاص الأصيل عن حيرته أمام ألغاز الوجود وجوعه الفريد لاكتشاف وتد يتمسك به في غربته الانسانية ، غربة الشاعر حينما تسقط الأقنعة وتهتز المفاهيم ويصبح العالم فارغاً ومرعباً مثل شارع خلفي بعد منتصف الليل في مدينة

تقطنها الذئاب والاشباح ...

وهكذا (فالدونجوانية) ليست بالضرورة نتاج (ذكورة) منهومة ، وانما قد تكون تعبيراً عن (انسانية) ضالة ...

ولكن قراءة الديوان تنفي هذه التفاؤلات ...

« من أنتِ ؟ » القصيدة الاولى ، والتي اطلق اسمها على الكتاب هي اسوأ ما فيه (رغم شدة المنافسة بين قصائد الكتاب على هذا اللقب) ! ..

فيها لا يتجاوز بحثه عن « هوية الحبيبة » آفاقاً سطحية عادية ... فهو في بحثه (الحسي)عنها لا يزرع عينيه إلى ما تحت الجلد ولون البشرة وانما يقول :

(كم تخيلتك .. سمراء

وتارةِ اخرى ... شقراء)

والوعي (الحسي) بهوية الحبيبة ليس بالضرورة سطحياً ، ولكن شاعرنا قصر عن تكثيف رموزه الايحائية والانطلاق منها إلى أبعاد إنسانية جديدة بحيث نجد فيه عمر ابن أبي ربيعة آخر ، كما انه لم يطرح نموذجاً جديداً للقاء حسي حاد بينه وبين الحبيبة بحيث تصبح (سمرتها) أو (شقرتها) عتبة نطل منها معه على حقائق الوجود من زاوية جديدة (د. هـ. لورنس مثلاً) ... وهكذا القصيدة لم ترقَ إلى ما وراء الخطابية الشاعرية الهشة حيث تستلقي الكلمات على السطور بثقل البطون المتخمة .

« من أنت ؟

يا نهر الحب العميق

اجيبي بربك

كي أفيق » ...

وهذه القصيدة تفتقر كسائر نصوص الكتاب إلى العنصر الاساسي الذي يميز بين اليوميات العادية والشعر : انه الجدة ، ولا جديد في « من أنت » ! من حيث الشكل والمضمون .

فافكار الشاعر مكررة لا جدة فيها على الاطلاق .

قال شاعر عربي ذات مرة :

لا أرى ما نقول إلاّ مُعـــاراً ً . أو مُعادٌ من قولنا مكرورا

وهذا صحيح لان الموضوعات الانسانية لا تتبدل ، كالحب والموت والحزن والولادة ... ولكن الجديد الذي يفترض أن يأتي به الشاعر يكمن في اسلوب النظر

إلى هذه الحقائق الانسانية المشتركة ، وفي أسلوب التعبير عنها ...

ففي قصيدته « رثاء » مثلاً ، يقول اذ يبكي أخاه ثامر :

« هل مت حقاً ؟؟
لا .. لا .... انني
لا اتصور » .

وقبله قال المتنبي :

نعد المشرفية والعوالي	وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقربات	فما ينجين من خبب الليالي
نصيبك في حياتك من حبيب	نصيبك في منامك من خيال

ويصرخ الشاعر الاستاذ خالد ملتاعاً :

« وتركتني
بلا عيون ... تبصر
فقد كنت لي يا ثامر
مثل الحياة وأكثر »

وقبله قالت الخنساء :

قذى بعينك أم بالعين عوار	أم ذرفت اذ خلت من اهلها الدار

والشاعر الاستاذ خالد يردد :

عجيبة هذه الحياة يا ربي
لم تخطف السائرون (والصحيح السائرين)
ولا تنذر » .

وقبله قيل :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب	تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

وهذه حال الناقد الحيادي من قصائده كلها ... والاستاذ خالد يفشل مع كل سطر في اقناع قارئه بأنه أمير في عالم الشعر لانه لم يأتنا بجديد نكرسه ، كما انه لم يطور مدرسة أو مذهباً ابتدعه سواه .. (رحلة المبدع مع عطائه مثل رحلة العدّاء الاولمبي الراكض بالشعلة المقدسة ، حيث يعدو بها مستنزفاً كل طاقاته ثم يسلمها إلى سواه وهكذا ...) ...

وبعد ، فلا مفر من إضافة هذا الكتاب إلى رف (التفاهات الاميرية) في ركن

من المخمل الارجواني نفرده لها خصيصاً في المكتبة العربية . فقد شهدنا في الاعوام الخمسة الأخيرة موجة مرعبة من اقبال بعض الأثرياء (منهن أميرات وأمراء) على شراء المخطوطات الأدبية ونشرها بأسمائهم ، هذا بعد أن سئموا شراء الجواري والخصيان وجياد السباق وأنهار الويسكي والاستحمام بالشمبانيا ... وظنوا أن شراء حنجرة شاعر وتقلدها سهل ومباح كشراء (باروكة) من الشعر المستعار وارتدائها ! ووجدنا أنفسنا امام مجموعة من الامراء والاميرات وقد اصيبوا بعقدة « ولادة بنت المستكفي » وعقدة « أبو فراس » وتكالبوا على شراء الاوسمة الفكرية (بالشيكات) ، وقد وجدوا في جو بيروت الاجتماعي السريع الانبهار بالمظاهر المادية مسرحاً مثالياً لممارسة هذه العقدة كما وجدوا تهاون (نواطير) بيادر الفكر وغضهم الطرف عما يدور عاملاً مشجعاً ، وما دام (القاضي راضي) ، يا ارض اشتدي .. (واشتدت زيم) على النحو التالي :

١ — فئة كانت تشتري ديواناً بأكمله لشاعر كبير مفلس وتنشره باسمها !! .. ومن الطبيعي ان يظل الديوان تحت مستوى ما نشر الشاعر الاصيل باسمه وبذلك يظل الخاسر الوحيد هو الادب .

٢ — فئة تكتفي بشراء من يجري بعض (التصحيحات) ، وغالباً ما تكون هذه التصحيحات إعادة كتابة ! وتكون النتيجة كتاباً كحذاء الطنبوري كله (رقع) !

٣ — فئة زيّن لها بعض المتملقين واصحاب المصالح انها تمتلك الموهبة، وان نتاجها (صرعة) في عالم الادب ، (لا مجرد نوبة صرع في ضمير بعض النقاد .) والانسان عادة ضعيف أمام الملق والمديح يميل إلى تصديقه ...

وكتاب الامير خالد هو بدون شك اسوأ ما صدر من الكتب (الاميرية) وهذا دليل معه وليس ضده ! ففي سقطة الكتاب (ادبياً) دليل على ان الامير لم ينزلق إلى ارتكاب منكر مزدوج كسواه : القذف إلى السوق بنتاج سيء ، وارتكاب التزوير بانتحال شخصية المؤلف .. وإذا كنت قد تحدثت عن الفضائح التي تناقلتها الاوساط الادبية همساً (تستراً منها على شركاء من كبار نواطير بيدر الادب وصغارهم) ، في سياق نقدي ل « من انت ؟ » فلأن هذا الكتاب لم يكن سوى القشة الاخيرة التي قصمت ظهر بعير الصمت .

لكل « شهريار » فكر ، كان يجب ان نقول منذ زمن طويل : لا . فملكوت الادب ليس اسطبلاً ملحقاً بالقصور ، وليس مخازن نبيذ سرية لها سلالم وأبواب خلفية

تنفتح في جدران سرية بغرف نوم الأثرياء. والكلمة لن تكون أبداً جارية جديدة لشهريار ملّ ألعابه القديمة وجواريه وسيافه وشهرزاده ...

واذا كان هنالك من يلام فهم المهرجون :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها　　　وقد بشمن وما تفنى العناقيد

وأياً كانت الحال ، فان ريشة تستل من ذيل الطاووس وتغمس بماء الذهب لا تجدي شيئاً اذا لم تمسك بها يد انسان مبدع ، وتظل مهما أُحيطت بالابهة والتمجيد قاصرة عن ابداع حروف قد يحفرها سجين (فنان حق مسمول العينين) بأظافره القذرة على قيوده الملطخة بالدم ورغم أنف سياط السجان ، قد يقول كلمات تنفذ كالخناجر إلى عالمنا ، كتلك التي طيرها محمود درويش عبر زنزانته إلى عالمنا شلالاً من نبال :

سأقولها في السجن
في الحمام
في عنف السلاسل
مليون عصفور على أوتار قلبي
يخلق اللحن المقاتل !

وبعد ، أعود إلى شاعرنا الذي ذكرنا بذلك كلـه لأعتذر .. أعتذر ليس لانني قلت له ولبعض رف الكتب الاميرية رأيي الصادق والجاد ، وانما أعتذر عن رفاق الحرف الذين لم يفعلوا ذلك منذ زمن طويل ! !

وقد لفت نظري ان صفحات « أنت لي» لم تحمل أرقاماً ... الأمر الذي يتيح لي ان اتمنى لكاتبها بداية جديدة في كتاب آخر يحمل بين دفتيه حقيقة شعرية تقوم بين الناس بذاتها دون الحاجة إلى مدّاحين وطبل وزار .

عين غ تتفرس

في

ميخائيل نعيمة

« كتابك يمتاز بصفتين : الجودة والفرادة .
لكن الجزء الفريد منه ليس جيداً ،
والجزء الجيد فيه ليس فريداً » .
– صموئيل جونسون –

« الفنان الذي يكتب عن نفسه وعن
عصره ، هو وحده الذي يكتب عن كل
الناس وكل العصور »
– جورج برناردشو –

« لقد استغرق مني الأمر حوالي خمسة
عشر عاماً ريثما تأكدت من أنني غير
موهوب ، لكن لم يعد بوسعي اعتزال
الكتابة ، فقد كنت قد صرت كاتباً
مشهوراً ! »
– روبرت بنشلي –

١٩٦٩/٧/١١

خسر الأدب ولم يربح الفلسفة !

القامة منتصبة كرمح أفريقي .

اليد التي امتدت تصافحني قوية ، كقبضة فتى مطبقة على معوله .

الوجه الذي طالعني صامد وعتيق كسنديانة مقدسة .

في خطاه التي تتقدمني إلى الداخل حيوية حقل من الزيتون القديم المثقل بالثمر . . .

التجاعيد التي حفرتها حول العينين ثمانون عاماً تبدو طفلة ، لأن بؤبؤي العينين جمرتان ما زالتا تتقدان ذكاء وحماساً ...

صوته الذي يرحب بي قوي وغير مرتجف ، كأصابعه التي تشعل لفافة بثبات ، بشيخوخة شابة دونما ارتجاف (لاحظت ان يدي الممسكة بالقلم هي التي كانت ترتجف بشباب شائخ ... غبطته دونما حسد) .

اذن هذا هو ميخائيل نعيمة ، ناسك (الشخروب) في عصر الفضاء ...

يرحب بنا ، – الزميل المصور زهير سعادة وأنا – ، وتتبدى لنا منذ اللحظات الاولى لهذا اللقاء حيويته الذهنية وتوقد ذاكرته (فقد ميز فوراً زهير سعادة وناداه باسمه ، وذكّره بأنه سبق له وصوره منذ أعوام ، والطريف ان زهير سعـــادة ابن العشرين كان قد نسي ذلك ! !) ، وحدثني عن ذكرياته والمرحوم والدي كما لو كانت ماثلة أمام عينيه (واعترف بانني ظللت لذلك أؤجل تسجيل هذه المقابلة شهوراً عديدة ، ريثما أتحرر من الأثر العاطفي لحديثه هذا ، واستعيد طاقتي على ما في طاقتي من الموضوعية ! لقد استولى ميخائيل نعيمة على مشاعري ولكن ليس على قلمي) ...

إذن هذا هو ميخائيل نعيمة . مواطن لبناني غير عادي ، ورجل في صحة جسدية تؤهله ليقود مظاهرة (إن لم أقل ليسير في الصف الأول من مشيعي جنازتي مثلاً !)... إنه يفيض حيوية وحماساً على الصعيد البيولوجي ، كما على صعيد الانتاج الفكري

ألم يصدر كتابه الاخير .. « يا ابن آدم » في العام الماضي فقط ؟) ...
ومع ذلك ، فان هنالك انطباعاً عاماً سواء لدى الذين قرأوا له أو لم يقرأوا : هو أن ميخائيل نعيمة أديب كبير ومن التراث ! ...

وصحيح انه ليس بين جيلنا من لم يسمع بميخائيل نعيمة ، ولكن قلائل بين جيلنا يعرفونه حقاً ...

الظاهرة المأساة

سألني صديق صادفني وأنا في طريقي إلى هذا اللقاء : ولكن هل ميخائيل نعيمة حي ومعاصر ؟ ! ...
لم أجد في سؤاله نكتة ، كما لم يثر في نفسي أية دهشة ... وإنما وجدت سؤاله العفوي هذا يعبر ببساطة عن انطباع شبه عام حول ميخائيل نعيمة ، هو انه من « التراث » ! ...
رويت هذه الحادثة لميخائيل نعيمة . لم يدهش . بل أكد لي هذه الظاهرة حين روى لي بمرارة حادثة مشابهة ولكن على الصعيد الرسمي الاعلامي . قال لي : إذاعة عربية (معينة) تفضلت مشكورة بتحويل كتابي عن جبران خليل جبران إلى مسرحية إذاعية مسلسلة . بالصدفة ، سمعت ذات يوم احدى حلقاتها تذاع دونما أي إذن خطي أو شفهي مني . غضبت ، ليس لأنها لم تحفظ حقوقي المادية كأديب وانما لأنها تخطت أبسط القواعد الحضارية الأدبية : ألا وهي كتابة رسالة تعلمني فيها بالأمر — إن لم أقل تستأذنني — . وهكذا كتبت رسالة إلى المسؤولين في تلك الاذاعة العربية أذكرهم بواجبهم في طلب موافقتي على الأقل . وكان الرد عذراً أقبح من ذنب . ماذا تتصورين ردهم ؟؟ ...

— ؟ ..

يتابع نعيمة : كتبوا إليّ معتذرين إذ لم يخطر ببالهم استئذاني لانهم كانوا يظنونني من التراث ! أي أديباً راحلاً من التراث كامرىء القيس مثلاً ! ... وأبدوا دهشتهم من أنني ما زلت **أديباً** معاصراً حياً أرزق ! ! ...
يصمت ميخائيل نعيمة بحزن كله ترفع وكبرياء ...

تلك الحادثة لا أنقلها على أنها (من نوادر العظماء) ، ولا على انها من (المهازل الثقافية لبعض إعلامنا العربي) ، وانما أنقلها لأنها تجسد في نظري عملياً ظاهرة مأساة

في فكرنا المعاصر : ظاهرة اللامعاصرة على صعيد بعض الأدباء المعاصرين الذين ندعوهم كباراً ...

لقد ذهبت إلى ميخائيل نعيمة بحثاً عن جواب لهذه الظاهرة التي تؤرقني ، واذا به دون أن يقصد هو – أو أقصد أنا – يؤكد لي الظاهرة بنفسه .

كبار ... ولكن

منذ قرأت طه حسين « في الأدب الجاهلي » وأنا احس بأن حاجتنـــا للثورة على الادب الجاهلي المعاصر صارت ضرورة فكرية تتطلبها المرحلة التي نمر بها .

وأعني بالادب الجاهلي المعاصر ذلك النتاج الذي ما يزال يتحفنا به ادباؤنا (الكبار) الذين مَنحوا وأبدعوا قبل ربع قرن أو أكثر – ، لكنه نتاج لا يزكيه سوى ماضيهم في العطاء ، لأنه بعيد البعد كله عن واقع الشعب وهمومه وعصره .. الشعب الذي يفترض انه القاعدة لكل ابداع مثمر ... انهم (سفوبرلكيو) النتاج في مرحلة ما بعد هزيمة حزيران ! اذ ربما لم تمر على الفرد العربي منذ اجيال مرحلة زلزال تاريخية كالتي نمر بها ... ففي ربع القرن الأخير ، داهم الزلزال رصيفنا العتيق من المحيط إلى الخليج ، ومزق مفاهيم الفرد العربي العتيقة من الوريد إلى الوريد ، وخلفه ضائعاً في دوامة مروعة : أوتاد عالمه الفكري القديم تخلخلت من اجتماعية واقتصادية واسطورية وعسكرية وتراثية ، لكن لم يجد البديل بعد .

لذا كان من الطبيعي في مرحلة كهذه ان يتلفت الفرد بحثاً عن صوت المفكر ، صوت الاديب ، صوت الشاعر ، صوت المبدع الذي يفترض ان يلعب دور الشهادة والاستشهاد ... دور المبصر أو الاعور في قافلة العميان ... دور عراف دلفي غير المشعوذ ، ودور البوصلة حينما تعصف الانواء بسفينة الامة .

وكما واكبت ريشة (غويا) ثورة بلاده الاسبانية ، وكما واكبت حروف روسو قرع طبول الثورة الفرنسية ، وكما تفجر صوت بابلو نيرودا ملهماً الملايين واقفاً في صف الثوار ، وكما انطلق صوت برتراند راسل مديناً جنون التسلح الذري ، ومقيماً محكمة المفكرين لمحاكمة المسؤولين عن مذابح (فيتنام) ، متخذاً وكبار مفكري الغرب قراراً بإدانة رئيس جمهورية اميركا وزبانيته أمام محكمة الفكر الناطقة بحكم رمزي باسم الانسانية ، كذلك كان من الطبيعي ان يتلفت الفرد العربي حوله بحثاً عن (نجم قطب) أدبي عربي ، بحثاً عن الكلمة التي تضيء وتحرق وتفسر وتخطط ... وأن يبحث

عنها بالذات لدى اولئك الذين طالما نصبهم (أدباء كباراً) بحثاً عن كلمة كبيرة ... وكان من المفترض أيضاً أن يكون أدباؤه الكبار كباراً من حيث قدرتهم على مواكبة المتطلبات الفكرية الجديدة لجيل الحربين المهزلتين: حرب ١٩٤٨ و١٩٦٧ . . .

ولكن ماذا حدث ؟ ... هل فعل القارىء العربي ذلك ؟؟ وهل استطاع (أدباؤه الكبار) تجاوز أنفسهم ؟ . وإن لا ، من المسؤول ؟ وأين يقف نعيمة وسواه من هذا كله ؟ ؟ ...

لا . لا . لا .

بغضبة المحب الدارس ، لا بتطاول المتهجم الناقم أعلن فجيعتي بعدد كبير من جيل (الأدباء الكبار) ... وعلى تربة جداول عطائهم التي جفت ، تنمو سنابل غضبي يوماً بعد يوم ، وها هو حصادها يبادر من الصراحة والفجيعة .. إني وقد قمت بإعادة قراءة نتاج اولئك الذين رضعنا ، فيما رضعنا من مسلمات ، لبن تكريسهم ادباء كباراً ، أعلن بحزن حقيقي أن أكثرهم كف عن العطاء منذ زمن بعيد ، دون أن يدري ودون أن ندري ! ! ...

ان يكف الاديب عن العطاء ، وان يصاب بالشيخوخة الفكرية أمر يمكن ان يحدث لأي كاتب في أي قطر من اقطار العالم ... ولكن الذي يجعل من الامر ظاهرة خطيرة في بلادي هو ان الاديب الغربي حينما يكف عن العطاء يصمت (كما حدث لآرثر ميللر وتنيسي وليامز) أي يكف عن النشر احتراماً لذاته ولقارئه ، أو ينتحر عملياً (كما فعل همنغواي) ، أو يلقى من قارئه وناقده إعراضاً فورياً فينسحب (مثل فيتزجيرالد) .. أما أديبنا العربي فانه يظل (إلا فيما ندر) مصراً على اصدار الكتب ، ويظل متمتعاً بالقاب الامارة الفكرية وهالات التقديس ... بل ويمارس احياناً نوعاً من الارهاب الفكري ضد أية محاولة لاعادة النظر — إن وجدت — ...

يقول الشاعر أمين نخلة في كتابه الأخير « في الهواء الطلق » :

(أطال بعض متخلفي الكتاب لسانه في الايام على كاتب كبير من اخواننا في بيروت ، فقال لي ذلك الكاتب الكبير : — يا عجباً ! يحقد هذا الرجل عليّ هذا الحقد كله في حين أنني لم أبح له برأيي في كتابته ...

وقد فات ذلك الاخ الكاتب الكبير يومئذ ان عجز المقصرين عن مجاراة السابقين يحرك بغضة صدورهم لهؤلاء ، وحقدهم عليهم .)

أقول : لا ... الدعوة إلى اعادة النظر في أدبنا الجاهلي المعاصر ليست بالضرورة تطاولاً من الادباء الشبان على الادباء الكبار سناً ما دامت تراعي قواعد البحث العلمي الجاد الموضوعي .

أقول : لا لكل اسم تم تصفيحه بدرع « التراث » وتم « توثينه » وتكريسه أديباً كبيراً في معبد فكرنا العربي ، فأنا من نسل الاعرابي الذي أكل وثنه لما اكتشف انه مصنوع من التمر ...

اقول : لا ... لأي نثر « جاهلي » معاصر ، أياً كانت هالة القداسة المحيطة بصاحبه ... وأياً كانت سطوة التنويم المغناطيسي لإسمه ...

وحينما اسارع خريف عام ١٩٦٧ إلى اول مكتبه لشراء النتاج الاخير لأمين نخلة وكلي أمل في ان أجد فيه كلمة منارة في خضم هموم التيارات التي تتلاعب بي أسوة بأي فرد عربي ، وحينما أقرأ أن هموم شاعري طيلة نصف القرن الأخير هي كما يقول :

(يا من يطلعني على القاعدة التي اليها استند جلة من (القراء) في قراءة « عليهم » و « اليهم » و « لديهم » بكسر الهاء ! فأنا من خمسين سنة أتعلم ما أقيم به لساني في العربية ، وأنا من خمسين سنة ، وناهيك بها على النحو والصرف طول مدة ... ما وقفت على قاعدة لهذا الكسر تشفي الغليل !) ... حين اقرأ كلاماً كهذا في مرحلة كهذه لا املك الا أن أصرخ لا .. ولا أملك إلاالتمرد على عادة (تقبيل الأيادي) الفكرية التي صارت جزءاً من (تراثنا) النقدي المهترىء ... (لا يا احب الشعراء إلى نفسي يا أمين نخلة .. أين انت ؟ قرأتك ولم أجدك !) .

قرأت أكثر اولئك الكبار في نتاجهم الأخير ، ولذا أجدني اصرخ « لا » بغضبة المحب ، لا بتطاول المتهجم . أصرخ « لا » وأنا أرصد ظاهرة عامة هي : غياب (الإبداع) عن النتاج الأخير لبعض (كبار) أدبائنا ...

اغتراب بعض كبار أدبائنا عن حياتنا وظاهرة (طلاقهم) عن الواقع الذي نعيش هو مقدمة لطلاقهم عن إبداعهم ، لأنه متى وقع الطلاق بين الفنان والحياة ، استحال النتاج إلى عمارات لفظية هندسية تزيينية لا تخلد .. أو إلى اجترار لما كان .

ثائر ولكن ...

بعيداً عن التقديس المسبق ، وبعيداً عن التحامل (الموهوم) للجيل الجديد ضد

الجيل السابق ، عاودت قراءة نعيمة ، وعاودت معايشة نتاجه كله من (الآباء والبنون) مروراً بـ (سبعون) وانتهاء بكتابه الاخير (يا ابن آدم — دار صادر — ١٩٦٩) ... ورأيت عبره مأساة جيل كامل من الكتاب والقراء على السواء ...

لقد بدأ ناسكنا في عصر الفضاء حياته الادبية ثائراً في عصور الانحطاط ، بدأ ثائراً ككل مبدع .. (أليس الابداع هو القدرة على إلقـــاء نظرة جديدة على الوجود واتخاذ موقف فدائي بمعنى ما ؟) .

ومن يتابع نتاج نعيمة وسيرته الذاتية لا يملك الا الاعتراف بأنه كان رائداً على أكثر من صعيد فكري واجتماعي ، ثائراً في سلوكه ونتاجه : ثورة على الدين بمفهومه التقليدي . ثورة على الشعر التقليدي . ثورة على حضارة اللفظة . ثورة على التعفنات البورجوازية . ثورة إنسانية على الحرب وويلاتها . ثورة من اجل العيش الأفضل للانسان ..

أليست ثورة رائدة ان يجرؤ على الكتابة عام ١٩١٧ عن صاحب الجلالة عمود الشعر العربي التقليدي ويقول :

« لقد وضع الناس للشعر أوزاناً كما وضعوا طقوساً للصلاة والعبادة ، فكما انهم يتأنقون في زخرفة معابدهم لتأتي لائقة بجبروت معبودهم ، هكذا يتأنقون في تركيب لغة النفس لتأتي لائقة بالنفس . وكما ان الله لا يحفل بالمعابد وزخرفتها بل بالصلاة الخارجة من أعماق القلب ، هكذا النفس لا تحفل بالاوزان والقوافي بل بدقة ترجمة عواطفها وافكارها » .

ألم يكن في موقفه من (الدين التقليدي) ثورة رائدة ، حين اتخذ لنفسه علناً موقفاً فكرياً من الوجود لا يتطابق (حرفياً) مع أي من الديانات التقليدية وانما هو وليد اجتهاده ومزجه لروح تعاليم الديانات الهندية وغيرها من ديانات العالم القديم بالروح المسيحية والاسلامية والدرزية (من حيث ايمانه بالتقمص) ..

قال لي : ثورتي كانت أبداً ضد المحنطات والمكرسات . اضطررت منذ البداية أن أشق طريقاً لنفسي ، وبالتالي لسواي . عملي الأول كان الهدم إلى حد بعيد .. ثم محاولة إقامة مقاييس جديدة ومفاهيم أدبية جديدة ، والأصعب من ذلك خلق الامثلة على هذه المفاهيم ، لذلك اضطررت أن اخوض ميادين الادب كلها .. نقد — مسرح — شعر — نثر .. ثم انصرفت إلى معالجة مشكلات الإنسان الكبرى : البحث عن غايته من وجوده والسبيل للوصول إلى تلك الغاية .

إذن نحن أمام أديب توافرت فيه الموهبة والثقافة والترحال (والتطعم) بمختلف الحضارات ، كما توفر له التقدير والتبجيل (والادخال) في التراث خلال حياته (وليس كرفيق عمره جبران خليل جبران الذي مات اولاً ثم دخل التراث) ، فماذا كانت حصيلة ذلك كله من حيث النتاج ؟؟ ..

يا ابن آدم

قال لي الاستاذ نعيمة : كتابي الاخير « يا ابن آدم » يمثل خلاصة فلسفتي في الحياة وذروة عطائي .. وكان صادقاً في قوله ، لأنه في اجاباته كلها على اسئلتي كان وكأنه يقرأ سطوراً من كتابه هذا « يا ابن آدم — حوار بين رجلين » ، بالضبط سطور (الشيخ) . (ولذا ارفض تسجيل هذا الحوار اللاحوار لانني لست آلة ناسخة واحيل القراء إلى الكتاب إياه !) (يا ابن آدم) وفيه يدور الحوار بين رجلين في جزيرة نائية ، الاول (ش) شيخ (ناسك) واقواله تمثل (حكمة) ميخائيل نعيمة ، والثاني (م) مراسل صحفي يمثل فضول العالم الغر وشهواته وعلله ..

نفهم من حوار الشيخ والمراسل ان الشيخ مخترع عظيم اخترع (أشعة الموت) وندم (على طريقة نوبل يوم اخترع الديناميت وندم اذ وجد ان اختراعه صار مسخراً لدمار الانسانية) ...

لكن (نوبل) ميخائيل نعيمة عبر عن ندمه بهجر العالم إلى جزيرة نائية حيث يعايش وحوش الغاب في سلام ووئام .. يعثر عليه المراسل الصحفي صدفة ، فيكاد يطير فرحاً لان جائزة مليون دولار رصدت لمن يعثر عليه .. ولكنهما يغرقان في حوار طويل عن الحياة والوجود لا يقطعه سوى دخول بعض الحيوانات الصديقة من (أرنب وأفعى ونمر) وينتهي الحوار بانتصار الشيخ على المراسل واقناعه بآرائه .. ثم بدخول مراسلين آخرين كانوا يتعقبون المراسل الاول سعياً أيضاً وراء الجائزة ، ويتم صيد (الشيخ) الناسك ..

ببداية كبداية نعيمة ، بموهبة كموهبته ، بحياة زاخرة بالمعرفة والاحداث كحياته، بثقافة كثقافته ، من المحزن أن لا يكون هذا الكتاب ذروة عطائه .. فهو فيه قد خسر الادب ولم يربح الفلسفة .

الكتاب (نكسة) من حيث القيمة الإبداعية .. والشخصيات ليست أكثر من دمى يلقنها المؤلف آراءه في الحياة .. ولعل المؤلف كان يعي ذلك ، لذا فهو لم يسم كتابه

(مسرحية) وانما اسماه (حواراً) ، وكان بحق مجرد سيناريو لحوار . وهو قد فعل ذلك لأن همه الاكبر كان موجهاً إلى طرح تعاليمه الفكرية وفلسفته في الحياة ، وما الحوار إلا تطوير ساذج لإلقاء مواعظ عن (وصاياه السبع) حول أمور الحياة والوجود..

إذن من الناحية الادبية الفنية خسر نعيمة الأدب في الكتاب ، فهل ربح الفلسفة ؟

إن النظر إلى (فلسفة نعيمة) على ضوء الفلسفات العملاقة الاخرى من افلاطونية وسقراطية وكانتية وديكارتية وكونفوشيوسية وهندية يكشف لنا ان نعيمة كفيلسوف لم يأت بجديد ! في كتابه مزيج منها .. مزيج من الفلسفات والآراء التي يمكن لأي مثقف ان يعتنقها وأن يسردها على الآخرين .. هنالك خليط من الماركسية والهندية والبرتراندراسلية (من حيث كراهيته الشديدة للحرب) ، ورؤيا المدرسة الرومانتيكية لوحدة الوجود (شيللي — ييتس — بايرون — كيتس —) وهو في فلسفته عن «الحب» ليس إلا ترجمة عربية عن موقف كولريدج (في قصيدته البحار العتيق) وشكسبير (في الملك لير بالذات) وطاغور ، والفلسفات المسيحية ..

كتابه لا يخلو من(لمعات)فكرية مميزة لكنها لا تكفي لتجعل من(انطباعاته الفلسفية) بنياناً فلسفياً قائماً بذاته ، ولا تخرج ككل عن كونها (كوكتيلاً) فلسفياً راقياً جداً ..

وصحيح أن سارتر نفسه (كفيلسوف) يعتبر هزيلاً إذا قورنت فلسفته بما سبقها من فلسفات وفلاسفة ، الا ان عظمته تكمن في قدرته على تحويل فلسفته إلى سلوك انساني مقنع لدى أبطال رواياته : أي أن سارتر ربح الادب وعبر نجاحه كأديب نجحت فلسفته ، وقيمة فلسفته تكمن في قالبها الأدبي الفريد ، وهو أمر عجز عنه نعيمة .. لقد فشل في تزويج الفلسفة بالأدب لأنه لم يزوج الأدب (بالحياة) ..

لقد خلط نعيمة بين مفهومي (العزلة) و (التسامي) .. لقد انعزل تماماً عن تطور أحداث مجتمعه ، ونسي انه بانفصاله هذا تحت اسم (ناسك) قد حكم على ابداعه بوقف التنفيذ والشلل .. وتلك مأساة ساكني الابراج العاجية حتى ولو كانوا نساكاً .

لقد أخطأ نعيمة حين ظن ان (الانسانية) هي نقيض (المحلية) ، وان (الشمول) هو نقيض (المعاصرة) .. ونسي أن الادب العظيم الذي يخلد هو سنديانة جذورها في أرض (المحلية) ومنها تنبت — حين يغذيها الابداع — إلى سماء الانسانية والخلود .. ان ترفّع نعيمة وكثير من معاصريه الادباء عن حياة الفرد العربي ومشاكله ومآسيه المعاشه ، هذا الترفع حرمهم من التيار الاساسي الذي لا يمكن لمبدع ان ينتج بدونه : تيار الحياة .. الحياة في عالم الآخرين لا داخل قوقعة الذات ..

لاني اؤمن بأن شباب الفكر الانساني لا يتكامل الا مع شيخوخة الانسان البيولوجية ،

لذا يحزنني ان ترافق الشيخوخة الزمنية لأكثر ادبائنا شيخوخة فكرية تجعلهم قاصرين عن مواكبة العصر والحياة ، فيصبحون جزءاً من التراث ويقصرون على اكمال الشوط (عكس ما حدث للشاعر العظيم ييتس مثلاً) .

ميخائيل نعيمة ، الناسك في عصر الفضاء وعصر هزيمة العرب أمام اسرائيل ، لماذا التصق بمرحلة معينة وانعزل في قوقعتها ؟ لماذا قصرت حنجرته المبدعة عن ايقاع صرخات جيل يرفض أن يعايشه رغم انه يعاصره ؟

ميخائيل نعيمة بالذات ليس من تلك الفئة التي ما تزال تظن خطأ ان الادب عمارة لفظية ، و (حمام تركي) أو (جرن) للاستجمام من عناء الاحداث..انه ليس من الفئة التي تجهل ان الادب ديناميت الحياة ومحرك الجماهير والتاريخ والاحداث ، وانه لم تقم في العالم ثورة إلا وخلفها أكثر من مفكر وأديب وفيلسوف ..

وأنا أرى التوقد الجسدي والفكري لميخائيل نعيمة ، وأنا اقرأ افكاره التي تلتقي بأفكار راسل وماركس ، ادهشني ان ينسحب هذا الاديب إلى صومعة « سفربرلكية » بدلا من أن تضيء كلمته للجماهير الجائعة إلى يقين .. إلى بوصلة ونجم قطب .. هذا الاديب ما الذي جعله يشيح بوجهه عن الجماهير والناس الذين أبدع ايام كانت اصواتهم تخرج من حلقه ؟ .. تراه كف عن صرخة « لا » لانه اكتشف ان قبيلته من الطرشان ؟

ولكن لماذا يظل أديبنا العربي حتى بعد أن يحيل ابداعه على المعاش ، ويتقاعد عن التطور ، محتفظاً بصولجانه وهالاته ؟ ..

من المسؤول ؟ ..

القارىء القاتل

القارىء العربي هو في نظري المسؤول الاول . انه ما يزال يعامل كتابه ، كما يعامل مفكريه وقادته السياسيين وحتى اصدقائه : يحولهم إلى وثن يعبد ، أو شيطان يرفض .. ربما ليستريح من مسؤولية إعادة النظر في نتاجهم ، ومتابعتهم ، وربما ليتنصل من واجبه في تتبع سموهم وسقطاتهم ، وهو بذلك يسمح لمن ابدعوا مرة في ان يمارسوا ديكتاتوريتهم الفكرية (مؤبداً) ليتهرب من مسؤولية (اعادة التصويت) مع صدور كل أثر جديد .. وهذا التراث من (الادباء الكبار) العاطلين عن العطاء ، المسحوقين تحت مقصلة عبادة الذات ليس إلا نتيجة لقارىء لا يقرأ ، (يبطرك) ادباءه لمرة وإلى الابد ، قائلاً (أديت قسطك للعلى فنم) .. وينام الجميع .. وريثما يصحو الجميع ، سأظل أصرخ لا !! ..

عين غ تتفرس

في

البصابصة

« بتفاحة سوف أدهش باريس »
ــ بول سيزان ــ

« ليست مهمة الفن تقديم الشكل الخارجي للأشياء ، وإنما تقديم المدلول الداخلي لها »
ــ أرسطو ــ

« يزدهر الفن حيث توجد روح المغامرة »
ــ ألفرد . ن . وايتهيد ــ

« كل طفل فنان ، والمشكلة هي كيف يبقى الانسان فناناً حين يكبر »
ــ بابلو بيكاسو ــ

« مهمة الرسم ليس توضيح المرئيات ، بل جعل المرئيات مرئية »
ــ بول كلي ــ

٧ / ٧ / ١٩٧٢

٣ بحارة مركبهم حجر !

استاذ في جامعة « اوكسفورد » ببريطانيا جاء لبنان سائحاً بعد ان سمع الكثير عن بلد « الاشعاع » .

أخذوه إلى بعلبك وبيبلوس وصور وحدثوه عن الفينيقيين والرومان واليونان وعن الآراميين والهكسوس . فقال لهم : أريد أن أرى الحاضر ...

وملأوا بطنه بالتبولة والكبة والعرق ، وأهدوه عقالاً وجلابية ورقصوا له الدبكة وهز البطن وعرضوا عليه صور ملكة جمال الكون اللبنانية فقال : أليس في حاضركم المعاصر عطاء له مدلول انساني وعظمة تراثية غير هذا ؟ قالوا له : اذهب إلى « راشانا» إذن .

وسألهم ما هي « راشانا » ؟ . هل هي امرأة ؟ .. زورق ؟ .: نجمة ؟ .. خرافة ؟

قالوا : هي ذلك كله وأكثر .. هي تجسيد للاسطورة العربية القديمة التي كانت تتحدث عن قرية مرت بها الساحرة بعصاها ، وحولت الناس فيها إلى حجارة ، والطيور والنباتات والاطفال والاميرة الجميلة .. كلهم صاروا رخاماً لكن كل ما فيهم ظل ينطق بالحياة الخالدة .. قرية الاساطير هذه صارت اليوم حقيقة معاصرة ، تعتلي إحدى تلال لبنان المشرفة على البحر كنارة .. وعصا الساحرة هي إزميل اخوة نحاتين ثلاثة هم الأخوة بصبوص : ميشال وألفرد وجوزف .

وذهب الاستاذ في « اوكسفورد » إلى راشانا وعاد منها مذهولاً .

تعالوا معي نرافقه اليها . نخلف بيروت وراءنا . شاطىء البحر دليلنا يركض إلى يسارنا نتجاوز بيبلوس (جبيل) ، وبينما نمر بها نكاد نسمع اصداء مجاذيف مراكب فينيقية عمرها آلاف السنين ، وتهب علينا رائحة التاريخ العظيم وآثاره .. نوغل في المسير نحو (الحاضر) وروائعه . نصل إلى جسر ، لا نحسه كأي جسر آخر عادي ، وانما هو جسر العبور من عالم بيروت — بكل ما تمثله — إلى عالم راشانا المسحور .. فنحن ننعطف

بعد الجسر مباشرة لنصعد في التلال المشرفة على البحر وسط ممر من اشجار الزيتون التي تملؤنا باحساس توراتي معتق ، كأننا نغتسل بزيت مقدس في طريقنا إلى معبدنا .

عشر دقائق من الرحيل في جذوع الزيتون وندرك اننا وصلنا إلى راشانا . لا تطالعنا لوحة طريق أولاً ، وانما يطل علينا نصب حجري شامخ كأنه بقايا حضارة ما تزال تقف في وجه الرياح والامطار والغزاة والنسيان .. وندخل القرية المسحورة ، قرية الاساطير المعاصرة .. رجال من الحجر .. نساء من الحجر .. أشجار وطيور وأطفال وذئاب ورموز ولحظات عناق وصيحات وجع وأنصاب وتوابيت من الحجر .. وألغاز الانسانية وصرخاتها الحائرة أبجدية من الحجر .. في الشوارع ، أمام البيوت القروية ، في حدائقها وساحاتها المحيطة بكنائسها ، تراهم وتظنهم للوهلة الاولى أحجاراً فقط ، ثم تسقط في اللعبة — لعبة الخلق الفني التي هي الفن — ويخيل إليك ان التماثيل تتحرك ، تبكي ، ترقص ، تخاطبك ، تغني وتنتحب في آن واحد ، تسألها ، فتلتفت وعلى شفتيها جواب يتحجر قبل ان تتفوه به . . ووسط هذا العالم المذهل ، يتابع أهل القرية الصغيرة حياتهم بالبساطة نفسها ، والنقاء نفسه والوهج نفسه الذي يتدفق من التماثيل .. وتكف عن الشعور بأن هنالك فرقاً بين تماثيلها وأهلها ، كأنهم وحدة لا تتجزأ وشاهد في وجه الشمس على حكاية الانسان والارض . ونصل إلى بيت قروي صغير ، بيت أصحاب العصا السحرية الذين صنعوا هذا كله .. بيت (آل بصبوص) ...

ثروة سياحية منسية

ميشال . ألفرد . جوزف . ثلاثة صنعوا هذه المعجزة الفنية .. حولوا قريتهم في أقل من ربع قرن ، من قرية عادية إلى بلدة مسحورة .. جذبوا متذوقي الفن ونقاده والسواح الهواة من اقطار العالم كله .. متقاربو الاعمار ويبدون جميعاً في الأربعين (وتفاصيل دائرة النفوس غير مهمة) . ويبدون أيضاً مثل روبنسن كروزو . الشعر مسترسل . والعيون تتفجر بالصدق والعفوية والرغبة في الاكتشاف ، وبصلابة لم تفسدها تفاهات المجتمع المخملي .. وفيهم شيء آخر يسحرك ، انه طفولة الفنان ، عينه جديدة ، رؤيته للوجود جديدة وغير متكلفة ، ومع ذلك لا مفر لك بعد دقائق من اللقاء من أن تميز بين كل منهم . انهم متشابهون ولكنهم في الوقت نفسه مختلفون اختلاف بصمات الأصابع .

ميشيل بصبوص : كبيرهم وأستاذهم ..

مغامرته مع الحجر بلا حدود . شبابه الفني مثل شباب دوريان جراي ، متجدد . (وحينما اقول : مغامرته مع الحجر بلا حدود ، فأنا لا أقصد أن أتكلم بغموض مثل النقاد الفنيين « الكبار » ، وانما أعني حقيقة بسيطة) ..

فقد بدأ بصبوص مغامرته مع النحت مثل كل فناني التاريخ : بالازميل !

ولكنه لا يحمل ذلك العداء التقليدي للآلة . إنه يستخدمها . يستخدم آلة اسمها « الصاروخ » لتطويع الحجر . و « الصاروخ » منشار ينشب أسنانه في الصخر . نعم . يصدر ضجيجاً وغباراً ، لكن « الوحي » بالمعنى الرومانتيكي التقليدي للكلمة كسره ميشال بصبوص . الوحي الحقيقي لم يعد يركب بالضرورة جناحي طائر خرافي ، إنه اليوم يستطيع أن يأتي على أسنان منشار كهربائي آلي ، كما يمكن أن يأتي دون أن يطرده صوت الآلة الكاتبة تحت انامل فنان معاصر . (قلائل هم الادباء العرب الذين استطاعوا التوصل إلى مرحلة الخلق وتدوين ذلك في الوقت نفسه بالآلة الكاتبة . إن استعمال بصبوص « للصاروخ » خطوة حضارية جديرة بالتسجيل) . زاوية أخرى من مغامرته مع الفن : الحجر بكل انواعه ليس وحده ابجديته . هنالك أيضاً النحت في الخشب العتيق ، وهنالك تجاربه مع مادة البولياستر وهي اختراع علمي حديث لبلاستيك خاص يصهر ثم يصب ثم يصار إلى شغله بالازميل .. مادته مثل الاحجار القادمة من القمر ، أو من فوهة بركان .. شفاف ، يخلق الضوء فيه أغاني قوس قزح .. وهنالك أيضاً تجاربه الاخيرة مع الألمنيوم ، وخلقه لمنحوتات من تلك المادة التي كانت وقفاً على صناعة الطناجر والملاعق ، فصارت لها في منحوتاته شفافية الخلود وعتق الحزن ..

وميشال متحدث ذكي بلا حذلقة .. انه يقرر بكل بساطة « انا اول فنان في هذه الرقعة من الارض استعمل البولياستر » .. ويتحدث عن « الصاروخ » بقوله (انه منشار كهربائي للحجر ، يعطي في الصخر جروحاً خاصة من نوع آخر غير جرح الازميل ، وجروحه تفجر رؤية جديدة وجماليات جديدة) ..

وهو على حق . أنصابه التي مرت بذلك (المنشار) الحديث تكتسب عتقاً مذهلاً . تصير كتلك الانصاب المنسية التي يسطر عليها الغزاة حكاياهم ، تصير كتلك اللوحات العتيقة التي تروي تاريخ شعب كأنما حفرتها أظافر ابنائه .. ذلك الزواج بين الآلة والابداع يسحرني دائماً . حينما يسود المبدع الآلة ويروضها ، فيعرف كيف يستعملها بدلاً من أن يهرب منها ساتراً عجزه أمامها برفض رومانتيكي .

ميشال متزوج من الكاتبة بالفرنسية تيريز عواد منذ اربع سنوات ولديهما طفل جميل في الثالثة .

الفرد : متزوج من حساسيته . وسيم . خطب عشر مرات ونجا من الزواج . رقيق كقلب خسة ، وبالتالي شرس أحياناً كحزمة ألعاب نارية التهبت فجأة .. وردود فعله جميلة مثلها .. حينما ذهبت اليهم في راشانا ، وصلت إلى بيتهم قبل عودتهم جميعاً . ثم طلع ميشال من البحر كمخلوق خرافي ، ثم وصل ألفرد متأخراً كأنه كان في معبد يندر الصمت . ثم بعد حوار – بلا حوار – فتح أسوار جرحه أجوس على شطآنها الدامية وأسبر غورها . كان يكفيه انني أعي أبعاد قارة أوجاعه . وانطلق ألفرد ، إلا إنه صامت من حيث المبدأ . قاس من حيث المبدأ ، لكنه حينما يتحدث ، فهو الصراحة حتى القتل ، وحينما يخلع قناع الصمت فهو زارع ألغام الرفض في الحوار . وما قسوته الخارجية إلا قسوة قشرة الثمرة ذات الداخل الغض : كلما ازدادت ليونة كلما ازدادت قشرتها قسوة .

أما جوزف الأخ الاصغر فهو روبنسن كروزو الأكبر ، وهو الصمت (ربما لأن كروزو كان وحيداً إلى حد استحالة الحوار مع أحد) وجوزف نسي درب الحوار – وربما لم يشقه قط لأن أحداً لم يساعده في تعبيده . انه وحيد بطريقة (كافكية)وقروية في الوقت ذاته . قوي الساعدين ، وهو (معلم العمار) ، ومثير للفضول كلغة غير مكتشفة ... وفي أعماله تمتزج هندسية (معلم العمار) مع عاطفية وشفافية نفس مرهفة تجريدية الرؤي .

ولكن ،

لماذا اطيل التفرس فيهم والتلصص على أعماقهم ؟! ..

سألتهم عن المزيد من أعمالهم .

فتحوا باباً مقفلاً صدئاً ، كأبواب الكنوز ، والمقابر ، كان صريره منبهاً .

دخلنا غرفة يأكلها الحر والصمت ، ويتعايش فيها نتاجهم .

هذه بعض أنصاب ميشيل . يقول متحدثاً عنها :

في طريقتي قرابة للخطوط الهندسية ، وفي استخدامي للآلة تفجير لإمكانية الحجر لم يكتشفها حاملو الازاميل . كان النحت في العصور القديمة منطلقاً من استعمال الازميل . لم لا استعمل امكانيات التكنولوجيا في تفجير الحجر ؟ ...

القبو صغير ، والمنحوتات فيه مزدحمة كالسجناء السياسيين ... ووجدتني اقول :

كم هم سجناء .

– انهم طليقون أكثر من سجناء العالم ... يملكون الحرية ... حينما ننحت ، نترك لهم حرية اختيار الجسد الذي يتقمصونه .

– من ؟

– رؤيانا ...

أدور في القبو واتأمل منحوتات ألفرد . هنالك ما يشدني اليها ، هنالك تلك الخطوط المنحنية المقوسة الحنون كرحم ، كأنطواء طفل في الرحم قبل اكتشاف رعب الوجود وحقارته ، هنالك تقوس جسد امرأة تضم ظل حبيبها الذي تعلم انه ليس لها – وهو لذلك حبيبها بالذات – ، هنالك حنوها ، خصبها وعقمها ، وارتعاش ذاكرة النسيان في احشائها (من ينسى ؟!) . لبعض منحوتات ألفرد بشرة شفافة وناعمة كبشرة طفل وفي أعمال ألفرد ما يخاطب الفرد العربي ، المتفجر العاطفة الشعواء ... فيها رقصة احشاء انسان ابتلع السم بإرادته ، وببدائيته أيضاً ... فيها صرخة « الهاراكيري » ، وفيها استكانة ممارسها ورقته وحيرته وهربه... هذا (تكوين) لألفرد ، إنه من احجار البحر ، ويشبه التماثيل التي يعمرها الاطفال اللاهون على الشاطىء ... ثلاثة احجار نحتها البحر ، وصفّها الفرد بعضها فوق بعض كطفل عابث . أقول له ذلك – يقول : يا ليتنا نرجع إلى الطفولة لأن كثيراً مما تعلمناه أفسد عفويتنا ! ...

أحاول تبديل الحوار (القبو حار ، كم هو حار يثير الرغبة في الشجار) ، أسأل : ما اسم هذا التمثال ؟ .. يقول : تماثيلنا لا نسميها . نخلقها ، نترك للآخرين تسميتها .

– سئمت أحاجي العباقرة ، من يسميها ؟ ...

يجيب ميشيل : الشاعر الكبير جورج شحاده يسميها .

اسألهم : ولماذا هذه الهدنه المهينة ؟ ، انتم تلدون وهو يسمي اولادكم ؟

– بل اننا نبدع . ومن يتبنى ابداعنا عملياً بشرائه المنحوتة له الحق في ان يسميها . نحن نخلق الشكل لا الاسم ، ولكن تصادف أن جورج شحاده يعي لغة مخاضنا .

– ومن لا يعيها مثلاً ؟

– شارل مالك .

– لماذا ؟

– يقول ان الكلمة الاخيرة للفلسفة !

– وانتم ؟

ــ نقول ان الكلمة الاولى للفنان !

وكان هنالك تمثال معتق كالكلمات الأولى ، كتلك التي تزدحم بها متاحف روما لما قبل التاريخ : لمن هذا ؟

ألفرد : أنا . فيه عتق التاريخ ، ربما يبدو وكأنه تمثال أثري ، لكنه معاصر ... اتأمله . قناع من البرونز ، كأقنعة المهرجين ، وعبر البرونز خيل الي انني أرى دموعاً كدموعهم ، كتلك التي تتدفق من مغاور سرية ...

يقول ألفرد : حينما « أقارب » الحجر ، أسمعه يقول لي : إنك تهشمني . إنني اتوجع لكنني أعرف انك تخلق لي وجوداً جديداً ... وجوداً حقيقياً وحياً ...

ميشيل (الوجع المزمن) يتدخل قائلا عن الوجع : من الضروري إيلام الشريان العربي المقطوع ... من الضروري إيقاظ وعيه على حقيقة ما يدور ، وفظاعة ما يدور...

جوزف صامت كمغارة بحرية سدت شفتها سفينة غارقة .

أتابع الجولة في القبو ــ المتحف . هنالك نماذج بيوت تذكرني بنماذج بيوت سكان القمر ... مسكونة بالدهشة مثلها . مسحورة مثلها . اسأل عنها . يقول ميشيل : هذا مشروعي الاكبر . إقامة بيوت في راشانا بشكل منحوتات ترجع للتراث الذي نشأ على شاطىء البحر المتوسط ... ألا تلاحظين كم تشبه بيوت فلاحي سوريا الفقراء، تلك البيوت المعمّرة من اللبّن ، المدهونة بالبياض ...

اسأله : لمن . لماذا ؟ ...

ــ مدينة . بلدة . قرية اسطورية مسحورة . للفنانين من انحاء العالم كله . مسكونة بهم . مسكونين بها . يأتون اليها هرباً من الهرب . يبدعون . اسأل : متى تنفذون ذلك المخطط ؟ ...

يصرخ ميشيل (أم تراه كان يهمس بصدق ؟ ــ ما الفرق ــ) : إننا نواجه صعوبات مادية جمة . أتمنى ان أخلق قرية نموذجية مخططها كما ترين ، خصيصاً لتجمع الفنانين والكتاب والشعراء ... ولكن ... كيف ننفق ؟ ..

الحقيقة المذهلة الواقعية

أجل . كيف ينفقون لا على مشروعهم هذا فحسب ، بل على تماثيلهم ، وحياتهم واطفالهم ... انهم بلا شك مبدعون أثاروا فضول الغرب قبل الشرق ، وكتبت عنهم صحف اوروبا والبلاد التي عرضوا فيها من قبل ما لم يُكتب عن أي فنان عربي تبنته

دولته أم لم .

في العام الماضي (أم قبله) كتب بول توريز ، في مجلة « جاليري » الفنية الهامة في باريس : أبعد من لبنان ، راشانا ، تشع مع العالم ، وتمنح الشرق حجماً فنياً يساوي ساعاته الكبيرة التي يحياها » ...

وكتب « دانيال لورادور » في « شهادة :» : « التنوع قوة من قوى عدة في أعمال هذا الفنان (ميشيل) ، انه واخويه ذوو نحوت هي قصيدة ، قصيدة تروي الافراح البسيطة للارض والسماء » .

وفي « نوفيل ليترّاتور » كتب جان جاك ليفيك ... « نحت الاخوة بصبوص تقييم للعلاقات الانسانية الهادئة و ... »

وماذا بعد ؟ ...

في باريس ، عام ١٩٧٠ حينما عرضوا منحوتاتهم في أحد شوارعها إلى جانب منحوتات كبار الغربيين ، ذهلت الصحافة الفرنسية بهم ، والنقاد ، والعالم الغربي ...

ولكن ليس من المهم فقط ان يصفق العالم لفنان ، المهم ان يستمر ، وكي يستمر يجب ان يكون هنالك من ينتظره على رصيف الوطن حين يعود ، لا ليصفق له وليقول له (رفعت رأسنا . بيضت وجهنا . برافو يا شاطر) ، بل ان يجد مسؤولاً يتفهم منه ظروف حياته الموضوعية ، وظروف عمله ، ومساعدته وتذليل العقبات الرسمية في وجهه ، والعقبات المادية في وجه معارضه ، كي يتفرغ الفنان لمعركته مع الابداع ، ولا يتشتت في معارك جانبية محلية منها بوالص شحن التماثيل إلى المعارض العالمية ...

ضمن هذا الاطار طرحت اسئلتي . وضمن هذا الاطار ، وفي جلسة مصارحة وجدانية ، حدثوني ببراءة الفنانين الكبار عن المتاعب والمصاعب التي يلقونها . وخيل إلي ان السبب في ذلك يكمن في عدم معرفة المسؤولين بهم وبأهميتهم الفنية في العالم العربي والغربي ، وبالثروة السياحية التي يمثلونها (هذا اذا كانت القيم الفنية وإضافة شيء إلى التراث الانساني الابداعي أموراً لا تعنينا) ... وكم كانت دهشتي عظيمة حين همست في أذني صديقة رافقتني قائلة :

انهم اصدقاء لأسرة رئيس الجمهورية الحالي وله ، وهم يعرفون مدى ابداعهم ويقدرونه ... وهم ايضاً اصدقاء لرؤساء جمهوريات لبنان السابقين ... اصدقاء لهم قبل استلامهم للسلطة لا بعدها إذ كان كل منهم يقول لهم : متى تنصفكم السلطة ؟.. متى تنصفكم الدولة ؟ ... وحينما يصير رئيساً للجمهورية ، ويصير هو السلطة وهو

الدولة يظل كل شيء على حاله !

وكان لا بد من ان اسأل (البصابصة) عن هذه الحكاية . ... كان من الصعب أن أفهم كيف يمكن لفنان ان يتعرض لهذه المصاعب كلها رغم إيمان السلطة في بلادي بإبداعه ؟ ... ألا يعني ذلك الموقف نوعاً من الانشغال عن الفن إن لم أقل عدم التفهم لأهميته ومدلوله ؟ ...

رفعتم رأس لبنان !

إليكم هذا الحوار (النموذجي) الذي دار بينهم وبين اسرة رئيس جمهورية سابق بلبنان . الرئيس قبل ان يصير رئيساً يصور بكاميراه منحوتات (بصبوصية) .

الزوجة تتأمل وتسأل : لماذا لا تعرضون في باريس ؟

ميشيل : هل يصلح مستوانا لذلك ؟

الزوجة : طبعاً . لو تدرون كم انتم مبدعون .

الفرد : نتمنى ان نحظى بشرف مساعدتكما .

الزوجة : سأسعى لذلك .

ومرت الايام ... وصار زوجها رئيساً للجمهورية ، وجاء الرئيس لحضور معرض لميشيل بصبوص الذي نال الجائزة الاولى ، وقدم له وسام المعارف (لم يعلقه ميشيل على صدره لانه لا يرتدي ملابس رسمية) يتابع ميشيل رده على سؤالي : ثم ماذا؟ ...

يقول : ثم التقينا في باريس بعد ان صار معرضنا (الحلم) الذي شجعنا عليه منذ اعوام بعيدة ، حقيقة محسوسة ... ورفع العلم اللبناني في قلب باريس إلى جانب أعلام الدول الاخرى ... وقلنا له ان الحلم تحقق ، واننا استطعنا أخيراً ان نعرض في باريس رغم العقبات كلها ...

— عاتبتموه ؟

— دعوناه لزيارة المعرض .

— جاء ؟

لا ... التقيناه فيما بعد صدفة قال لنا اننا رفعنا رأس لبنان وانه دعي للعشاء وتسمم (بشوربةقريدس)وبقي طريح الفراش ليلة افتتاح معرضنا الباريسي وكرر(رفعتوا رأسنا)...

وطبعاً لم يقل له ألفرد بصبوص انهم استدانوا نقوداً كي يتمكنوا من (رفع رأس لبنان) !

معرض باريسي آخر !

ورئيس آخر زارهم أيضاً في راشانا مع السيدة زوجته قبل ان يصير رئيساً (وأتخيله يقول لهم ايضاً متى تنصفكم الدولة ؟) ، واسأل : هل أعجبه نتاجكم ؟

ــ جداً . لقد حمسنا هو أيضاً لإقامة المعرض ؟ .

ــ كان مسروراً بالمعرض بعد إقامته بناء على جهدنا الشخصي واتصالاتنا ... وقال اننا (رفعنا رأس لبنان) عالياً ... وكان في غاية الرقة واللطف ، ووعدنا بزيارة المعرض مع بعض الذواقة !

ــ وهل جاء ؟

ــ لا . لقيناه بعد ذلك مصادفة في مطار جنيف واعتذر لعدم حضور معرضنا لانشغاله بأمور سياسية .

ديون المهرجان والرحلة

عام ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ شهدت راشانا نشاطاً فنياً مذهلاً فيه من الخصوبة والتنوع أكثر مما في مهرجانات بعلبك اذا اخذنا بعين الاعتبار ان مهرجانات راشانا لم تلق أية مساعدة من الدولة وقامت على أكتاف ميشيل وألفرد وبعض عشاق الفن المتحمسين . وفي الساحة الكبيرة المحاطة بالتماثيل الشبيهة بمعبد اغريقي جاءت بعض الفرق الأجنبية المسرحية والفنية ، كما قدموا يومها حركة المسرح اللبناني في أولى شرارتها والتهابها (لطيفة وانطوان ملتقى وفرقتهما) ...

ــ نتيجة المهرجانات مادياً ؟

ــ خسارة وديون ٣٠ الف ليرة دفعناها من جيوبنا ...

وأسأل ميشيل : معرضك في باريس صيف ١٩٧١ (ايار ــ حزيران) ماذا كانت نتائجه العملية على صعيد اوروبا ؟ ...

ــ صحف الغرب تحدثت عني وعن لبنان . متحف رودان اشترى منحوتاتي وهي اليوم تعرض إلى جانب منحوتات فناني العالم . متحف الفن الحديث في باريس ايضاً اقتنى أعمالي لعرضها ...

ــ مذهل . وكم ربحت ؟

ــ ما زلت حتى اليوم أسدد ديون الرحلة !

— لماذا الديون ؟ ألم يتم المعرض بناء على تنظيم رسمي من قبل الدولة اللبنانية ؟ ..

— بل تم عبر علاقتنا الشخصية واتفاقنا المباشر مع وزير ديغولي اسمه ايفون موروندا ... بمساعدة جيرار خوري بالتعاون مع مديرية السياحة الفرنسية ...

— ومديرية السياحة اللبنانية ؟

— شجعتنا ! . (ربما دعت لهم بالتوفيق ايضاً ... وشكرتهم لانهم رفعوا رأس لبنان) .. المهم ، دفع الاخوة بصبوص مبلغ ٢٥ الف ليرة مساهمة منهم في اقامة المعرض ! . وما زالوا حتى اليوم يدفعون بالتقسيط عقاباً لهم لانهم تجرأوا وتصرفوا كفنانين في بلد كان يسمي نفسه (بلد الاشعاع) ...

— هل امامكم ديون متوقعة ... اعني ما هي مشاريعكم ؟ وهل لديكم (دعوات) جديدة ؟ ...

يقول ميشيل : غداً اغادر لبنان في رحلة إلى اميركا ، وبعدها إلى اليابان يرافقني معرض جوال (لا للبيع وانما للعرض) يدوم مدة عامين ...(وتذكرت بأسف ما همسته في أذني صديقتي الثرثارة عن بعض سفاراتنا اللبنانية التي (تملكت) بعض تماثيل البصابصة دون أن تدفع لهم ثمنها مكتفية بمنحهم شرف استحواذها عليها ! ... بل وانهم يدفعون اجرة شحن تماثيلهم لدى عودتها من المعارض !) .

الفن وحده يبقى

رغم وعي ميشيل وألفرد بصبوص (وموافقة شقيقهم الأصغر الصامت على كل ما يقولان بهز رأسه) بأهمية الفن وقيمته ، فان حديثهم لا يحمل اية شكوى أو احتجاج ... انه مجرد تقرير وقائع لا أكثر ، واجابة على اسئلة مباشرة ، بأجوبة صادقة ومباشرة . انهم لا يحتجون على شيء ، ولكنهم ايضاً يعرفون جيداً ان الفنان هو الذي يجسد عطاء امته عبر التاريخ وعبره يكون خلودها ..

يقول ميشيل بحرارة (الفن هو الذي يمثل الحضارة الإنسانية على مر العصور . البرابرة وحدهم لا يعون هذه الحقيقة ولذا يدمرون حضارة البلاد التي يفتحونها .. نابليون زود حملته إلى مصر بكبار علماء الآثار وعبر أحجارها ومنحوتاتها وأنصابها استطاعت مصر الفرعونية ان تكشف للعالم بعد آلاف السنين عن وجهها الحضاري وعظمتها) ..

وأعمال ميشيل وألفرد بصبوص التي يقتنيها ١٢ متحفاً من متاحف العالم المتحضر

لم تعد بحاجة إلى شهادة فنية ... في كتالوج متحف (رودان) نجد اعمالهما إلى جانب اعمال هنري مور (أشهر نحات بريطاني معاصـــر) وزادكين (استاذه) وستالي وكولاماريني وسيزار وادان وماكس بيل وجياكوميتي ... وشهرتهم العالمية وصلت إلى موسكو وإلى متاحفها ... واندريه مالرو ادهشه المستوى الفني اللبناني عبر منحوتاتهما في متحف الفن الحديث بباريس .. والتلفزيون الياباني كان في راشانا منذ أيام يصور روائعها تمهيداً لمعرضهم هناك ... و ٣٥٠ الف زائر مر براشانا — فقط في السنوات الثمانية الماضية — وتركوا اسماءهم في سجلها التذكاري .

الرفيقة الثرثارة همست بأذني : المجلس السياحي عندنا ساهم بمبلغ زهيد ! وها هي التماثيل كما ترين في الصناديق لم تشحن بعد لانهم لم يدبروا اجرها قبل اليوم ! ...

على أية حال ، رغم المصاعب كلها .

(البصابصة) لا يحتجون . لا يطالبون بشيء . انهم غارقون في عملهم ...

أنا أحتـــجّ !

أرى في متاعب اولئك المبدعين جزءاً من مأساة الفنان العربي المعاصر في علاقته مع بعض الانظمة العربية .. (عدا عن الازمة الاساسية) وهي ازمة الحرية في أكثر البلدان العربية . فعبر البصابصة نرى ايضاً افتقار الحكم إلى نظرة سليمة للفن ولقيمته ولمدلوله .. والافتقار إلى التخطيط الواعي للنتاج الفني ومستقبله ووظيفته الانسانية والحضارية وحتى السياحية والمادية .

اليكم هذا المثال روته لي الصديقة الثرثارة :

الفنان اللبناني المعروف جان خليفة قبل دعوة لعرض نتاجه في بريطانيا. واقام هناك عدة اسابيع ، ورسم بعض اللوحات الجديدة التي ألهمته اياها لندن . وعاد إلى بلاده لبنان حيث أوقفه رجال الجمارك وطلبوا منه ان يدفع (ضريبة) على اللوحات التي عاد بها ، فقد خرج بعشر لوحات وعاد بعشرين مثلاً . وعبثاً حاول اقناعهم بأنه فنان لا مهرب حشيش وان اللوحات التي رسمها هناك هي امتداد لانفعالاته وأصابعه وخياله وانها من بعضه والانسان لا يدفع ضريبة على اعضائه أو جسده أو خياله أو إبداعه حينما يتجسد على قماش بالالوان . وعبثاً احتج . ودفع ضريبة لوحاته !! .. هذه الحادثة لا تحمل أية رغبة مبطنة باضطهاد الفنان وانما هي تعبر ببساطة عن الرؤيا الخاطئة الرسمية للفن في بلادنا . والامثلة كثيرة ... وسأكتفي اليوم بهذا المقدار .

المنحوتة السرية

أيها الوطن المغترب عن الفنان ..

اقف في هذه اللحظة في ساحة آل بصبوص الخرافية المزروعة بالتماثيل المسحورة المجاورة للكنيسة التي عمروها هم أيضاً .. أتأمل (البصابصة) يقفزون تحت الشمس والزميل حسن حوماني يصورهم .. يضحكون ويركضون ببراءة جندب الحقول .. هنا أيضاً صورهم منذ ايام التلفزيون الياباني .. وهنا صورتهم كبيرات الصحف العالمية .. وغداً يرحل ميشيل .. يزرع الارزة اللبنانية في بلدان نائية .. ويوم يعود لن يجد في المطار إنساناً واحداً يستقبله .. وسيقال له بعد العودة (رفعت رأس لبنان) وسيقضي بقية عمره يدفع ديونه اقساطاً .. ويوم يموت يقام له حفل تأبين (عظيم) ويلقي الخطباء (العظماء) خطباً (عظيمة) ويسدل الستار على المأساة بعد ان تلتقط لهم الصور التذكارية وتنشر الصحف نصوص خطبهم الهامة .. افكر بذلك كله بحزن ، ويدي تتحسس احد انصاب ميشيل بصبوص التي تشبه الصخور حيث تنقش الشعوب تاريخها ، واناملي تتحسس اخاديد لغته السرية وهيروغليفية الخاصة في الحجر .. كأنها أغاني الريح في أنامله التي سطرتها وحشية تعاقب الاحداث على هــذه الرقعة من الارض وابنائها .. وحكاية الناس هنا مع التاريخ ، مع الارض ، ومع السماء .. مع البارحة ومع الغد ومع الانتظار .. حكاية هذا الشعب عبر رؤى بصبوص .. وعدت اتأمل النصب بلغته السرية .. لاحظت سطراً فارغاً في اسفله .. تركه ميشيل بصبوص فارغاً ربما ليسطر عليه ذات يوم الجملة الاخيرة ..

لو كنت أعرف النحت ، لسطرت في ذلك السطر الفارغ حكاية عار وطننا مع الفنان المعاصر ..

ولكن....



عين غ تتفرس

في

الجريمة

« الفاقة أمّ الجريمة »

— ماركوز اوريليوس —

« فهم الجريمة يبدأ بفهم الانسان ..
لذاته »

— هنري ميللر —

« كلنا مجرم . الفارق بين جرائمنا كميّ
لا نوعي . الجريمة كالفن ولذا فالفنان
يفهم المجرم — إذ أن كلاً منهما يخشى
من افتضاح أمره ! »

— ريتشارد ليندر —

١٩٦٨/٣/٨

الرجل فيها قتل المرأة فيه !

امرأة . رجل . بندقية . فراش . أربعة اطفال .

الغرفة شبه معتمة . مطر . مطر . مطر خلف النافذة . مطر يأكل السطوح وأزقة القرية الصغيرة « مجدليون » بينما الناس نيام . كل شيء نائم إلا العاصفة ، والمرأة .

المرأة وحدها لم تنم . البندقية والرجل والاطفال نيام . الرجل صياد محترف يكوم أجساد العصافير في الحقول . المرأة الليلة سوف تصطاد .

عيناها بركتان من دم في حالة الغليان ... لا تسمع صوت العاصفة . لا تسمع أنفاس أطفالها النيام . في رأسها يهدر صوته : سأقتلك .. سأقتلكم جميعاً ...

ببطء ورشاقة فهد يتحفز للقفز من أعلى الشجرة على عدوه ، انتصبت في الفراش جالسة وقد حبست أنفاسها ...

ظل كل شيء يغط في النوم .

امتدت يدها إلى اسفل الفراش ، حيث البندقية المحشوة . يد مرتعدة ومتشنجة ، وفي أصابعها إصرار وشراسة أذرع أخطبوط . تمطر بوحشية خلف النافذة . تمطر دماً في حلقها ، وبوحشية ... رأسها كرة من الدم في حالة الغليان . وعيناها ، ويدها تقبض على زناد البندقية . تشد البندقية ببطء . الرجل غارق في النوم ويداه فوق صدره. يداه خشنتان ومشققتان ، يدا عامل بناء . ويدها ايضاً التي تشد على زناد البندقية خشنة ومشققة ولم تقبض قط على قلم أو ورق ...

فوهة البندقية تتسلل إلى أذن الرجل . ضوء (النواصة) الخافت يرتعد رعباً . العاصفة خلف النافذة تشهق ، تصرخ ، تقرع نوافذ النائمين ، تقرع أبواب أهل القرية ... لا أحد يسمع .. لا أحد يسمع الطلقة التي انفجرت داخل رأس الرجل ومزقت كل شيء ...

حتى هي لم تسمع الطلقة ... حتى اطفالهما النائمون في الغرفة نفسها لم يسمعوا شيئاً . وهي أيضاً . داخل رأسها انحسر الدم فجأة وهرب ، ونبت صقيع عجيب من الذهول والدهشة ...

ماذا حدث ؟ ...

نظرت إلى يديها . رأت البندقية . نهضت ببساطة وعلقتها في موضعها على الجدار.

هي واثقة من انها لم تسمع صوت الطلقة . ولكنها تسمع هدير الدم الذي يتدفق من ثقب في رأس زوجها ... إذن مات . إذن قتلته . كان لا مفر من أن يموت احدهما..

وتقدمت من الاطفال توقظهم ...

انهضي يا وداد .. يا ميراي .. يا جان .. يا اندرية ... نهضوا قبيلة من البؤس الطفولي المفجع .. كلهم تحت سن العاشرة ...

فتحوا في وجهها عيونهم الطفلة . عوالم من البراءة الحائرة ... خرجت من الدار وجرتهم خلفها تحت المطر إلى الشارع المقفر ... كانت واثقة من أن جدران البيت سوف تسقط فوقها ..

ساروا معها بصمت شبه نائمين . سألها جان : أين بابا ؟ ...

لم تجب . كانت تعرف إنه سيسأل بعد ساعات عن أمه أيضاً ... عنها ..

انحدرت في الطريق المقفرة . ساروا طويلاً . واخيراً توقفت أمام احد الابواب. وبدأت تقرعه بشدة . نور الشارع الخافت كان يمتزج بالمطر ويسقط فوق لوحة معلقة على الباب : حبيب نصار ...

ونهض حبيب نصار مذعوراً .

بهدوء عجيب ، بعينين يغلقهما صقيع التحدي همست : قتلت زوجي!! ... واريد ان تقلني بسيارتك ... لعند المطران ...

امرأة تقتل دفاعاً عن شرف (الدار) ! ...

لا . هذه السطور ليست فصلاً من رواية طويلة أكتبها . وليست بداية قصة قصيرة تفجرت أحداثها داخل مخيلتي ... وليست مشهداً من فيلم تلفزيوني أو سينمائي من مسلسلات الجرائم التي تغرق شاشاتنا ...

انها بعض من حكاية الجريمة التي هزت جنوب لبنان كما روتها لي بطلتها نجلا توفيق نصار ، التي قتلت زوجها أ . ص .

كانت المرة الاولى التي اجلس فيها إلى امرأة من لحم ودم قتلت زوجها (عملياً)..

قبل ذلك عشت طويلاً مع عشرات القاتلات في الكتب وعلى المسارح . ولكنها المرة الاولى التي ألتقي فيها بانسانة شدت منذ ايام على الزناد بينما فوهة البندقية داخل أذن زوجها .

ثم اننا اعتدنا على سماع انباء جرائم من نوع آخر ...

رجال يقتلون اخواتهم أو نساءهم باسم الشرف .. باسم الكرامة ...

وهذه من المرات النادرة التي تقتل فيها امرأة رجلها من اجل شرف من نوع آخر ...

من اجل شرف الاسرة وشرف العمل ، من اجل كرامتها ...

انا ضد القتل . ضد الشكل الذي اتخذه دفاع هذه المرأة عن كرامة دارها ... ولكنها ظاهرة تستحق الدراسة ... جديدة ومذهلة ..

جفت الدموع

وانا اخطو عبر باحة (سجن صيدا) في طريقي إلى مقابلتها احسست بأنني في مستشفى .. خلف كل نافذة مكسوة بالقضبان جرح ينزف ... ومأساة لإنسان كان يمكن أن يكون بكل بساطة أنت أو أنا ... (وفاحت داخل رأسي رائحة المستشفيات الرمادية الحزينة . شممتها فعلا !) ... رحب بي الحراس (اذن هنالك من يقرأ نزفنا على الورق ويعايشه بصمت) صافحني الرقيب المسؤول (من يدري . ربما في المرة القادمة تعمّ وجوههم المرحبة بي وتدفعني أيديهم بقسوة إلى الداخل) ...

نجلا توفيق نصار (٣٠ سنة) تتقدم مني إلى غرفة المقابلة بوجه صلب وعنيد التحدي قائلة : نعم . انا قتلت زوجي . واجهت الكاميرا باللامبالاة نفسها ... بالوجه الصخري الجامد نفسه .. وبدأت اتساءل هل أنا أمام ظاهرة في عالم الجريمة ... بلا قلب .. ولكن حينما بدأت المرأة تتحدث بدأ الجليد يذوب والملامح ترتعد ، ترتعش ، وداهم زلزال العواطف وجه المرأة الذي كان صخرياً ، وتعلقت داخل عينيها دموع لا تهطل على وجهها ... ذلك البكاء الصامت الانساني يذهلني دائماً ، حينما تنحدر الدموع إلى الداخل، وتظل العيون مبتلة بلا انتحاب ... بلا استدرار للشفقة .. بعزلة لا مبالية توحي بأنه لا أحد يملك لها شيئاً ...

ــ نعم قتلته . الله يعرف كم قاسيت وسيغفر لي ...

ــ هل انت متدينة ؟

ـ نعم .

ـ والجريمة ؟ وهل اتجهت نحو المطران بعد الجريمة لتعترفي ؟ .. وليغفر ؟ ..

ـ لا أدري كيف حدث ذلك ... لا أدري ...

ـ وألصقت فوهة البندقية بأذنه ، وأطلقتها عليه ؟ ..

ـ لا أدري كيف حدث ذلك ... لا أدري ... كنت خائفة .. كان عاطلاً عن العمل ، يهددني بالقتل باستمرار .. يهددني بقتل اطفالنا باستمرار ... يذلني ... كنت أعمل خادمة في البيوت ... خادمة في بيت السيدة (بديعة . ج) ... وفي بيت جورج م) وبيت ن . ش . وبيت ف . د ... وكان يريدني في بيتنا خادمة أيضاً ... يقضي أيامه في الصيد بلا عمل ، ويعود ببندقيته وبجثث عصافيره مهدداً بصيدي ... وصيد اطفالنا ...

ـ حدثيني عن ليلة الجريمة ...

ـ وكان يقسو في معاملتي ... هددني مرة بالقتل وهاجمني ولكن شقيقه رده عني ...

ـ حدثيني عن ليلة الجريمة ...

ـ وهددني ثانية بالقتل وشكوته إلى المختار فهد . الذي نصحه وتحدث اليه ...

ـ حدثيني عن ليلة الجريمة ...

ـ وشكوته إلى (التحرية) ...وشكوته إلى المطران ...

ـ حدثيني عن ليلة الجريمة .

وصمتت . كان واضحاً ان الحديث عن تلك الليلة يوجعها ... كنت اعرف انني ساغرس قلمي داخل جرحها لأعرف ... وان لا مفر من القسوة ... وكان (لاوعيها) يسترسل في أي حديث تفصيلي جانبي عدا ليلة الجريمة ..

ليلة الجريمة ... (صار صوتها يشبه صوت عرافة تتأمل كرتها البلورية وترى الأحداث من جديد داخلها .. المطر ... وتلك الليلة الحزينة) ...

تلك الليلة .. جاء كعادته يشتم ويتوعد مصراً على ان أترك العمل ، ويتوعد السيدة بديعة . ج. عدت معه إلى البيت وسط الشتائم والضرب . كان يجرني من شعري بعد يومي الشاق الطويل . هددني بالخنجر . ثم ، أمرني بأن أعد له العشاء وكأس عرق . شرب كأسين ، وأكل خساً . طلب مني تفاحة . قلت له لم يبق لدينا تفاح . شتم وتوعد (لياتها لم تطعم حواء آدم التفاحة . لم يبق تفاح . أطعمته رصاصة) .. وقام إلى

بندقيته . حشاها بالرصاص . تمدد في الفراش دون أن يخلع ثيابه وجرني من شعري معه ، وتحت قدميه كانت البندقية ترقد . قال سأقتل مخدومتك ثم سأقتلك انت والاولاد الليلة . عيناه في تلك الليلة كانتا مرعبتين .

لم أرهما قط هكذا ... كانتا نافرتين وبياضهما احمر .

أحسست ان شيئاً غير عادي سيقع الليلة .. سيقع حتماً ... تمددت إلى جانبه بصمت والرعب يمزقني . سعل أحد الأولاد . حاولت أن أنهض لأغطيه . نهرني وشدني إلى الفراش . انتظمت انفاسه ولكنها كانت عالية .. كان شهيقه وزفيره يرعبني ... لا أدري كم من الوقت مر ، نعم ، الاضواء كانت مطفأة . (النواصة) الصغيرة الحمراء كانت وحدها تضيء على وجهه . لا أدري اذا كان نائماً أو لا ولكنني ظللت أرى عينيه ، نافرتين وبياضهما أحمر ... وانتصبت في الفراش جالسة . لم يتحرك . حملت البندقية بهدوء ووضعت فوهتها في اذنه . لم يتحرك . شددت على الزناد . لم يتحرك . لم أسمع صوت الطلقة . سمعت صوت الدم . وغادرت البيت لانني أحسست أن الجدران (ستقع فوقي) . لا . لم أسمع صوت الطلقة . لم يسمعها أحد ، ولكن الجدران كانت فعلاً تقترب مني لتطبق علي .. أيقظت الاولاد وخرجت بهم من الدار .

في عوالم بيرانديللو

الحقيقة امرأة عجيبة لها أكثر من وجه . كلما ازداد الانسان اقتراباً منها وإمعاناً في النظر اليها كلما اكتشف انه لا يعرف شيئاً .

لقد غادرت هذه المرأة القاتلة وكلي ثقة من أن خيوط المأساة صارت واضحة لعيني ... امرأة قتلت زوجها العاطل عن العمل انتقاماً لكرامتها المهدورة طيلة عشرة اعوام ... ولكنني حينما ذهبت لأزور اهل القتيل واستمع اليهم وإلى اطفاله فوجئت بالحكاية نفسها تُروى من زاوية اخرى ... بالحماس نفسه والمرارة نفسها ، وكل ما فيها يناقض رواية المرأة !

شعرت بأنني أشهد مسرحية من مسرحيات بيرانديللو .. شيء يشبه رائعته (لكل حقيقته) .. مسرحية تتضمن عناصر المسرح كلها مع فارق واحد .. هو ان على المتفرج أن يركض خلف فصولها من مكان إلى آخر بدلاً من أن تُقدم اليه في مكان واحد بعد اسدال الستارة ورفعها ..

والدا القتيل وبركة الدم

غرفة متوسطة الأثاث في قرية مجدليون تزين جدارها صورة كبيرة باسمة لأحد السياسيين . الوالد والوالدة استقبلاني بجفاوة أهل القرى اللبنانية رغم حزنهما الشديد . تشاجرا في البداية ، كل منهما يريد أن يروي لي الحكاية . وطبعاً انتصر الزوج والد القتيل وصمتت زوجته . وبكل ما في الاب من لوعة كان يدافع عن ولده ويرد التهم : لا. ليس صحيحاً انه كان عاطلاً عن العمل . كان يعمل احياناً ولكنه يكفيها . نعم . كان يحب الصيد ، وماذا في الصيد ؟ أجل لدى أولادي أسلحة صيد . نعم . يتشاجران . جميع الأزواج يتشاجرون . انا وزوجتي تشاجرنا قبل لحظات . ماذا في ذلك ؟ ثم ، هل من المفروض أن تقتل المرأة زوجها إذا كانت تعيسة في زواجها ؟ .. وجرتني الام من يدي بشراسة طير مذبوح وقالت : « تعالوا انظروا إلى بيتهم الصغير الحلو .. ما فتحنا الباب منذ ليلة الجريمة . تعالوا . لا يريدها أن تشتغل.. عندهم براد وتلفزيون».

وخرجت معها إلى بيت مجاور وحبست أنفاسي بينما كانت اصابعها تعالج باب الدار المقفل . احسست بأن اشباحاً سوف تنقض من الداخل .. ربما سيخرج القتيل والدم ما زال ينزف من ثقب في رأسه وينظر إلينا بسخرية ويسير في شوارع القرية ... وفُتح الباب .. وتقدمت أمه معولة : هنا قَتَلَتْهُ ..

ورأيت الدم يغطي الفراش عند موضع الرأس .. وبقايا الخس الذي أكله ليلة الجريمة .. وكأس العرق الذي لما يتمه ... قالت الام : ليلة الجريمة انا دخات وزرتهم وكان يلقمها الطعام بيده ! كانوا ليلتها مثل السمن والعسل ...

أين الحقيقة ؟ أية مهزلة ! ... وخرجت ضائعة ، وكلمات الأب تمزق عيني : كان ابناً جيداً .. لقد أحبها وأحبته .. لقد تزوجا (خطيفة) .. نعم . لدي ثمانية أولاد شباب . صاروا الان سبعة . جميعهم يعملون في مهنة العمار ويعرفون القراءة والكتابة فقط ... وأنا أيضاً ... والله كافينا ..

إلى المطران

المطران باسيليوس . خ مطران الكاثوليك ليس لديه ما يقوله حول الجريمة . في الدين لا شيء يبرر القتل ، والروح ملك الله وحده . نعم يعرفها ويعرف زوجها ... كانت تذهب اليه وتطلب النقود منه وعلى يدها احد اطفالها رضيعاً أو مريضاً ..

وزوجها أيضاً ... كان يطلب النقود منه احياناً ! ! ... وكان يتصدق عليهما .. هذا كل ما يعرفه ؟ ! ..

الآخرون ... والقانون

الآخرون (الذين لا يهمني كثيراً رأيهم عادة) أجمعوا على ان الزوجة كانت مسكينة وبائسة ... وان الزوج كان شبه عاطل عن العمل وشرس المعاملة ... ما الحقيقة ؟ الحقيقة تظل تلك المرأة الغامضة المراوغة ... لا أحد يعرف ... ولا يمكن لأحد أن يتأكد ...

القانون ، ماذا يقول ؟

اترك الرأي الآن (لشيخ الجزاء) كما يلقبونه في صيدا المحامي عبدالله بيضاوي .

المهم في القضية ، يقول المحامي ، هو تحديد ما اذا كان القتل من قبيل القتل العمدي المصحوب بسابق التصور والتصميم أو انه من قبيل القتل القصدي الذي لم يسبقه أي تصور وتصميم ؟ وهذا ما يترك تقديره للقضاء الذي يتمتع بسلطة تقدير مطلقة على ضوء ظروف وملابسات القضية .

هذا من وجهة ومن وجهة ثانية فانه يقتضي معرفة ما اذا كان هناك اعذار محلة أو مخففة . وفي حال انتفائها ما اذا كان هناك على الاقل اسباب تخفيفية ؟ .

وكل هذه النقاط يقدرها قاضي الموضوع .

هل لهذا الحادث سابقة ؟

يقول : (نادراً جداً .. ولكن .. حدث منذ خمسة عشر عاماً ان ترافعت في قضية مشابهة أمام القاضي نبيه . ب وكان يومها رئيساً لمحكمة الجنايات .. وكان النائب العام الاستاذ عادل . ت . د .. المتهمة كانت زوجة متعلمة ومثقفة ولكنها قتلت زوجها ... وقد اخذت يومها المحكمة بالاسباب التخفيفية ، وبعد مرافعة دامت ساعات حكم عليها بالسجن ستة اعوام فقط !)

الجهل . الجهل . الجهل .

بعيداً عن مشهد المرأة البائسة . بعيداً عن صرخاتها الملتاعة (كنت حلوة يوم تزوجنا . انظري كيف صيرّني الهم) ... بعيداً عن صرخات الاب (لما كان يغضب منها كنت أنا أدافع عنها ... كل الازواج كلهم يتشاجرون).. بعيداً عن انتحاب

الام (يا ولدي .. يا حبيبي .. كان ليلتها يطعمها بيده ..) . بعيداً عن وجه المطران الهادىء (كان الاثنان يتدينوا مني) . بعيداً عن همسات أهل القرية المنقسمين بين (مسكين .. كيف قتلته) و (رجال مثله يدللون نساءهم يستحقون القتل) ... بعيداً عن الاطفال الاربعة الذين يبتسمون للكاميرا بذهول ويلعبون في الشارع .. بعيداً عن الدم الذي ما يزال حاراً على الفراش وفي (الطناجر) وكأس العرق الاخير ... بعيداً عن هذا كله أعود لأرى الاشياء .

امرأة أمية تماماً من وسط جاهل . رجل شبه أمي . يعيشان في بيت صغير يخص والد الزوج ، وضع يمثل تقريباً نصف أسر أمتنا ..

بطالة الزوج وعزوفه عن العمل واستدانته (بشهادة المطران) هي السبب الاساسي للجريمة ... بطالة الزوج وجهل الزوجة .. وهنالك المسؤول الاساسي الآخر : مجتمعنا

في انكلترا مثلا ، البطالة جريمة يعاقب القانون عليها . كل عاطل عن العمل تقدم شكوى ضده ، يعاقب بالسجن لانه لم يتقدم إلى السلطات طالباً إيجاد عمل له . البطالة لدينا ترف تعيشه إحدى الطبقات ويشتهيه أفراد الشعب الآخرون .. ويقلدونها ..

والجمعيات النسائية على وفرة حفلاتها تعيش في واد ، وأمثال هذه المرأة في واد آخر ...

إنها صريعة جهلها ، وانحراف طاقتها الخائفة الحاقدة إلى القتل ...

وهو صريع انعدام التوجيه ... وفقدان العلاقة بين الشعب والسلطات حيث يقتصر احتكاكهما على حالات (المرض) أي الجريمة ، بدلا من ان يكون متوفراً في مرحلة (الوقاية) أي إزالة أسباب الجريمة ..

الجريمة العربية اجتماعية لا حضارية

تثبت الاحصاءات ان الجرائم في البلاد العربية هي٩٩٪ نتيجة لأمراض وعوامل اجتماعية أهمها الفقر والجهل .. وان بلادنا تكاد تخلو إلا فيما ندر من جرائم الشذوذ المجنونة التي تحدث في الغرب والتي يصاب بها الافراد هناك بسبب تعقد الحضارة الغربية وانسحاق الانسان في تيار التطور الآلي المسعور ...

وهكذا فان الترهيب وإعادة قانون اعدام القاتل، وبعبارة اخرى «قانون العقوبات» لا يستطيع وحده أن يمنع الجريمة في بلادنا ...

أكثر القتلة في بلادنا مقتولون . قتلهم الجهل. والفقر . وانعدام التوجيه. واللاعدالة الاجتماعية ...

المرأة العاملة تصرخ : لا

لهذه الجريمة بالذات في نظري مدلول اجتماعي خطير . هذه المرأة القاتلة كانت كما تقول رجل البيت ... كانت تعمل ، وتنفق على زوجها وعلى أولادها .

وزوجها كان امرأة البيت . ينفق . ويسكر .

اذن ، حتى في هذه الجريمة لم تقتل (المرأة) (الرجل) .. وانما قتل (الرجل) (المرأة) ...

الرجل في شخص (الزوجة) هو الذي قتل المرأة في شخص (الزوج) .

ولكن يظل السؤال الحائر نفسه : لماذا ؟ .. ما هو السبب الحقيقي الخفي للقتل ؟ ما هو السبب الدفين داخل أعماق لاوعيها . حيث تتفاعل الأحاسيس الانسانية وعناصرها المظلمة بعيداً عن قدرة الشخص نفسه على الإدراك ، وبعيداً عن قدرتنا على التحليل والشرح ؟ ..

هل هو تحول خطير ونهائي لا بد وان يصيب شخصية المرأة العربية لدى تحولها من عنصر مستهلك إلى عنصر منتج كالرجل ... وبالتالي إلى فرد يمارس احاسيس الرجل وردود فعله بكل ما فيها ... حتى بالجريمة ؟ ..

أم ان هنالك سراً آخر اقل تعقيداً وأكثر قدماً ؟ . وهل كان حوارهما حول التفاحة ليلة القتل مجرد صدفة ، أم ان القدر كان يضع على لسانهما ذلك الحوار المعبر الساخر ..

(– أريد تفاحة .

– لم يبق عندي تفاح . انتهى زمن التفاح !)وقتلته ...

في الحقيقة ، وددت كثيراً أن أسألها شيئاً عن علاقتهما كرجل وامرأة منذ بدأ زواجهما بانجراف وانجذاب جنسي (ما داما قد تزوجا خطيفة كما يقول أهل الزوج). حتى انتهى بتحول المرأة إلى رجل البيت (كما تقول هي) ...

وددت كثيراً أن أسألها عن ذلك الخيط الغامض الذي يشد المرأة والرجل بطريقة غير عادية .. ذلك الخيط المميت الذي يصعق أحياناً ويدمر ...

لكنني لم أفعل ...

فقد لاحظت انها ، دون أي سؤال مني ، دون أي اتهام ، كانت تحاول ان تؤكد انها (امرأة مسكينة وشريفة وتقضي نهارها في العمل وسمعتها نقية ولا تشوبها شائبة) ، (كان يطلب مني ان استدين له المال من اصدقائه) ..

ولاحظت أيضاً أن أهل الزوج كانوا يلحون على حقيقة أخرى (زوجها لم يكن يريد أن تخرج من البيت للشغل . يريد ان تهتم بأولادها وتبقى في البيت . في البيت).. .

خيل الي ّ ان هنالك شبه سر مشترك يتكتم الجميع عليه في لاوعيهم ...
والحقيقة ؟ ...

يقول بيرانديللو (ليست هنالك حقيقة .. لكل حقيقته) ...

وتظل الشمس تشرق

رغم الوحل في الوجوه ، والعيون ، والأسرار ، ويومي الطويل في مستنقعات النفس البشرية ، استطعت ان ارى بوضوح وانا أعود من سجن صيدا شجرة أدركها الربيع الجديد ، وتفجرت مهرجاناً من الزهور البيض الجميلة ...

ولا أدري لماذا تذكرت الاطفال الاربعة الذين خلفتهم الجريمة ، فريسة جديدة لجيل آخر قد يكون من التعساء ..

الا اذا تم انقاذهم من الجهل والبطالة ... السلاحان لكل جريمة في بلادنا العربية .

١١ / ٢ / ١٩٧٤

جريمة الوز المر (١)

في بيروت مع القاتل : جلاد أم الضحية ؟

كثيرة هي رسائل القراء التي أتلقاها كل اسبوع ، ولكن الرسالة التي وصلتني ذلك الصباح كانت بلا ريب أغرب رسالة استلمتها في حياتي ! كانت رسالة من رجل ميت ، أودع رسالته الي في البريد ، وانتحر بعد أن خلف جثة رجل آخر قتله في فندق ... وبين عملية القتل والانتحار كتب إليّ !

لقد كتب إليّ الكثيرون من السجون ، من الحانات ، من الطائرات ، من الكهوف والمقابر والقصور والجامعات والثلوج والخيام ، ولكنها أول رسالة أتلقاها من إنسان هو الآن في العالم الآخر ... الذين يكتبون إليّ كلهم ينتظرون مني أن أجيب على رسائلهم ، إلا صاحب هذه الرسالة ، فلا عنوان له ولا هو ينتظر مني رداً ... فهو الآن في العالم الآخر .

ولابدأ بالقصة منذ لحظة استلامي تلك الرسالة العجيبة .

فنجان قهوة . مقعد تحت الشمس . وجوه زملائي الاليفة . هكذا بدأت ذلك الصباح المشرق في مكتبي بالمجلة . زينة ، سكرتيرة رئيس التحرير ، تناولني رسائل القراء إليّ . لفت نظرها طابع على إحدى الرسائل وطلبته مني ، فانتزعته لها قبل أن أفتح مظروف الرسالة ، وأنا لا أدري انني بذلك أتلف أحد الادلة الجنائية ، وان هذه الرسالة كتبها إنسان بعد ان ارتكب جريمة قتل بساعات ، وقبل ان ينتحر بساعات !..

رسالة كالرسائل كلها ، لا بل هي « أكثر سماكة » قليلاً من العادة . قلت لنفسي : ربما كانت تضم قصة قصيرة يود صاحبها أن أتوسط لنشرها ... ولم أكن أدري أن في الرسالة قصة حياة ، قصة عنف وجريمة ، قصة بوليسية ، وواقعية ايضاً ، الدم فيها حقيقي لطّخ الجدران ، والجثث حقيقية وجدت في فندقي « هوليداي إن » و « كومودور » في بيروت وتحدثت عنها الصحافة منذ اسبوعين تقريباً .

تاريخ كتابة الرسالة هو ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ ، ولكنها لم تصل اليّ إلا بعد ذلك بأسبوعين ، ولا أعتقد أن البريد وحده مسؤول عن هذا التأخر . فقد غبت عن المجلة حوالي الاسبوع تراكمت خلاله الرسائل وقبعت في انتظاري ، وبينها هذه الرسالة .

قبل ان اقرأ الرسالة لفت نظري خطها المشوش صعب القراءة ، وحبرها الأسود مثل دم جاف .

وبدت لي كلماتها المتآكلة الحروف ، الزائغة ،مثل آثار خطى إنسان غاص في ظهره خنجر ولما يسقط بعد ...

وبدأت اقرأ الرسالة وانا خالية الذهن من كل شيء . وهي تبدأ على النحو التالي : « انا الآن سعيد وسأموت سعيداً ولا يهمني ما قد يقوله الناس عني فقد اديت واجبي تجاه حقي الذي لم أحصله في حياتي وسيحصله غيري . أنا سعيد لان (ع . س) قد مات لأنه تسبب بعدم دفع حقوقي ، وكان هو الحجرة الكأداء في طريق الوصول إلى حل ، واني انذر أخاه (أ . س) ان يحول حقي الذي مجموعه ١٥٠٠٠٠ باوند زائد الفائدة إلى عائلتي وإلا فإنّ المستقبل يُبَيّتُ له مصيراً مثل مصير اخيه..انني اؤكّد هنا لمن يهمه الامر أن لا شريك لي في كل عمل قمت به فلا حاجة لجلب الناس والتحقيق معهم ... »

وتوقفت عن القراءة ، فأنا لم أفهم شيئاً ! .. خيل إليّ أن الرسالة وصلتني خطأ ، فعدت إلى مظروفها ، ولكن كان يحمل اسم « الاسبوع العربي » واسمي باصرار ، لأنها رسالة مسجلة تحمل الرقم البريدي ٦٧٨ مضمون . وقلبت المظروف لاقرأ اسم المرسل فلم أجد شيئاً . (عجبت لذلك فأنا أعرف ان الرسائل المسجلة يجب ان تحمل اسم المرسل كي تعاد اليه في حال عدم استلامها ، ولكن ... إلى أين تعاد رسالة هذا الرجل الميت ؟) ، وقفزت نظراتي بفضول إلى آخر الصفحات الست للرسالة ووجدت التوقيع، والاسم بخط واضح : مهدي اليعقوبي ... مهدي اليعقوبي !

ولكنني لا أعرف شخصاً بهذا الاسم . ولا أعرف أحداً يدعى (ع . س) . ولا اعرف أحداً من اجواء مافيا المال ورجال الاعمال واصحاب الفوائد التي تبلغ ١٥٠ الف استرليني ، وكل اصحابي من الشعراء والمشردين والفقراء الطيبين والسجناء والمجانين والرسامين الذين لا يحلمون حتى برسم هذا الرقم ، ناهيك عن امتلاكه !

وضجرت وكدت أرمي بالرسالة لو لم يمد فضولي اللعين برأسه من صدري ويتابع

القراءة بشراهة فائقة ... وسطراً بعد سطر تكشفت لي الحكاية ، وأسعفتني الذاكرة... اجل ، تذكرت حكاية رجل الاعمال الذي قُتل في فندق « هوليداي إن » ، وتذكرت انني قرأتها باهتمام خاص في صفحات الجرائد منذ حوالي اسبوعين ، فالفندق قريب من بيتي ، وقد شاهدته من شرفتي يُبنى حجراً بعد آخر مثل طفل ينمو ليصير عملاقاً مضيئاً ، ثم شاهدت الحريق يندلع فيه قبل افتتاحه بأسابيع وطائرات الهليكوبتر تساهم في إنقاذ العمال ، وها هي جريمة تقع فيه بعد افتتاحه بأسابيع ... قلت يومها لصديقتي : لو كنت اؤمن بالتشاؤم والتفاؤل لخفت مِنْ وعلى هذا الفندق الذي افتتح عهده بحريق وجريمة . وتذكرت أيضاً انني قرأت في الصحف عن رجل أعمال انتحر في بناية « كومودور » وقد خلف اعترافاً لرجال البوليس يقول فيه انه قتل رجل أعمال آخر واخفى جثته في فندق « هوليداي إن » ، وبالضبط في مقعد يطوى داخل الحائط ، وان رجال الأمن سارعوا إلى الغرفة المذكورة وما كادوا يفتحون المقعد حتى سقطت الجثة بين أيديهم . قلت لنفسي يومها : موجة الإجرام في هذا العالم لم تعد تطاق ... وصار على نزلاء الفنادق ان يفتشوا غرفهم قبل فتح الحقائب فقد تكون في الغرفة جثة منسية لنزيل سابق ! أجل تذكرت !

وعدت اقرأ الرسالة وقد أيقظني اسم الموت من روتيني الصغير وبهجتي الصباحية ، وأحسست بأن الموت قريب قريب يلصق وجهه بوجهي ويحدق في عيني ثم يقهقه ... وأحسست ان الشر ينمو تحت الشمس ويتكاثر ، وفارقني الحس بالأمان والغبطة الساذجة ، ورغم الشمس الشباطية الحارة بدأ الثلج يهطل داخل عظامي ، وأحسست ببرودة حقيقية تسري في أطرافي ، وحين نظرت إلى يدي المرتجفتين الممسكتين بالرسالة لاحظت ان اصابعي هي خمسة عيدان زرق مثلجة ! آه كيف يوقظنا الموت من تخديرنا اليومي ، ويرمي بنا في مواجهة حقائق الحياة المروعة : الألم ، العنف ، العذاب البشري !

أجل ، عدت اقرأ الرسالة وأنا أرتعد . انه لإحساس موجع أن يكتب اليَّ انسان محتضر لا أعرفه . ستقولون ولكنه مجرم وقاتل ورسالته اعتراف . أقول لكم انا لست محكمة لأدين احداً أو أبرىء احداً ، أنا كاتبة ، والكتاب كالكهنة ، يستمعون إلى اعترافات المحتضرين ، أياً كانوا ، وكالكهنة أكتم الاسرار ... والرسالة مليئة بالأسرار أو بالادعاءات ، لا أدري ! مليئة بالعذاب والقهر والحقد ، مليئة بمشاعر انسانية ارتسمت على الصفحات بعنف شرس حتى انني تساءلت : ترى هل كاتب هذه

الرسالة جلاد أم ضحية ، مجنون أم عبقري ، كاذب تسكنه عقدة الاضطهاد أو عقدة العظمة ، أم تراه مجرد انسان عذبه القدر وأمعن فيه تكسيراً ؟.

هل هو شخصية عادية حاقدة تألمت قليلاً وأجرمت كثيراً ، ام تراه كشخصيات مسرحيات شكسبير رجلا تعذب عذاباً جعله يحس انه مات (والفشل شكل من اشكال الموت) ، وما انتحاره سوى إعلان للدنيا عن حالة قائمة لديه منذ زمن بعيد ؟

رسالته مشوشة ، مضطربة الخط والاسلوب ، ولكنني لا اتوقع رسالة بالخط الرقعي أو الثلث من رجل قتل آخر قبل ساعات وربما دقائق (ربما عاد بعد ارتكاب جريمته ليخط هذه السطور فوراً ... فواضح في احد الامكنة انه توقف عن الكتابة قليلاً ، وعاد وذكر بعدها مباشرة انه كان يتحدث هاتفياً إلى شقيق القتيل في لندن ليهدده بالقتل إن لم يدفع) .

ولكن ما شأني وذلك كله ؟ كلهم لاأعرفهم ، وعلاقاتي مع رجال المال والأعمال شبه معدومة لاننا لا نتحدث لغة واحدة ، ولانني مثل شتاينبك أجد المال شريراً وقادراً على الاجرام ... (حتى اشعار آخر !) .

وأنا أقرأ رسالة القاتل المنتحر مهدي اليعقوبي واعترافه بقتل (ع . س) لا أدري لماذا احسست ان كلاهما ضحية وانهما قتيلان — لا قاتل ومقتول — وان الفاعل الحقيقي اسمه المال ... اجل القاتل اسمه الذهب ، وسلاح الجريمة دفتر الشيكات والكمبيالات . آه كيف تسودُّ الشمس حين يطفو الجشع فوق وجه الصباح ! وأرتعد... وأرتعد ... لماذا أنا ؟ لماذا بعث الي بهذه الرسالة وملأ غرفتي ، المسكونة بالأحلام والإفلاس السعيد ، بحكايا الثروة والقتل والموت والشراهة ؟

قايين لماذا قتلت أخاك هابيل ؟

في الرسالة اسماء شخصيات كثيرة لبنانية وعربية (نواب — وزراء — محامين — أثرياء) تتهمهم الرسالة بأمور كثيرة ... لا أعرف احداً منهم ولا شأن لي بذلك ... لماذا لا أحرق الرسالة واستريح ؟ لأنني كاتبة ، وطموحي الوحيد هو أن أكون حنجرة لمن سلخت حنجرته ، وصوتاً لمن استقرت رصاصة في حلقه . ويبدو أن كاتب الرسالة كان يعرف ذلك — أو يحدسه — حين اختار ان يبعث بها إلي . لقد عشت دائماً على حدود الزلزال من أجل ولائي الوحيد والعميق للحقيقة . وانا لا أدري مدى الصدق — أو الكذب — الذي تتضمنه هذه الرسالة ، ولكنني استطيع إيصال صوته للناس وإلى ممثلي العدالة (العدالة التي هي حلم كل فنان) ... ولكنني أيضاً لا أملك إلا أن أتساءل :

لماذا بعث بها الي ؟ تراه كان مطارداً حقاً ، كما يدّعي في رسالته ، وقد خاف أن يقوم الشخص الـــذي يضع يده عليها بإحراقها بعـــد وفاته . ؟ تراه فقد الثقة بكل شيء وبكل من حوله بعد ان غدر به الكثيرون من الاصدقاء كمـــا يقول ؟ ألا يفسر ذلك سبب هيجانه حتّى القتل والانتحار ، وحتّى السقوط في فخ الجنون المؤقت ؟

وإنني لا أستطيع أن أنسى أن هذا الرجل قد خلف رجلاً مقتولاً وراءه قبل ان يخط هذه السطور إليّ ، أي انه عملياً قاتل يعترف بجريمته ، ولكنني لا أملك الا التساؤل : هل القتل هو فقط أن تطلق رصاصة ؟ مهدي اليعقوبي ، هل تم اغتياله إنسانياً ومعنوياً ، فانتقم لمصرعه ، وانتحاره لم يكن الا تبليغاً لنا عن وضعه كميت سابق منتقم ؟ !

هل هو مجرم قتل حقاً بيديه ، أم قديس يتستر على جريمة اقترفها سواه ؟ لا أدري ! كل ما ادريه هو انني كنت أفكر منذ شهر بكتابة رواية بوليسية ، وها هي تجيء لعندي ، يركض أبطالها على طاولتي وبين أصابعي ، وترتمي الجثث فوق عنقي ثم يمطر السقف نقوداً نقوداً تغطي كل شيء وأحس انني اختنق !

حتّى مرحي الغريزي فارقني بعد ان قرأت هذه الرسالة . ففي الدقائق الاولى قررت أن أفعل مثل بطلات أغاثا كريستي : أذهب للتحقيق في الجريمة انطلاقاً من وثيقة لا أحد يملكها سواي ومعلومات لا يعرفها غيري ، ثم اكتب ذلك كله في رواية (وطبعاً اؤكد في صفحاتها الاولى ان لا علاقة لابطالها بأحد من الناس الاحياء حولنا بل هم من صنع الخيال !) . وتخيلت نفسي أيضاً مثل شارلوك هولمز احمل عدسة مكبرة واتسلل الى فندق «هوليداي إن» وعمارة « الكومودور» واجمع بصمات الاصابع واتسلل إلى بيوت الأشخاص المذكورة اسماؤهم في الرسالة أجمع الوثائق ، تاركة بطاقتي في خزاناتهم الحديدية مثل ارسين لوبين . وتخيلت مغامراتي وانا اقفز من الشرفات المعتمة واكتشف الاسرار ، والاشرار يلاحقونني محاولين قتلي وسرقة الرسالة مني ... وحاولت أن أضحك ، كعادتي ، لكن ابتسامتي سرعان ما تلاشت مثل لهب شمعة في ضوء الشمس . أحسست كم أنا وحيدة وضئيلة ، وكم من الرجال ينتحرون في هذه اللحظة بالذات أو يقتلون أو يُقتلون ! اجل ، كم من الرجال في ارجاء الارض يصوبون المسدسات على رؤوسهم الآن ويطلقون النار . كم من المحتضرين يكتبون الآن رسائلهم الاخيرة كهذه الرسالة . ماذا املك لهم ، انا قطرة الحنان الصغيرة في بحر العذاب الانساني اللامتناهي ؟!

أحرق الرسالة ؟

كيف ؟

انها مثل نداء الاستغاثة الاخير لسفينة غارقة وانا لا اعرف اذا كانت السفينة تحمل مجرماً أو بريئاً ، لكنني التقطت شارة الاستغاثة وانتهى الامر .

ترى هل تساعد هذه الرسالة السلطات القضائية ؟ لا أدري !

انها تبدو لي شخصياً مثل الصرخة الأخيرة التي يطلقها إنسان محكوم بالموت : حادة ، شرسة ومشوشة ، بل انها تبدو لي رسالة خاصة ترجوني ايصال صوت صاحبها إلى الآخرين بعد موته ... الا ان بعض الاصدقاء من المحامين قالوا انه قد تكون للرسالة قيمة كوثيقة تساعد التحقيق ، وانه من الافضل ان اسلمها للمدعي العام ... وقد فعلت ، ولا أدري اذا كان كاتبها اراد ذلك منها أصلاً ، وعهد بها الي لأكون ساعي بريد أميناً ، أم تراه كان « يفتح قلبه » قبل الموت لا أكثر ؟ ! .

يقول البير كامو : « ان البشر لا يقتنعون أبداً باسبابك وصدقك وجدية عذابك الا حين تموت . وما دمت حياً فان قضيتك مغمورة بالشك . » ترى هل كتب المنتحر رسالته وهو يعي هذه الحقيقة ؟ تُراها تنطبق عليه ، أم تُراه بعيداً عنها ؟ والاتهامات التي قذف الكثيرين بها ، محاولة قتل معنوية يمارسها بحق الاخرين حتى بعد الموت ؟ لقد اتفقت ونفسي على كتم الاسماء كلها الواردة في الرسالة ، لا خوفاً من الملاحقة القضائية وانما خوفاً من الاساءة إلى أشخاص قد يكونون ابرياء تاركة للتحقيق الرسمي أمر ممارسة مهمته . ولكنني أيضاً اؤمن بواجبي في تكريس حق ايصال صوت أي أي انسان إلى الآخرين . فقد يكون مظلوماً (هل هنالك فقط ظالم أو مظلوم على طريقة أبيض وأسود ؟ أليست طبيعة كل انسان مزيجاً غامضاً من ذلك كله ؟)

تبقى كلمة ...

يبدو ان لرغبات المحتضرين قوة ذاتية مروعة — ربما لانها تقرب من وجوهنا مرآة الحقيقة لنرى فيها موتنا الشخصي المحتوم — ولعل هذه القوة الذاتية هي السبب الأساسي لاهتمامي البالغ بهذه الرسالة .

وكلمة أخيرة ...

آه كم أكره العنف والدم !!!

* * *

هذا نص الرسالة التي يشرح مهدي اليعقوبي فيها قصته ، بعدما قتل عبد الامير

س في فنـــدق « الهوليداي إن » في بيروت وانتقل إلى فندق الكومودور حيث انتحر بعد كتابتها مباشرة . وقد حولت هذه الرسالة إلى النيابة العامة . انشرها حرفياً مع اخطائها اللغوية ولكن دون ذكر الاسماء التي أوردها ..

١٩-١-١٩٧٤

أنا الآن سعيد وسأموت سعيداً ولا يهمني ما قد يقوله الناس عني فقد أديت واجبي تجاه حقي الذي لم أحصله في حياتي وسيحصله غيري .

أنا سعيد لان (.....) قد مات لانه تسبب في عدم دفع حقوقي وكان هو الحجرة الكأداء في طريق الوصول إلى حل واني أنذر (......) أن يحول حقي الذي مجموعه ١٥٠٠٠٠ باوند + الفائدة إلى عائلتي والا فإن المستقبل يبيّت له مصيراً مثل مصير أخيه .

انني أؤكد هنا لمن يهمه الامر أن لا شريك لي في كل عمل قمت به فلا حاجة لجلب الناس والتحقيق معهم بل اذا أراد المحقق ان يحقق فلينبر للتحقيق مع سبب هذه هذه الاعمال فهم المجرمين الاصيلين .

لقد كنت مصمماً على استحصال حقي من كل شخص اغتصب هذا الحق وكنت اعتبر نفسي جباناً اذا تجاهلت هذا . لقد ابرقت إلى (......) التركي في ازمير ليحضر حتى اجبره على الدفع وتواعدت مع (....) في الكويت للمجيء إلى بيروت حيث حضر ورفض الدفع واوعدني على العودة يوم ٢٤-١ ليستغلني مرة أخرى .

ثم اني بطريق الحصول على حقي من السيد (......) وسأحصل حقي منه لانه كما اعلم نبيل ويعرف رقم حسابي في برلين الغربية . ولكن هنا ارجو منه ان يقوم بدفع تجهيزات الدفن في بيروت ووضع قطعة واضحة باسمي حتى يزورني في المستقبل الاولاد ..

ليعلم (....) شقيق (....) انه إن لم يحول لعائلتي حسابه فسألاحقه من قبري وسألاحق كل عائلته لانه لو دفع لي أي مبلغ من حقي لما حدثت هذه الحوادث .. انني الآن أقدم له التهاني بفقدان شريكه وأخيه من أجل المال .. فقد توسطت له المئات من الشخصيات ولكنه ارسل أخيه لينفي وجود أي حق لي بينما أرجو من الجميع الرجوع إلى اضبارتي مع شركة (...) واهنىء المحامي الذي نصحه بعدم الدفع في سبيل الحصول على دريهمات معدودة .

هكذا سارت الامور وسواء صدق الناس ان ع . س قد قتل نفسه أو اني قتلته فسيان عندي لان الشاة لا يهمها سلخها بعد ذبحها .. ستنتشر الاقاويل وسأكون مادة

دسمة للصحافة ولكن ارجو ان يتحققوا في العمل وينشروا الحقيقة .

اني أرجو من (......) ان يشحن ملابسي في الهوليدي إن وهنا في الكومودور إلى عنواني في برلين الغربية : (.....)

اني ارجو انلا تعتبر عمليّتي ضد الامن فهذه لم تكن لسرقة أو اختطاف انما حصلت لاستحصال حقوق .

على كل حال سيندمل الجرح بمرور الزمن وستنسى القضية ولكنها ستكون درساً لعائلة (......) وغيرهم بان الحق لا يضيع .

سيقول الناس انّي هددتّهم بالقتل وانّهم رفضوا الدفع .. الا يستحقوا الموت اذا.

أنا متأكد من ان اقارب ع . س مستعدون لدفع الملايين اذا أعيدت لهم حياة ابنهم ع ... فلماذا لم يدفعوا الالاف لتجنب المآسي .. تمنيت أن أكون بجانب أحد الكتاب اللبنانيين الاعزاء مثل غادة السمان لاشرح لها أولهم ما لاقيته من قصص تصلح ان تكون عبرة لكل فرد ..

اعتقد ان الدكتور (......) سيشرح بعض ما لاقيته ..

اني ارجو من (.....) في الكويت ان يحول لعائلتي وعنوانها أعلاه حقي من الشركة التي أسستها وعملت لها واني أنذره ان يدفع والا سيلاقي من غيري هو وعائلته.

كما أطلب من السيد (....) ان يكتفي بما ربحه مني وان يحول المتبقي بذمته وهو ٩٠٠٠ باون للاعتماد الاول للحساب بعد دفع حق فندق الهوليداي إن لأنه أوعد .

هناك أوراق كتبتها لاولادي ونسختها في الحقيبة السوداء أرجو ارسالها اليهم من مكتب (......)

لقد اتصلت بمستشفى لندن الذي فيه (.......) قبل حدوث القتل وطلبت منه تحويل حصتي فأجابني بأنه لا يخافني ..

سأتصل اليوم به لابارك له ماليته الكبرى .. انه طبعاً مسرور من خلاصه من سيطرة اخيه ولذلك رفض الدفع .

سيتذكر جميع الاصحاب اني اوعدتّهم بالحصول على حقي والانسان لا يقتل الا دفاعاً عن شرفه وماله ..

لذا فأنا سعيد واني اتصور مقدار النكبة التي جلبتها لمن آكل حقوق الناس .

لي أمنية واحدة ارجو من صديقي الحميم (....) تحقيقها وهي دفني بالقرب من صديقي المرحوم (.....) رجاء (...) مع تحياتي (......) وغيره . وأنا أعتقد

انك سترفض لاسباب واهية تخلصاً من الدفع شارحاً مثاليات .

اتصلت الان بلندن وطلبت منه أي من (.....) حسابي والا فسيفقدني ويفقد أهل بيته كما فقد أخيه فأوعدني بأنه سيدفع الحساب ...

الآن اعترف (.....) بحسابي .. قال أنا لا أنسى انك تستحق باون واحد عن كل طن وان الكمية الاولى ١٥٠٠٠٠ طن وستأخذ حسابك على كل مشترياتنا بنفس السعر .. الان وبعد ان فقد أخيه .. الان اثبت له ان تهديداتي صحيحة وانه سيتعرض وعائلته لكل شيء سواء بعد موتي أو قبله .

على كل حال احب ان أدفن في بيروت ولو دفع أحد مغتصبي حقوقي فاني كنت أفكر ان ادفن قرب أولادي في برلين .

أرجو من سفارتي المحترمة (السفارة الايرانية) أن تسمح لي بهذا العمل فأنا أطالب بحقوقي وان لدى السفارة في سنة ١٩٦٩ اضبارة كاملة عن قضيتي مع (.......) الذي منع عني الاقامة اكراماً وبأمر أخيه لذلك فان السفارة العزيزة سوف لا تلومني على عملي .

فانني لست مديناً لاحد قبل هذا الشهر أبداً ولكن لي ديونا تقدر بعشرة ملايين ليرة لبنانية لم أتمكن من استحصال أي شيء منها ..

أنا الان في غرفة ولدي بعد أن هجرت فندق هوليداي‌إن لان المؤمن المصلي حاج . ع نكث وعده لم يدفع وكذلك (......) واني سانتظر تنفيذ الوعد من أخيه لادفع الفندق الذي أريد أن أسجل هنا للسيد جلبرت والسادة الموظفين خالص شكري لاهتمامهم بأمري بعد ان أخذت الهموم تتراكم .

ستقولون ان هذه وصية وزير أو ملك .. ولكن هؤلاء جميعاً لم يمرّ عليهم ١٪ من الذي مر علي ..

(......) حبي لبلدي الاصلي العراق الحبيب حكومة وشعبا فأنا ذو مبدأ أعتقد انه شاذ . فكنت ولا أزال أقدس كل حكومة وأعتقد انها تسير في اتجاه خدمة أمتها ولكن برأي يختلف عن آراء بعض الناس (...) وحبي وقلبي مع العراق وتمنياتي لجميع الامة العربية بالنصر فأنا عربي صميم ..

تحياتي وحبي لشعب لبنان فرداً فرداً ولا تحية لشخصياته البارزة التي لا هم لها الا جمع المال ..

(....) قبض مئة ألف ليرة عمولة من (......) مكتبه في (.....) عن عملية

لا أساس لها من الصحة ..

(......) استلم مني صك ليضعه بحسابه بمبلغ ٣٠٠ ألف ريال ولكن جيره (......) وهذا جيره (.......) وذاك قبضه .

(......) بعد أن فلس البنك (....) الدولي بالاتفاق مع (........) باعني فيلا بمئتي ألف ليرة ولكن عندما طلبت التسجيل بعد قبض المبلغ فهمت ان الفيلا ليست باسمه كل ما ينزل إلى الاسواق من نقود مزورة كانت ولا تزال تحت إمرة (........)

وأخيراً ولا آخر بعده فقد رموني خارج الفيلا التي اشتريتها بعد أن حصلوا على توقيع (....) بالموافقة على التخلية ووضعوا ملابسي وأغراضي في امانة (....) غريمي ولم أحصل منها بشيء .

(......) النائب الكبير (........) والمحامي وكلته وسلمته وكالة عامة لاقامة الدعوى على (..........) وزمرتهم ولكن سمعت أن أخذها كنكتة وبلع المبلغ ولم يعمل بشيء وسمعت انه عرض الوكالة العامة على (.....) كنكتة .

المصيبة انني كلما أردت تبليغ (....) واحضاره إلى المحكمة يأتي إلى بيته أحد هؤلاء النواب ليطردوا المبلّغ : هل تصدقون .

ولكن عندما ارسلت اليه انذاراً بأني سأقاضيه اذا لم يدفع حقوقي ... فماذا عن .. لقد حوطتني (.......) وكان (......) يتهرب من الحضور حتى يمدد حبسي لان لا ذنب لي .. تصوروا كيف يعيش هذا الشعب مع هذه العصابة انها مآس لبنان الجميل.

عزيزتي غادة السمان ... لقد قررت أن أبعث اليك هذه الرسالة وأنا في طريقي إلى دار حقي لاحاسب عن أعمالي وكم وددت لو أقبل تلك الانامل التي تخط هذه الكتابات وكم احببت أن أشاهد هذه العبقرية التي لا تضاهيها عبقرية أخرى .

انني في الحقيقة معجب كل الاعجاب بك ولا أعتقد انني قرأت لغيرك مثلما قرأت لك رغم انني أقرأ ثمانية لغات .

كان بودي أن أجلس إلى جنبك وأقص لك مآس الحياة التي لاقيتها ولكن فضلت ان اقرأ لك من بعيد .

لو صادفك ان تتعرفي بصديق هو الدكتور (......) في الكويت فاسأليه عني لانه يعرف بعض آلامي التي يسميها مغامرات .

الحقيقة انني معجب بك ولك كل الحق في أن تهاجميني أو ترافعي عني ..

دمت ذخراً للوطن والامة والشباب ووداعاً إلى عالم مجهول . ولكنه مهما بلغ من

سوئه فلم تصل سوءته درجة هذا العالم وتحياتي لكل كاتب لبناني . ولجميع أبناء الصحافة .

ربما ستزعجك رسالتي وتشمئزين من مجرم يكتب اليك وستقولين ما علاقتي بهذه الاشياء .. وهذا ليس ذنبك وربما تكوني محقة .

أنا أرجو المعذرة فلم أجد من اختاره غيرك وهذا ايضاً ليس ذنبي فقد اخترت .

ولا بد وأنت تعلمين وقد كتبت عن الحب الغير المتبادل وعذرت الطرفان فليس لهم ذنب وعليه فاقبلي حبي وتقديري أو فارميهم إلى البحر..

تحياتي

مهدي اليعقوبي

١٢ / ٢ / ١٩٧٤

جريمة الرز المر (٢)

مع امرأة المحتضرين : الكل قاتل وبريء !!

يبدو انني عاجزة هذا الاسبوع عن الهرب من رسالة القاتل المنتحر ، التي هزتني هزاً ، وعاجزة عن الكتابة الا من وحي دوامتها ...

لقد جعلتني هذه الرسالة أعي ، أكثر من أي وقت مضى العلاقة القوية والحقيقية التي تربط الكاتب ببعض قرائه ، فتشدهم اليه ربما أكثر مما تشدهم إلى أي شيء آخر في حياتهم ...

هذا رجل لا أعرفه ولا يعرفني ، ولم نلتق قط . عاش حياته ، أياً كانت ، وارتكب جريمة قتل وعاد إلى فندقه وطلب زجاجة ويسكي ، وطلب شقيق القتيل ليبلغه بالقتل وليهدده بدوره ، ثم قرر الانتحار ... ماذا فعل بعد ذلك ؟ اخذ ورقة وقلما وجلس يكتب ، لا لزوجته أو حبيبته ، وانما لكاتب قرأ له ذات يوم وأحس بأنه قد يتفهم عذابه الانساني — وتصادف أن كان الكاتب أنا !

حينما يقع حادث سير يسارع المتضررون إلى طلب « خبير سيارات » حين يقع حادث انتحار أو جريمة يسارع المتضررون إلى طلب « خبير عذاب » هو كاتبهم المفضل ! ما أكثر المعذبين الذين يكتبون اليّ ! ولسوف أطبع بطاقات باسمي ، وأكتب تحت الاسم مهنتي : « خبيرة عذاب » ! ..

كأني امرأة المحتضرين ! ..

* * *

ربما لذلك يتدخل القراء في حياة كتابهم الشخصية .

ربما لذلك يعتبرون ان لهم عليهم حقوقاً مكتسبة ، حقوقاً يضيق بها الادباء الذين يدافعون بضراوة عن تحررهم من كل التزام . يقول سارتر : « الأديب كائن مشبوه

يستطيع أي كان أن يستوقفه وأن يستجوبه . » يخيل الي أن القضية ليست في هذه البساطة !

الاديب ليس كائناً مشبوهاً ، بل هو كائن موجود في حياة الاخرين ، وهو أحياناً يسكن معهم ويتنفس معهم وينام على وسائدهم ويشاهد أحلامهم وكوابيسهم ويسمعون آراءه وتعليقاته باستمرار ، وهو بالتالي يؤثر في سلوكهم . وهكذا فالقارىء الذي « يضايق » الفنان ، بتدخله في حياته ، لا يلحظ ذلك ، وكل ما يحسه هو انه يعامل الكاتب بالمثل ! ..

* * *

وصلتني رسالة ذلك القاتل المنتحر بعد أسبوعين من موته . جسده الهامد ، الذي بدأ الدود يحتله ، استطاع أن يزرع الارتجاف في جسدي ، والزلزال في مسالك روحي. كل ذلك عبر الكلمة ...

ذلك الفينيقي على شواطىء سوريا ، هل كان يدري ، وهو يحفر على جدران كهفه أول أبجدية في العالم ، ويخترع اللغة والكتابة ، هل كان يدري انه اخترع أعظم ما يمكن للدماغ البشري أن يبدعه ؟ ..

وأن وصول الانسان إلى كوكب القمر ، هو أسهل من اقتحام انسانلكوكب انسان آخر ، عبر جسر الكلمة ؟ ..

وأن الكلمة أعظم من الصاروخ ، وأقوى من الموت ؟

* * *

ذلك الذي صرع رجلاً في « الهوليداي إن » ، ثم كتب رسالته الي ، ثم انتحر ، ليس قاتلاً ... ربما تكون اصبعه قد شدت على الزناد ، ولكنه ليس القاتل الحقيقي . انه أداة الجريمة ... القاتل الحقيقي هو الثراء ... الثراء هو الوباء الذي يصيب الرجال ، فيكف المال عن أن يكون زينة الحياة الدنيا ، ويصير البنون ملاحقين من قبل الشرطة بدلاً من أن يكونوا زينة الحياة الدنيا أيضاً . الثراء هو الجريمة ، والذهب هو القاتل .

الدول تمنع المخدرات لأنها تسبب الجنون الموقت وتدفع بالرجال إلى العنف والجريمة والموت ، ولا تمنع الثراء الفاحش الذي يسبب الجنون الموقت ويدفع بالرجال إلى العنف والجريمة والموت .

لماذا تكافح الدول الاوبئة ، وتكافح الادمان على الكحول والمخدرات ، ولا تكافح الادمان على الثراء الذي هو أول الشرور ؟ ! . القاتل الحقيقي ، في كل جرائم

القتل على وجه الكرة الارضية هو النظام ، النظام الانساني الذي لما ينضج بعد ولا يزال يبيح الخطيئة الكبرى الثامنة :

امتلاك الملايين !

تعالوا نمنع « ادمان الثراء » ونبدل وجه العالم البشع الشره وأسنانه المغموسة بدم الاطفال والجياع !

* * *

تتحدث رسالة المنتحر عن ١٥٠ ألف جنيه استرليني عمولة ...

ترى هل يعني ذلك مثلا ١٥٠ ألف جائع في مكان ما ؟ !

* * *

أيها المنتحرون ،

رجاء ، لا تكتبوا الي ، فالرسائل التي لا أعرف عناوين أصحابها تعذبني ما دام جوابي عليها لن يصل حتماً ! ..

أيها المنتحرون .

لا تكتبوا الي الا اذا كنتم تعرفون عناوينكم المقبلة ! .

١٨ / ٢ / ١٩٧٤

جريمة الوز المر (٣)

في الكويت مع أسرة القتيل : كان القاتل شرساً وقاسياً

الطائرة تبحر بي وحيدة إلى الليل المسكون بالمجهول ، وأضواء بيروت تتلاشى في قاع العتمة ، وأحبائي فيها يبعدون ، وحزام المقعد هو الحقيقة الوحيدة المتبقية التي تشدني إلى شيء واضح ما ... حزام الامان ! أي أمان ؟ ..

ها أنا مسافرة خلف حكاية أشخاص لم التق بهم في حياتي . رجلان قتل أحدهما الاخر ثم انتحر . رجلا أعمال من دنيا أصحاب الملايين ، والارقام التي لا علاقة لي بها ، ولا بأصحابها ، ولا بأي من الصفقات التي يدورون في فلكها ...

كل ما في الامر هو أن القاتل مهدي اليعقوبي كتب الي اعترافاته كلها لمجرد انني كاتبة (أي كاهنته المفضلة !) ، وروى لي كيف قتل ولماذا سينتحر في رسالة سلمتها إلى المحقق كمال القاضي وانتهى الامر ! انتهى ؟ .. أم تراه بدأ ؟ ..

إن كان الأمر انتهى ، فلماذا أنا هنا في طائرة مبحرة إلى الكويت ؟ ! .

في رسالة مهدي اليعقوبي اليّ مقطع يتحدث فيه عن المرحوم (ع . س) الذي قتله ، وعن شقيقه ، وعن شركة يملكانها تدعى « دبليو . جي . تاول » ، ومقرها الكويت ، وعن عمولة ١٥٠ ألف استرليني كانت له بذمتهما ولم يدفعاها ، ويقول أن العمولة هي سبب القتل . (ولكن ما شأني بذلك كله ؟!) حسناً . لا بد لي من الاعتراف بأنني على قدر كبير من الفضول . بل إن الأمر اسوأ من ذلك . طالما كانت الحقيقة هاجسي ، حتى على صعيد الاشياء اليومية الصغيرة .

لقد أطلعتني رسالة اليعقوبي على (وجهة نظره) بالنسبة إلى انتحاره وإلى القتل الذي ارتكبه ، ولكنني لا أستطيع أن أنسى أن للحقيقة أكثر من وجه (هل قرأتم مسرحية « لكل حقيقته » للعبقري الايطالي بيرانديللو ؟) . إن رسالة اليعقوبي قد أطلعتني على وجه من وجوه الحقيقة — كما يراها — ولكن كم من وجوهها ما زال متبقياً في مرايا المعرفة اللامتناهية ؟ ..

وها هي الطائرة تمعن إبحاراً نحو الكويت والمجهول، وأنا أتوق لسماع وجه آخر للحقيقة . أجل ! سمعت صوت القاتل وتأثرت ، لكنني لم أسمع صوت القتيل . ولما كانت مقابلة القتيل متعذرة ، فها أنا في طريقي إلى أسرته وإلى مقر عمله في محاولة لالقاء الضوء على تلك المأساة ...

الحقيقة ؟ ضباب

استقبلتني الكويت بليل بارد ، ثم بصباح يتنفس الضباب . بدا كل شيء عبر الضباب شاحباً وحزيناً كما يجب أن يكون في رواية بوليسية تبحث فيها صحافية فضولية عن الحقيقة المراوغة ...

دخلت إلى مقر شركة « دبليو . جي . تاول » . مكان يفور بالحركة والعمل في مقر ضخم . في أحد مكاتبها جلست وشخص هو من أقرب الناس إلى القتيل ، (وأعتذر من القراء عن ذكر اسمه ، تنفيذاً لوعد قطعته له على نفسي ، رغم الاغراء الصحافي في ذكر حقيقة ما حصل مع الاسماء !) .

قلت لقريب القتيل المرحوم ع . س : وصلتني رسالة من قاتل أحب الناس اليك . نشرت الرسالة ، لكنني أؤمن بأن للحقيقة وجهاً آخر ، هو وجهة نظر القتيل . وأنا لا أملك أية أسباب تدفعني للانحياز إلى أحد . كل ما يهمني هو ان معرفة أكبر قدر ممكن من الحقائق ، ودون أن اؤذي أحداً !

قال لي وعيناه تقطران حزناً : اذا كان القاتل قد كتب لك قبل موته محاولاً استدرار عاطفتك فنحن لن ندخل في حديث العواطف . سأترك الوثائق والارقام تتحدث اليك ، وبالوثائق سأكشف أننا لم نكن مدينين للقاتل .

ورن جرس فجيء اليه بملف كبير مليء بالوثائق . وتابع حديثه ، ومع كل فقرة كان يبرز إلي وثيقة تدعم صدقه ...

حكاية آل «س» مع القاتل

قال لي قريب القتيل الحميم : منذ عام ١٩٦٥ ، كنا نشتري الأرز من حكومة الباكستان بكميات ضخمة ، وعلى حسابنا الخاص ، وكانت الحكومة تخصنا بهذه النوعية من الارز وتحصر احتكارها بنا . دامت الحال مع الأرز طيلة أعوام ٦٥–٦٦ ٦٧–٦٨ ، وبعد عام ١٩٦٨ تغيرت سياسة حكومة الباكستان وصارت تبيع الأرز

إلى أي تاجر . وفي حزيران ١٩٦٩ زارنا ضابطان باكستانيان متقاعدان ، يرافقهما القاتل مهدي اليعقوبي – وكنا في مكتبنا القديم في شارع الدهلة – وعرضوا علينا ١٢٠ ألف طن أرز ماركة « بسمتي » ، وقالوا ان في إمكانهم التفاوض مع حكومة الباكستان لشرائها لحسابنا بسعر ٨٨ جنيها للطن الواحد . واتفقنا على أن تكون عمولتهم جنيهاً على كل طن ، واشترطنا عليهم – قبل سفرهم للتنفيذ – أن تتم الصفقة خلال ١٥ يوماً والا كان لنا حق الغاء الصفقة والارتباط مع أشخاص آخرين أو ضمن اطار آخر . واتصلنا بالسفارة الباكستانية يومئذ وتأكدنا من ان الضابطين المتقاعدين من أصحاب السمعة الحسنة . المهم ، كما ترين في المراسلات بيننا وبينهم ، انهم بعثوا الينا ببرقية راجين منا تمديد مهلة العملية ١٥ يوماً أخرى ، ثم الحقوها ببرقية أخرى وأخرى حتى ٤٥ يوماً ! ..

الأرز المـــر

وتصادف ان طرحت حكومة الباكستان مناقصة عالمية لبيع ١٥٠ ألف طن أرز ، فأبرقنا إلى الضابطين واليعقوبي وأبلغناهم أن الاتفاق بيننا لاغ لانهم أخلوا بشرط الـ ١٥ يوما ، ودخلنا في المناقصة العالمية التي لا علاقة لها اطلاقاً بصفقة الارز التي كنا نتحاور حولها والقاتل ، فكما ترين كمية الارز مختلفة ، والسعر مختلف ، ورست علينا المناقصة ، واستطعنا أن نحصل على الصفقة التي لا علاقة لهم بها . وفوجئنا بهم يجيئون شاكين تعبهم وجهودهم الضائعة ، وأحببنا أن نرضيهم – رغم أننا قانونا غير ملزمين بذلك إطلاقاً – فأعطينا كلا منهم مبلغاً معيناً ، وذهب كل منهم في سبيله وانتهت الحكاية .

ولكن الحكاية لم تنته ! .

الضابطان المتقاعدان وحدهما ذهبا ! بقي اليعقوبي الذي تمسك بالعملية مدعياً ان له فيها حقوقاً لم تصله (والمراسلات كلها تكذب ادعاءاته) ، وعاد يطالبنا بعمولة نصف جنيه . ولما رفضنا وأفهمناه أن مطلبه ليس شرعياً عاد يطالب بعمولة ربع جنيه. ثم انزل سعره . وكانت تصرفاته متناقضة ، وقد كتب الينا مرة رسالة اعتراف باستلام حقه كاملا من شركتنا « دبليو . جي . تاول » ، ثم عاد ونفى ذلك وادعى ان الرسالة مزورة ثم عاد وكتب الينا قائلا انه لا يعترف بأية رسالة كتبها الينا !

قلت لقريب القتيل المرحوم ع . س : هل لديكم نماذج من خط القاتل ؟ أريد

ان أقارن ما تحمل من تواقيع بتوقيعه على الرسالة المرسلة الي وبقية الرسائل التي وجدت في شقته وقد كتبها قبل انتحاره .

قال : طبعاً . إننا على استعداد للتعاون مع التحقيق إلى أبعد مدى ، وأخرج إلي «فوتوكوبي» عن رسالة ممهورة بتوقيع اليعقوبي . لاحظت أن الشبه عظيم بين التوقيعين ، لكن خط الرسالة التي كتبها إلي أكثر تشويشاً ، وربما كان السبب في أنه كتبها قبل انتحاره وبعد أن شرب كميات لا بأس بها من الويسكي . على أية حال ، قررت أن أعرض النموذجين بعد عودتي إلى بيروت على خبير للخط كي يبت في الامر .

وتابع الرجل الحزين حكايته ، وصورة القتيل ع . س أمامنا بوجهه الضاحك الذي يفيض صحة : وصارت لدى اليعقوبي هستيريا اسمها ١٥٠ ألف استرليني . وكان يتصل بالاسرة ويهددها باستمرار . وغرق في الشراب والميسر ، ثم اختفى طيلة ١٩٧٢ . وظننا اننا استرحنا منه ، لكنه عاد ليهددنا باختطاف الشاب ت.س (١٩ سنة) مدعياً بأنه قابله في لندن وهدده ، وحين اتصلنا بتوفيق نفى هذه الواقعة ... وذلك كله يدلك على ان القاتل شخص غير متوازن عقلياً وكاذب .

وتابع الحديث شخص آخر من أقرباء القتيل قائلا : اسألي في بيروت عن اليعقوبي وحكايا احتياله . هنالك ٥٠ دعوى في المحاكم ضده .

وعاد الرجل الحزين إلى متابعة الحكاية بصوته الخافت : وأخيراً لعب اليعقوبي ضربته الاخيرة ، فاستدرج المرحوم إلى بيروت ... ففي أوائل ١٩٧٤ جاءتنا برقية تدعي أن سفارتنا اقترحت اسمنا كشركة من أشهر شركات الخليج وذلك لمقابلة وفد من افريقيا يريد أن يبحث معنا في شؤون المستشفيات والعمران ، وكانت البرقية ترجونا ارسال شخص إلى بيروت للمفاوضة ...

ويبدو ان القاتل غير رأيه لفترة ، اذ جاءت برقية بإلغاء ذلك وتأجيله . ثم وصلت من جديد برقية تطلب مجيء « مستر س » .

وفكرت بصمت دون أن ادلي اليه بشكوكي بصوت عال : أي ان القتيل كان يمكن أن يكون أي « مستر س » من الاسرة يحضر ممثلاً للشركة ! أم أن الاختطاف كان هو الهدف ، ولكن لسبب نجهله وقع خطأ في الخطة ؟ هل وراء هذا الحادث مجرد فرد هو اليعقوبي وقد انتحر وانتهى الامر ، أم أن هنالك عصابة استغلت اليعقوبي وتخلصت منه في ما بعد ؟ ..

قلت للشخص القريب جداً : في رسالة المنتحر الي يذكر مخابرة هاتفية اجراها

مع شقيق القتيل بعد قتله (وخلال كتابته الي) وهو يدعي انه أبلغه بأن القتل قد تم ، فما رأيكم ؟

قال : فعلاً . لقد أجرى مخابرة مع الشقيق والشريك أ . س في لندن ، لكنه لم يبلغه بالقتل ، وانما قال له إن شقيقه قد اختطف ونقل إلى برلين ، وطلب منه فدية ١٥٠ ألف استرليني (التي يصر المنتحر على تسميتها عمولته في رسائله) .

وسألت الرجل الحزين : ولماذا لم يتم تحويل المبلغ اليه ما دام قد ادعى الاختطاف طالباً فدية ؟ .

قال : لانه لم يذكر إلى أين يتم التحويل ، وانما قطع المخابرة بشكل هستيري . ثم ان المخابرة جاءت يوم السبت ١٩ كانون (أي يوم كتابة الرسالة الي كما يدل تاريخها ، وفيها يحدثني عن المخابرة إياها) والبنوك مغلقة في أوروبا يومي السبت والاحد ، والتحويل مستحيل أصلاً في تلك الايام ، وهو يعرف ذلك !

تحركات القتيل في بيروت

وعدت اسأل الرجل الحزين : ما هي معلوماتكم عن المرحوم القتيل في بيروت ؟ من شاهده هناك ؟ .

قال : سافر المغدور إلى بيروت يوم الجمعة ١٨ كانون الثاني بطائرة « الميدل ايست » لمقابلة الوفد الافريقي المزعوم ، ولم يكن يدري انه ذاهب إلى فخ . وكان قد تلقى قبلها بيوم مخابرة من بيروت من شخص من أعز أصدقائنا هو م . س فأبلغه بمجيئه إلى بيروت ، مما حدا به إلى أن يبعث إلى المطار بـ (ع . ع) لاستقباله يوم الجمعة ولدعوته إلى الغداء .

وصل إلى المطار متأخراً ساعة (تأخرت يومها الطائرة) . استقبله ع . ع كما كان مقرراً ، وأقله في سيارة إلى فندق « هوليداي إن » بين ١١ و ١٢ صباحاً ، وأبلغه انه سيعود اليه في الواحدة ليقله إلى بيت م . س لتناول الغداء .

في الواحدة ، جاء ع . ع حسب الموعد وخابر الغرفة دونما جواب . ترى ماذا حدث خلال هذه الساعة ؟! . التصور لدى أقرباء القتيل هو أن اليعقوبي نفذ القتل فور دخول المغدور ، وانه كان ينوي القتل وإلا لأرغم القتيل على توقيع شيك مثلاً ولأرسل شخصاً ما يصرفه قبل اطلاق سراحه . (التحقيق يطرح اسئلة كثيرة حول اشتراك شخص آخر في القتل ، فالقتيل يزن — كما تقول أسرته — بين ٨٥ — ٨٦

كيلو ، وليس في وسع القاتل وحده أن يلفه ويربطه ويحمله ويحشره داخل المكان الذي وجد فيه في غرفة الفندق . ولكن القاتل لم يذكر لي شيئا عن ذلك ، بل انه نفى وجود أي شريك له في العملية . ولكن لم هذا الاصرار في النفي ؟ هل هنالك شيء يهم المنتحر ان يتستّر عليه حتّى بعد موته ؟ لا أدري !) .

تابع الرجل الحزين : لقد قتل المغدور يوم الجمعة ، وتمت المخابرة مع شقيقه في لندن يوم السبت (وهي المخابرة التي أشار اليها في رسالته الي) ثم انتحر يوم الأحد بعد أن خط هذه الرسائل كلها ...

وثائق الأرز المر

وصمت الرجل الحزين . وغمرني الحزن نفسه الذي أحسسته وأنا أقرأ رسالة المنتحر ، بينما أعطاني مخاطبي وثيقة طالباً مني قراءتها ، وهي موجهة إلى مهدي اليعقوبي (القاتل — المنتحر) وتقول : دأبتم على تحويل دائنيكم الينا وذلك يشكل اساءة بالغة إلى سمعتنا ، لذا ننهاكم عن مثل هذه التصرفات حتّى لا نضطر آسفين إلى اتخاذ اجراءات قانونية . التوقيع : شركة « دبليو . جي . تاول . »

ثم دفع الي بوثيقة أخرى خطيرة ، يعلن فيها موقعها مهدي صالح اليعقوبي بوضوح تنازله عن كل ما سبق من اتفاقات بخصوص صفقة الـ ١٥٠ ألف طن أرز « بسمتي » (ولأسمه الارز المر !) ، ويطالبهم بمبلغ شلن ونصف فقط من كل طن . والرسالة بالانكليزية ، وتبدأ كما يلي : تهنئة قلبية لكم على توقيعكم العقد مع شركة التجارة بكراتشي (بخصوص الـ ١٥٠ ألف طن أرز) وأتمنى لكم بإخلاص نجاحاً كبيراً في متابعة هذا التعهد . وبالاشارة إلى رسائلنا وبرقياتنا السابقة المتبادلة في هذا الخصوص ، فانني بعد مقابلتي اليوم مع السيد س (شقيق القتيل وشريكه) أرجو اعتبارها كلها لاغية . والآن أوافق على أن تكون عمولتي شلن ونصف عن كل طن (كان يطالب أصلاً بجنيه استرليني عن كل طن) ......

والرسالة موقعة بالعبارة التالية :

المخلص مهدي صالح اليعقوبي .

لماذا صار الأرز مراً ؟

السؤال هو : ماذا حدث منذ تلك الوثيقة التي يشير تاريخها إلى ٤ اذار (مارس)

١٩٧٠ ؟ هل بدل اليعقوبي رأيه ؟ .. وكيف ؟ .. هل هنالك من استغله ، أم أن حقده نام ثلاثة أعوام ثم استيقظ شاهراً مسدسه ؟ هل هذا ممكن ؟ ..

قال لي صديق حضر المقابلة صدفة : هنالك طرف ثالث في الحكاية غير القتيل والمنتحر ! المجرم ما زال طليقاً وقد يضرب من جديد ! سألته : هل تقصد ابن المنتحر ثائر اليعقوبي الذي تفتش عنه « الانتربول » (الشرطة العالمية) ؟ قال : لا أقصد شيئاً ، ولا أريد ذكر اسمي ولا الزج بنفسي في الحكاية !

• في فندقنا رجل ! ..

عدت من مكاتب شركة القتيل « دبليو جي . تاول » وقد سرت عدوى حزن الجميع إلى قلبي السريع الالتقاط لجراثيم الحزن ، المعدية أكثر من الزكام ! وطوال الطريق كنت أحدق في شوارع الكويت التي لم أزرها منذ أعوام طويلة ، لكنني كنت عاجزة عن رؤية الاشياء . كانت كلمات ذلك الرجل ترن في أذني : هنالك طرف ثالث في الحكاية ... القاتل ما زال طليقاً وقد يضرب من جديد .

وتذكرت رسالة مهدي اليعقوبي التي كتبها الي قبل انتحاره ، والتي جاءت تجرني من حياتي الهادئة للركض في دروب الكويت ، وربما مدن أخرى بعدها .

وأحسست بفضول عظيم لأرى كيف كان يبدو هذا الرجل ، لرؤية صورة له ، لسماع شيء عن حياته ... هل هو مغامر أم أداة في يد عصابة ؟ ..

وفي الفندق كانت تنتظرني مفاجأة !!!

٤ / ٣ / ١٩٧٤

جريمة الرز المر (٤)

في الكويت مع صديق القاتل :
القاتل المنتحر ليس اليعقوبي وهذه ليست صورته !!

حين غادرت مكتب القتيل المرحوم ع . س ، وغيبت الدرب معالم بناء شركته « دبليو جي تاول » في الكويت ، قررت أن اختم محضر التحقيق ، محضر تحقيقي الخاص في هذه الجريمة المزدوجة .

قلت لنفسي : هنالك رجل اسمه مهدي اليعقوبي ، لم اره قط ، قتل رجل اعمال (هو المرحوم ع . س) الذي لم أره قط أيضاً ، ثم انتحر بعد القتل ، وهو امر يحدث كل يوم . القاتل — المنتحر بعث الي ، وهو يحتضر ، برسالة اعتراف كاملة ، وهو امر لا يحدث كل يوم . نشرت الرسالة في المجلة التي أعمل بها ثم طرت إلى الكويت لأنقل وجهة نظر ذوي القتيل ، إيماناً مني بأن للحقيقة وجوهاً متعددة ، ورغبة مني في عدم الانحياز إلى اية وجهة نظر مسبقة ، ومساهمة مني في البحث عن الحقيقة التي هي همّ الكاتب الاول . وفرغت قهوتنا ... وانتهت قصتنا .

وحين توقفت السيارة أمام الفندق في الكويت قررت : ختمت التحقيق وسأنسى الحكاية .

ولكن مفاجأة كانت تنتظرني ! ..

الرجل الذي اشار اليه القاتل — المنتحر في رسالته ، طالباً مني مقابلته وسؤاله عنه ، كان هناك ... لنعد إلى تلك الرسالة الغامضة . قال لي مهدي اليعقوبي في رسالة انتحاره : « لو صادفك ان تتعرفي بصديق هو الدكتور « .... » في الكويت ، فاسأليه عني لانه يعرف بعض آلامي التي يسميها مغامرات . » ويقول عنه في موضع آخر من الرسالة : « تمنيت أن أكون بجانب احد الكتاب اللبنانيين الاعزاء لأشرح لهم ما لاقيته من قصص تصلح ان تكون عبرة لكل فرد ... اعتقد ان الدكتور « ... » سيشرح

بعض ما لاقيته » .

في الفندق ، كان الطبيب زائر الفجر أمامي . هل كنت أملك إلا أن اسأله المزيد عن القضية ؟ تمنيت أن أصرخ به بملء فمي : أرجوك أن تذهب ! لا تقل شيئاً .

كان ذلك مستحيلاً . كنت قد اتصلت به فور وصولي إلى الكويت ، وقبل ان التقي بآل س اقرباء الفقيد وطلبت مقابلته « لأمر خاص وسري » ، وها هو قد تفضل بالمجيء ، بقامته الفارعة ووجهه المليء بالخبرة والاتزان ، وخمرة الأعوام ... لقد انقضضت عليه بالأسئلة وقد اشتعل نهمي الدائم لاكتشاف مزيد من الحقيقة ... كنت أعرف مصير سارق النار والمعرفة بروميثيوس (في الاساطير) . كنت أعرف أعرف ذلك دائماً ، ولكنني طيلة عمري ظللت اركض خلف اية حقيقة ، وعلى جميع المستويات ، من بوليسية إلى سياسية وانسانية ...

الصحافة والجريمة

ثم ان العلاقة بين الصحافة والتحقيق في مختلف الجرائم كانت أبداً وثيقة، وفي الغرب تشارك الصحافة في تنشيط التحقيق بل وكشف الفاعلين أحياناً . اقول هذا وفي ذهني عدد كبير من الجرائم السياسية وجرائم المال والاختطاف وطلب الفدية ، وقد أوحى ذلك الواقع لكثير من المخرجين بأفلام يركض فيها الصحافي ليكشف العصابات ويتقن الكاراتيه أكثر من الكتابة ! ..

«التفتيش عن الحقيقة» هو من مهمات الفنان . فهو أني اصطدم بالغموض يستثار ولعل الفرق بين المحقق والصحافي الفنان هو ان الاول يملك حق استدعاء الناس إلى مكتبه وحق استجوابهم بل وسجنهم ، بينما الصحافي يركض إلى مكاتب الناس ويحاول ان يعبر إلى قلوبهم كي يستجوبهم . المحقق ينفذ مهمته والصحافي « يبحث عن المتاعب » ! ..

وبدأ حوار البحث عن المتاعب بيني وبين الطبيب الجالس امامي في الغرفة ٤١٧ في « الشيراتون » ، وعلى بابها لوحة حمراء علقتها بحرص تقول : « الرجاء عدم الازعاج » .

غموض على غموض

قلت للطبيب : شكراً لانك تفضلت بالمجيء .

سألني : لماذا استدعيتني ، هل انت مريضة ؟

قلت : لست أنا المريضة . الحياة هي المريضة . الحيـــاة تمرض احياناً بالقتل وبالانتحار ، وتبدو عليها أعراض حمى العنف ، ولذا اتصلت بك .

قال : قتل؟ انتحار ؟ ماذا تعنين ؟

قلت : هل تعرف شخصاً يدعى مهدي اليعقوبي قتل انساناً هو ع.س ثم انتحر ؟

قال : نعم ! اعرفه . اسمه مهدي النجار — أو هكذا كان من زمان — لكنني لا أصدق انه قتل ولا أصدق انه انتحر !

قلت : أود اجراء حديث صحافي معك حول هذا الشخص . المنتحر نفسه أعطاني اسمك بعد موته . لقد اشار اليك في رسالته الاخيرة وطلب مني أن اسألك عنه ! .

شعرت بان الستائر المسدلة تتلصص علينا . وخيم على الغرفة شبح الموت والجريمة فاشعلنا لفافتنا ربما لنمحو بعض الظلام والضيق .

قال لي : هل انت واثقة من ان الجثة الموجودة في « الكومودور » هي جثة مهدي النجار ؟ لقد سبق ان أعلنت وفاته أكثر من مرة ثم ظهر حياً ! .. ثم انه من النوع الذي لا ينتحر . لقد مرت به محن عديدة مروعة ولم ينتحر وانما وجد سبيلا للنجاة ...

قلت : لا أعرف شيئاً عن الرجل غير انه كتب لي قبل موته لمجرد انه سبق ان قرأ لي .

قال : هل انت واثقة من أنه هو الذي كتب إليك ؟ ما اعرفه من مهدي النجار — الذي سمى نفسه في ما بعد مهدي البحراني اليعقوبي — هو انه يعرف العربية بصعوبة ، ثم انه بعيد تمام البعد عن الأدب وقضايا الفكر وعالمك الصحافي ، وهو لا يقرأ الصحف

قلت شبه مذهولة : اذا لم يكن هو الذي انتحر ، فجثة من تلك التي وجدت في فندق « الكومودور » ؟

قال : لقد شاهدت صورة الجثة في الصحف . انها ليست صورة صديقي الذي أعرف ! انها ليست صورة مهدي النجار البحراني اليعقوبي !!!

سرت في جسدي رعدة ، وسألت : هل أستطيع نشر ذلك عن لسانك ؟

قال : نعم . أرجو منك كتمان اسمي ، ولكنني على استعداد للمثول أمام المحقق اللبناني متى شاء ، والادلاء بافادتي هذه أو بكل ما يتطلبه القضاء لكشف الحقيقة ... (الاغراء شديد لذكر اسم الطبيب ، لكنني وعدت ، وانا — للأسف — أفي بوعودي الصحافية ... فقط !)

وعدت اسأل : قلت لي أن حياة هذا الرجل سلسلة مغامرات ، وانه تعرض

للموت أكثر من مرة ونجا ، فهل تستطيع ان تروي لي شيئاً عما يسميه في رسالته آلامه وتسميه انت مغامراته ؟

قال لي الطبيب : التقيت بمهدي النجار اول مرة عام ١٩٤٨ ، وكنت طبيباً رئيساً في أحد الجيوش العربية اثناء حرب فلسطين الاولى ، وكان مهدي النجار قائداً للمنطقة الجنوبية في القدس ، وعبد الله التل قائداً للمنطقة الشمالية فيها . كان مهدي يحارب ببسالة ، وقيل لي انه قبل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين قام بسرقة كمية كبيرة من سيارات اليهود في يافا ، وباعها في سورية ولبنان ، وكان يمول بثمنها فوجه المسمى باسم فوج « المانغو » نسبة إلى ثري كان أيضاً يموله ...

قلت له : هل انت واثق من ذلك ؟ هل يمكن للمجاهد ان يكون قاتلاً ومنتحراً ؟!

قال : تستطيعين رؤية صورته بين الموقعين على الهدنة الاولى ، وقد حصل على رتبة رئيس ووسام البطولة من المرحوم الملك عبد الله . (ما اغرب الطبيعة البشرية ! وسام البطولة لرجل صار فيما بعد قاتلاً ومنتحراً ، أم أن في الأمر سراً لا ندركه ؟) وفجأة سحب من مركزه بسبب وشاية مفادها انه لا يبيع السيارات الاسرائيلية المسروقة فقط ، بل العربية أيضاً . واوقف فترة في السجن ثم اطلق سراحه بلا محاكمة ، سافر بعدها إلى مصر حيث سجل نفسه « مدرب طيران » لدى الدولة الباكستانية التي كانت قد انشئت حديثاً . وفي الباكستان كُشفت حقيقته ، أي انه ليس طياراً ، فأخرج من الجيش الباكستاني وطرد من الباكستان .

وسافر بعدها إلى الهند حيث تزوج ابنة مهراجا مما دعا « القوالين » إلى البحث في اصله ، واتضح كونه عراقياً وسفّرته السفارة العراقية إلى بغداد حيث امر الزعيم طاهر الزبيدي باحالته إلى المحاكم بتهمة سرقة اكياس طحين منذ فترة طويلة حين كان يتعامل والجيش العراقي (حوالي عام ١٩٤٦) .

وفي السجن طلب من رئيس التوقيف الاتصال هاتفياً بشاكر باشا الوادي ، وزير الدفاع العراقي ؛ طالباً مواجهته لأمر هام (كان ذلك حوالي ١٩٥٠) . وحين التقيا قال له : « لدي امر هـــام جداً أريد ابلاغه للوصي على عرش العراق ، وهو سر عظيم لا أستطيع البوح به الا للوصي شخصياً . »

وتم اللقاء مع الوصي فقال مهدي النجار : « بصفتي عسكرياً سابقاً أنبني ضميري، وأريد أن ابلغك بمؤامرة تحاك حولك للاطاحة بك ، ومركزها دمشق وبيروت . » وسأله الوصي : « من تعرف من هذه الزمرة ؟ » فقال :

« لا أعرف أحداً إلا انا ! هذه الزمرة مؤسسة على شكل تسلسل هرمي ، وفي استطاعتي ان اكشف لك اسرارهم إذا ... اطلقت سراحي . »

وأطلق سراحه . وزود بالنقود . وشوهد ليلتها ينفق بسخاء على غانيات بغداد مودعاً ومعلناً ذهابه إلى سورية .

واشعل الطبيب لفافة ، وتابع سرد « مغامرات » القتيل — المنتحر (أم تراه ما زال حياً ؟!) : ولعل أبرز ما فيها هو ان مهدي النجار اليعقوبي أدى الدور نفسه امام حسني الزعيم ، وبلغه انه موفد من قبل الوصي لاغتياله !!!

ثم ،

ثم شوهد فجأة في بغداد بعد مقتل حسني الزعيم ، ولا أعلم ما اذا كان قد اخبر الوصي بانه كان مساهماً في قتله أم لا ! .. (هكذا تابع محدثي روايته ، واحسست انني اطل عبر صوته على كوة صندوق العجائب !) قال وقد اشعل لفافته العاشرة على الأقل : توجه بعد ذلك إلى الكويت في طريقه إلى السعودية حيث هرب ٢٠ سيارة « لوري » محملة بالسجائر والبضائع الغالية ، وكان مضطراً إلى اجتياز « باب الجهرة » بها — هذا الباب الذي ترينه امامك من نافذة الفندق — لذا قلد بعض الوثائق المزورة بامضاء رئيس الامن العام يومئذ . ونجحت الحيلة . ومرت السيارة الاولى ، ثم انفجر إطار السيارة الثانية . وبكل برودة اعصاب بدل اطارها ! ولكن السلطات الكويتية تنبهت للأمر بعد عبوره « باب الجهرة » بقليل ، فدهمته ... وألقي به في السجن ... وهرب ... وظهر فجأة في العراق مديراً عاماً لفندق « شط العرب » في البصرة عام ١٩٥٤ . ثم سافر إلى البحرين وتزوج بهوية ايرانية وتوجه نحو عبادان وحصل على الجنسية الايرانية وتعلم اللغة . ثم عاد إلى الكويت عام ١٩٥٥ واسس متجراً في شارع « المباركية » كان الشارع يومها قفراً ، غير مبلط ، وليس فيه غير عيادة طبيب انكليزي اسمه دكتور ايزي .

وفي ليلة ظلماء ، باع كل ما في الدكان بأبخس الاثمان واختفى . واتضح ان شريكه المسكين كان موقعاً على ثمن البضائع ! ثم توجه إلى مصر وافتتح مكتباً تجارياً . ثم إلى روما . ثم إلى برلين الغربية حيث تزوج من المانية أنجبت له الاولاد وتعلم اللغة الالمانية ...

قاطعته : وابنه ثائر هو من زوجته الألمانية ؟

— لا ، بل أمه عراقية .

قلت له : ابنه ثائر ملاحق حالياً من قبل « الانتربول » (الشرطة الدولية) ، ويشك في ان له يداً في الحادث ...

قال الطبيب مدهوشاً : ولكن ابنه ثائر مشلول ، كما سمعت ، فكيف يشارك في القتل ؟ !

يتابع الطبيب الذي كان المغامر يسر إليه بين وقت وآخر بحكاياه : واحضر مهدي النجار – البحراني – اليعقوبي زوجته الالمانية إلى الكويت وأسس مكتباً متنقلا في شقة من شقق فندق « سميراميس » في الكويت حيث كان يقيم ويعمل ... واخبرني يومئذ ان له اتصالات تجارية عالمية وصلات بكل الشخصيات التجارية في البحرين ومسقط والكويت ، وان له مكاتب تحمل اسمه في فرانكفورت وبيروت وعبادان وبرلين الغربية ...

وعدت اسأل الطبيب المطلع : متى شاهدته آخر مرة ؟

– قبل سنوات ثلاث في الكويت حيث زارني في عيادتي ، وكان ذلك آخر عهدي به ، حتى سمعت بانتحاره . وحين شاهدت في الصحف صورة المنتحر شككت في الخبر لان الصورة لا تشبهه ؟ أجل ! أنا لم اتعرف على صور الجثة التي نشرتها الصحف.

– ماذا عن احواله المادية ؟

– لا أحد يعرف عنه شيئاً . أحواله دائماً في صعود وهبوط . بدأ فقيراً لكنه في لقائنا الاخير حدثني عن امواله الطائلة . مر بازمات خطيرة وسار حافياً ومكبلاً بالاغلال وكان دوماً ينجو . ولم يلجأ إلى العنف قط ولم يُسمع عنه ذلك ...

– ماذا تظن ؟ من القاتل ؟ ولماذا انتحر ؟

– ربما هنالك عصابة كبيرة تحاول تحصيل المال ... عصابة استغلته لاستدراج المرحوم ع . س ثم تخلصت من الاثنين ... عصابة تحاول مثلاً الارهاب والابتزاز سواء من آل س أو من سواهم .

قلت له : هل كانت شخصيته عاطفية ؟ أي هل هو من النوع الذي يمكن أن يجلس لكتابة الرسائل قبل الموت مثلا ؟

قال : لا ، شخصيته لم تكن رومانتيكية ، وسر هذه الرسالة التي وصلتك يزيد الاشياء غموضاً ... ليتك تقارنين خطها بخطه ! ..

قلت : لقد حصلت على نموذج من خطه من آل س ، ولكن ما يدرينا ان خطه هو خطه ، وانه هو هو وانه هو أيضاً قتل ولم ينتحر !

قال لي الطبيب الذي له عينا كاهن صيني ووجه محبب وحنون : العراقيون في الكويت لا يصدقون انه انتحر ... والجميع يعتقدون بأن في الامر عصابة .. وان القاتل الحقيقي ما زال طليقاً ..

وتذكرت انني سمعت العبارة نفسها من أحد الاشخاص في مكتب آل الفقيد س.

وسرت رعدة في جسدي . وحين غادرني الطبيب مخلفاً وراءه منفضة مليئة بأعقاب السجائر أحسست انني اتأمل جثث السجائر بهلع ، وسارعت إلى الهاتف أحجز بطاقة في أول طائرة عائدة إلى بيروت .

ولم أكن أدري انني سأتابع رحلة الركض بحثاً عن حقيقة صغيرة لكنها ألهبت فضولي !

١١ / ٣ / ١٩٧٤

جريمة الرز المر (٥)

في برلين مع عائلة القاتل : رسالة تصف لحظات القتل !

تمطر . تمطر . منذ لحظة وصولي إلى برلين والمطر يجلدها بلا انقطاع ...

تمطر . تمطر . الشوارع فارغة . فقد بدأت عطلة الأحد الاسبوعية . لا إنسان . لا قطة . لا كلب . لا بومة . لا ذئب . لا شيء سوى سيارات تركض ، ومظلات تهرول على الأرصفة .

تمطر . تمطر . وانا اغادر فندق « كمبينسكي » لاستقل اول تاكسي أصادفه . قرأت للسائق العنوان الذي أقصده . فتح عينيه في دهشة واحتجاج وقال : ولكنه مكان بعيد ! .. بعيد جداً ! .. في ضواحي برلين ..

قلت : لكنني سأذهب ! ..

قال بانكليزية مكسرة تشوبها لكنة ألمانية حادة : سيكلفك ذلك كثيراً من المال .

قلت في نفسي : أرجو الا يكلفني أكثر من ذلك ! حياتي مثلاً ! ! !

فقد كنت ذاهبة إلى حيث لا أدري ! والتاكسي يركض بي في شوارع برلين تحت المطر ، وأفكاري تركض مثل شريط سينمائي بوليسي يستعرض الماضي القريب..

كنت ذاهبة إلى عنوان ذكره لي رجل كتب لي رسالة قبل أن ينتحر ! .. إني ذاهبة إلى عنوان الرجل — المنتحر ...

منذ أيام ، يوم تلقيت رسالة مهدي اليعقوبي ، القاتل المنتحر ، لفت نظري عنوان ذكره في رسالته ... عنوان في برلين طلب أن تشحن ثيابه إليه ، وان تحول ديونه اليه ... آه تلك الرسالة التي يروي فيها بعضا من كل شيء ، وبالأحرى يعطيني فيها مفاتيح حكاية عمره وأسماء أصدقائه وأعدائه ، تماماً مثل أحجية كلمات متقاطعة أستطيع حلها أو أرمي بها جانباً بضجر ...

وحتى الآن لم أشعر بالضجر أو بالخوف ! ..

قال في رسالته : « انني أرجو من أبي سعد صديقي ... أن يشحن ملابسي في « الهوليداي إن » وهنا في « الكومودور » إلى عنواني في برلين الغربية وهو ... »

وها أنا في طريقي إلى العنوان في محاولة اكتشاف المزيد عن هذه القضية المثيرة !..

التاكسي ما يزال يركض بي في شوارع المدينة الفارغة ، والافكار تقفز من دهاليز الذاكرة المزدحمة ...

أجل ، قضية مثيرة ! ..

فمهدي اليعقوبي القاتل — المنتحر يعترف في رسالته بقتل ع . س وبأنه فعل ذلك وحده بلا شريك ... ولكنني تبينت في ما بعد أن اليعقوبي نحيل وقصير القامة والقتيل يقارب وزنه ٨٦ كلغ ، وجثته وجدت ملفوفة بالنايلون ومحمولة إلى مخبأ ، وهو أمر لا يمكن لليعقوبي أن يقوم به وحده . فمن هو الشريك ؟ ..

الابن ثائر اليعقوبي ؟ ولكن الابن ، كما قالوا في الكويت ، مريض وعاجز عن القيام بهذا العمل الذي يتطلب طاقة جسدية هائلة ... من إذن ؟ في الكويت أجمع أصدقاء القتيل والقاتل على أن في الامر طرفاً آخر ... أصابع مجهولة وقع اليعقوبي في قبضتها واستغلته ؟ عصابة ؟ ..

والعنوان الذي أنا في طريقي اليه ، هل يمكن أن يكون مقر العصابة ؟ ..

تمطر . تمطر . والتاكسي يكاد يغادر برلين ويقطع جسراً إلى ضاحية الغموض والاسرار ... تذكرت مَثَلاً شعبياً دمشقياً كانت جدتي تطاردني به : « اللي بيمشي بين القبور بيشوف منامات وحشة ! » أي : « من يمشي بين القبور يحلم أحلاماً مزعجة» ... وكدت أصرخ بالتاكسي : قف في منتصف الجسر وعد بي .

لكن صوتي لم يخرج من حلقي . وقطعنا الجسر وانتهى الامر ... هنالك سر آخر يثير فضولي : الدكتور الجليل الذي قابلته في الكويت ، والذي كان يعرف المنتحر معرفة وثيقة ، قال لي انه يشك في أن اليعقوبي ميت أو منتحر . لماذا ؟ لانه ببساطة — لم يتعرف على صورته التي نشرتها له الصحف بعد الموت ! .. قال لي انها تختلف كثيراً عن صديقه الذي يعرفه ! .. ما معنى ذلك ؟ هل يمكن مثلا أن أصل إلى العنوان الذي أنا في طريقي اليه ، وأقرع الباب ، فيفتحه مهدي اليعقوبي بنفسه مثلاً ؟ أم تراه حقاً جثة هامدة ؟ واذا كان هذا العنوان هو حقاً عنوانه ، كما يذكر في رسالته ، وهو قد مات ، فمن يمكن أن أجد هناك ؟ أم أن الباب سيكون موصداً ، وسأقرع الجرس طويلاً ولن يجيب أحد ، وسأكون قد قطعت آلاف الكيلو مترات من بيروت إلى

برلين الغربية دون جدوى ؟!.

ولكن لا .

حدسي يقول لي انني سأجد شيئاً ما . وأنا أؤمن بالحدس أحياناً أكثر مما أؤمن بالعقل ... وأذا لم يؤيد حدسي استنتاجاتي العقلية أهملتها فوراً ! ..

« دانتفالدزفيج » ...

هذا هو اسم الضاحية ، المذكور في الرسالة ... سألت الصديق محمود مهتدي — من « الميدل ايست » — حين مررت بمطار فرانكفورت : ما معنى هذا الاسم ؟ ..

قال لي : معناه طريق الغابة ! .. بالضبط : « طريق غابة الارز » ...

اذن انا ذاهبة إلى « طريق الغابة » ... الاسم بوليسي الايحاءات ... تذكرت حكاية « ليلى والذئب » ... ليلى التي ضاعت في الغابة والتهمها الذئب ، وتخيلت بيتاً منفرداً نائياً تحيط به غابة ، وبدلا من الخوف ، تدفق الدم في جسدي وشعرت بنشوة المغامرة واكتشاف المجهول وانتظار المفاجآت .. أي كابوس من الرتابة تصيره الحياة حين يرحل الانتظار والخوف والمفاجأة ؟ ! .

تمطر . تمطر . السائق يضايقه صمتي . يقول لي : هل أنت سائحة !

لم أجب . لم أقل له : نعم انا سائحة في دنيا « مافيا » المال ورجال الاعمال ! .. خنجري قلمي ولا أملك سواه سلاحاً ! . يزيد في سرعته . يقول لي : لقد وصلنا إلى « دانتفالد زفيج » . أي رقم تريدين ؟ وقلت له الرقم ... رقم البيت ...

« دانتفالدزفيج » ... طريق الغابة ...

ولكن أية غابة ؟ انها غابة من الاسمنت والحجارة ، والابنية الشاهقة وأغصان « انتينات » التلفزيون الكثيفة ...

ما أبشع غابات التكنولوجيا والعالم المعاصر ! ..

قال لي السائق : هذه ضاحية جديدة تنضم إلى برلين وتتألف من ١٥٠ ألف مبنى وظللت صامتة ... وأنزلني السائق ومضى ...

ووقفت في الشارع الخاوي — والمطر يجلدني — أحدق بذهول . انقضت عشر دقائق وأنا على الرصيف المجاور أرقب البناء الذي اعتزم دخوله . ولم تمر بي غير سيارة واحدة . لا اتوبيس . لا انسان . لا قطة . لا ذئب . لا بومة : لا أحد . وفجأة ومضت في رأسي فكرة : ولكن ، كيف أعود إلى برلين اذا لم أجد أحداً « هنا »؟!..

وتذكرت أيضاً انني لا أعرف كلمة واحدة باللغة الالمانية غير «اوف فيدرزاين» أي

وداعاً !

لماذا لم أطلب من السائق الانتظار؟ . أم تراني لن أعود أبداً؟! . «أوف فيدرزاين» يا أنا ؟ ! .

لحظات القلق

أمام الباب الزجاجي وقفت اقرأ الاسماء ، ولصق كل اسم جرس . والباب موصد . قرأت الاسماء كلها فلم أجد اسم اليعقوبي أو مهدي أو أي اسم آخر مشابه أو حتى شرقي الوقع ! كل الاسماء بدت لي ألمانية ، وكل الابنية المغسولة بالمطر بنوافذها الموصدة وستائرها المسدلة بدت لي عدوانية ! .. وظلت تمطر وتمطر .

ولكن ، اذا كان مهدي اليعقوبي قد ذكر هذا العنوان لشحن ثيابه ونقوده اليه فلا بد أن تكون هنالك علاقة ما ... صلة ما ... لا بد من خيط بين اليعقوبي وهذا البناء الصامت ! .. ولكن أي من الاسماء العشرة على الباب هو الخيط ؟ كيف أعرف اذا لم اسألهم واحداً واحداً ، وكيف استجوبهم وأنا لا أتحدث الالمانية ، ومبتلة بالماء مثل امرأة قادمة من المطر ...

المفروض أن أعود . لكن حدسي يقول شيئاً آخر ! ..

تمطر . تمطر . والمطر يحمل معه الصمت . لولا المطر ، لوجدت عجائز الحي جالسات على الارصفة يتشمسن مثل تماسيح نيلية سعيدة هرمة ، يثرثرن بملل ، ويفرحن بأي عابر سبيل مثلي ولسألتهن عنه ولسمعت الشيء الكثير ... لماذا لم يكن عنوانه في السودان مثلاً أو أي بلد حنون آخر تغسل الشمس أزقته وتخرج سكانه من قواقعهم وأصدافهم ؟ ..

وقفت طويلاً ، ثم ضجرت ، ثم ضربت باب المدخل الخارجي للبناء برجلي في نزق طفولي ، فاذا به ينفتح ! .. هكذا ببساطة يفتح أمامي كما لو قلت : إفتح يا سمسم

عبرت العتبة إلى الداخل وتذكرت كل الافلام البوليسية التي طالما شاهدتها وقلت لنفسي : الآن سيقبض علي بتهمة السرقة !

قرب الباب مجموعة من صناديق البريد . وقفت أتأمل الاسماء .

وفوجئت باسم اليعقوبي !!!

صندوق بريد فقط ، ولكن لا بيت ولا جرس ! كيف ؟ !

(أيها الرجل الذي كتب اليّ قبل أن ينتحر ، هل كنت تعرف انك ستضطرني إلى الركض بحثاً عن ملامحك النفسية الحقيقية في مدن العالم ؟ لو علمت ، أما كنت على الاقل وضعت اسمك على الباب ، من الخارج مثلاً ، ووفرت عليّ هذا كله ؟ بل لماذا لم تكتب الحقيقة كلها وتوفر هذا كله ؟ بل لماذا كتبت على الإطلاق ؟ !!)

تسلقت الدرج ، وقررت ان أقرع الابواب كلها بالترتيب ...

الباب الاول لم يجب .

الباب الثاني في الطابق الاول ، وعليه اسم « أكسو » ، انشق عن شاب الماني المظهر ، وسيم ، في السابعة عشرة من عمره ، كما قدرت . قلت له بالانكليزية : اليعقوبي ؟ أين منزل اليعقوبي ؟

اتسعت عينا الشقراء التي وقفت خلفه وقالت : ماذا تريدين منه ؟

قلت : أريد أن أتحدث اليه أو إلى من يعرفه . أين ؟ ..

قالت : هنـــا . تفضلي بالدخول . ودخلت إلى حيث لا أدري وأغلق الباب خلفي ! ..

الشقراء الجميلة

السيدة شقراء ، ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، فارعة الطول جداً وجميلة الجسم واسمها إنجا ... والشاب طيب وبريء ووسيم . ما موقعهما من الحكاية ؟ ..

في البداية كانت محاولة التفاهم صعبة جداً . فالسيدة إنجا هي الزوجة السابقة للمنتحر مهدي اليعقوبي ، والشاب ابنه ! .. وأنا ؟ من سلك البوليس ، كما توهما ! .. فكيف نتفاهم ؟ ..

نصف الساعة الاولى انقضى في اقناعهما بانني لست من البوليس . نصف الساعة الثاني انقضى في حديث لعبا هما فيه دور الصحافي وأنا أرد على الاسئلة . نصف الساعة الثالث انقضى في ابتلاعهمـــا لزجاجة نبيـــذ . وأخيراً بعد نصف الساعة الرابع بدأ الحوار ! ..

قلت لانجا ، الحسناء الالمانية التي لولا آثار الهم والقهر والتعب في وجهها لكانت جميلة جداً : لقد طرت آلاف الكيلو مترات لأتحدث إليك . وقضيت ساعة لأثبت براءتي من تهمة « البوليس » . انك الآن مع صحافية كتب لها زوجك — الذي لا تعرفه — قبل موته ... قولي لي الحقيقة ، أو الجزء الذي تستطيعين قوله منها .

قالت بانكليزية شبه جيدة : ليس لدي ما أخفيه . لا أعرف شيئاً عن الحكاية كلها. صحفكم لا تصلنا ، ونحن لا نعرف العربية .

قلت لها : ما سبب استجوابك لي إذن ؟

قالت : هذه الرسالة . ونهضت ، واحضرت لي رسالة تاريخها يوم ١٩ كانون الثاني (أي بعد القتل بيوم وقبل الانتحار بيوم، وهو تاريخ الرسالة المرسلة اليّ . أي انه كتب لزوجته هذه الرسالة قبل انتحاره كما فعل بي !) ...

وببساطة أعطتني الرسالة ... وبدأت اقرأ بذهول ! .. انها رسالة وداع كتبها المنتحر لها قبل موته . انها مكتوبة بالانكليزية . بالحبر والقلم نفسيهما اللذين كتب بهما اليّ ! الورق نفسه أيضاً ! الظرف نفسه ! خاتم البريد يشير إلى اليوم نفسه ، والرسالة مضمونة كرسالتي

يبدأ الرسالة بوداع زوجته إنجا . يقول لها : حين تصلك هذه الرسالة أكون قد انتقلت إلى عالم آخر ...

وبدأت اقرأ الرسالة . واترجم هنا أهم ما ورد فيها .

يخاطب مهدي اليعقوبي في الرسالة زوجته ويحدثها عن المرحوم ع. س ويسميه « مستر تاول » نسبة إلى شركته « دبليو . جي . تاول » في الكويت . يقول : تذكرين « مستر تاول » الذي عملت معه ؟ لقد ربحت واياه أكثر من مليوني مارك ... ولم يدفع لي حتى الآن ... طلبت منه أن يأتي إلى بيروت لنتفاهم ، وجاء . وهناك ، ماذا حدث ؟ لقد شهر علي مسدسه وأطلق النار في غرفتي في أكبر فندق في بيروت . أطلق الرصاص مرتين . أمسكت به فسقط فوقي . أمسكت بمسدسه ولكنه تابع اطلاق النار ، وخرجت رصاصة أو رصاصتان في جسده ... وسقط ... مات ... من كان يمكن أن يصدقني اذا رويت الحكاية ؟ حاولت الهرب ، ولكن إلى أين أذهب ؟ .. »

هذا جزء مما جاء في رسالة اليعقوبي إلى انجا في برلين ، وقد حاولت اقناعها باعطائي الرسالة لتسليمها للتحقيق لكنها رفضت طبعاً وقالت : لكن البوليس لم يبلغني رسمياً بموت والد اطفالي الثلاثة ! ..

وأنا اتابع قراءة الرسالة ، دخلت إلى الغرفة فتاتان حلوتان ، الكبيرة عمرها ١٦ سنة واسمها ثائرة ، والصغيرة ١١ سنة واسمها ياسمينة ، والابن اسمه فراس ... وأحاطوا بي بوجوههم البريئة ينتظرون كلمة مني تخبرهم عن مصير والدهم بينما سألتني أمهم : وهل انتحر مهدي كما قال في رسالته ؟ هل مات ؟ ..

ماذا كنت أستطيع أن أقول لهم ؟ .. لستة عيون طفلة بريئة تنتظر من فمي كلمة اعدام والدها ؟ ..

قلت لهم : لا أدري ! أنا لا أعرف والدكم وقد شاهدت صور رجل منتحر في « الكومودور » ولكن كيف لي ان اؤكد انه والدكم ؟!.

... والأطفال يضرسون

فراس لطيف ووديع . أخته ثائرة تعشق العصافير . ياسمينة تحاول ألا تضحك كي لا تبدو اسنانها اللبنية المقتلعة التي هي في مرحلة التبديل . يلفظون أسماءهم العربية بلكنة المانية حتى كدت في البداية لا أميزها ... العادات العربية متأصلة في البيت ، اذ ما كادوا يطمئنون إلى انني لا أريد بهم شراً – أو بسواهم – حتى بدأت طقوس الضيافة العربية في البيت ... مرطبات وشراب وتدليل بالألمانية ولكن على الطريقة البدوية ! ..

الاطفال كلهم في المدارس . من يعيلهم ؟ الام المسكينة التي تعمل ممرضة في أحد المستشفيات .

قلت لها : هل يرسل اليك والدهم النقود ؟

قالت : منذ مدة طويلة انقطع عن إرسال النقود ، وكان يكتب باستمرار انه ينتظر ان يدفع بعض الاشخاص ديوناً له بذمتهم .

قال فراس : لم نره منذ العام الماضي .

قالت ثائرة : كان ينتظر تحصيل نقوده ليحضر الينا كعادته محملاً بالهدايا .

قالت ياسمينة : متى يحضر ؟ ..

قطع الحديث دخول شاب شرقي الملامح ، ملتح ، في الثلاثينات من عمره ، وجهه ضاحك .

وقالت انجا : هذا هو زوجي حالياً . انه مسلم تركي ويعمل نجاراً .

حاولت ان أحاور زوجها الثاني فلم يرد علي بغير ابتسامة ودية وصمت وسكب مزيداً من الشاي في قدحي .

قال فراس مفسراً : انه لا يتحدث غير التركية والالمانية .

كانتا لغتين أجهلهما ، لذا فقد عدت إلى الحوار مع الأم وأولادها . سألتها : اذن انت ومهدي اليعقوبي مطلقان ؟

قالت : أجل ! انفصلنا حوالي عام ١٩٦٩ ، وتطلقنا عام ١٩٧١ ، ولكننا كنا دوماً صديقين يربط بيننا وجود الأولاد .

قلت لها : اعذريني ، ولكن هل كان العنف سبب الطلاق ؟ هل سبق له أن حاول قتلك مثلاً أو قتل أي إنسان آخر أو تهديده ؟

قالت : هذا لم يحدث قط . سبب الطلاق هو عدم استقرار مهدي وحاجتي أنا إلى الاستقرار . لقد عشت معه ١١ سنة كنا نتنقل فيها باستمرار بين بغداد والكويت وبرلين وايران . وقد تعبت ... تعبت من التشرد مع أولادي ، وكان الطلاق ... ولكنه رجل بعيد كل البعد عن العنف ... (تذكرت أيضاً كلمات صديق المنتحر في الكويت الذي قال لي : مهدي ليس من النوع الذي يقتل أو ينتحر . في القضية سر غامض يجب الكشف عنه . فريق ثالث . عصابة !) .

سألتها : ألا تعتقدين اذا بأن زوجك السابق قاتل ؟

قالت : أبداً . وهو في رسالته الي يعترف بحدوث القتل خطأ وبداعي الدفاع عن النفس .

ثائر ... مريض بالقلب !

قلت لها : هل تعرفين ابنه ثائر ؟

قالت : طبعاً . انه شاب في التاسعة عشرة من عمره تقريباً .

– البوليس يعتقد بأن له ضلعاً في حادث القتل !

شهقت بدهشة : ولكنه مصاب بمرض القلب ويتعالج باستمرار ، وحياته في خطر .

– قيل لي انه مشلول .

– ان مرض القلب يجعله بمثابة مشلول لانه عاجز عن اداء أي جهد عضلي كبير ! ..

قلت لها : اذن من لف جثة القتيل عبد الامير . س وحملها ورفعها وأخفاها في غرفته في فندق « الهوليداي إن » ؟ ..

قالت : لا زوجي السابق النحيل ولا ابنه المريض بقادرين على ذلك ...

اذن هنالك طرف ثالث حتماً ! ! ! تراها عصابة ، كما يقولون في الكويت ؟ ..

وانفتحت عيون الصغار حتى أقصى مداها ، وبدوا كأنهم يستمعون إلى حكاية بوليسية مشوقة ، لكنهم عادوا وتذكروا أن الامر ليس فيلماً تلفزيونياً (التلفزيون في الركن كان مطفأ) . وعاد الحزن يملأ عيونهم ، وعادت ياسمينة تسألني بصوت

يمزق القلب : أين أبي ؟ متى يعود محملاً بالنقود والهدايا ؟ ..

قاتل ... وأب رائع ؟

قالت انجا : كان اباً رائعاً . علاقته بأولاده وثيقة جداً . كتب لي أكثر من مرة عن صفقة « الرز المر » وعلاقته بشركة « دبليو . جي . تاول » . وكان ينتظر منهم ، على ما يبدو ، بعض النقود ليعود إلى المانيا . هكذا كتب لي في بعض رسائله الكثيرة الي وإلى أولاده ...

وعدت اطالع رسالة الوداع إلى انجا ، أم أولاده ، فوجدته يوصيها بالأولاد بقوله : « أرجو أن تعطيهم جواز سفر ألمانياً ، ولكن رجاء لا تدعيهم ينسون انهم عرب ! »

يقول فراس : أكاد أنسى اللغة العربية لقلة الممارسة ؛ أحب العالم العربي وقد رافقنا والدنا منذ أربع سنوات في اجازة إلى لبنان واستمتعنا بها جداً ... انني أكن للعالم العربي كل حب واعجاب وأتمنى أن أعود لزيارته ثانية ...

التلفون مكسور !

قلت لانجا : لقد اتصل مهدي بشقيق القتيل في لندن يوم ١٩ كانون – أي بعد القتل – وطلب منه تحويل نقود لعنوانكم ، أي لعنوان الاولاد . فهل وصلتك أية نقود أو مخابرة من أحد ؟ .

قالت : لقد حدث أمر غريب يوم ١٩ كانون (بعد القتل ، ويوم تاريخ رسالتها ورسالتي) ، فقد تلقينا حوالي الساعة ١٢ ظهراً مكالمة هاتفية . بالضبط ، اتصلت بي عاملة الهاتف وقالت : هنالك مخابرة خارجيـــة لكم ... ولكن أحـــداً لم يتكلم . لم يتكلم ! لم يقل شيئاً ؟ ظل صامتاً !

أتمنى لو أعرف سر تلك المكالمة الغامضة ! هل ألغيت ، أم كان هنالك شخص صامت على الطرف الثاني من سماعة الهاتف ؟

وانفجرت إنجا فجأة : ولكن ماذا حدث لمهدي ؟ من حق أطفاله ان يعرفوا ان كان قد مات حقاً أم لا ، واذا كان قد مات فأين دفن ؟ .. يجب ان يعرف الناس ان له ثلاثة اطفال قصر كلهم تلامذة في المدارس وهم في حاجة إلى النقود . واذا كان هنالك من هو مدين لوالدهم ، ألا يشعر بأن الانسانية تستدعي وفاء الدين للأطفال

الأبرياء ؟ ..

القتيل ... ليس أبي !

سألني فراس : هل تحملين معك صورة جثة الرجل الذي وجد منتحراً . في « الكومودور » لنعرف ما اذا كان القتيل والدنا أم لا ؟ ..

قلت له : آسفة فعلاً لانها ليست معي . (حتى ولو كانت معي لما أطلعتهم عليها . فأنا هنالك لأجري حديثاً صحافياً لا لأكون « ورقة نعوة »! هل أستطيع أن أقول لثلاثة أطفال أبرياء يسكنهم الانتظار : بالتأكيد مات والدكم ! .. ثم انني لا أعرف أصلاً ، إذا كان قد مات حقاً أم لا ، خصوصاً وأن صديقه في الكويت لم يتعرف عليه في صورة المنتحر !)

قلت لهم : سأصف لكم صورة القتيل . له لحية ... و ...

قاطعتني ثائرة : والدي كان دوماً بلا لحية ... مرة واحدة فقط أطلق شاربين رفيعين .

قلت : المنتحر ، في الصورة ، له لحية وليس له شاربان !

قالت انجا : هذا غريب جداً ! .. لقد عشت مع مهدي ١١ سنة لم يطلق خلالها لحيته مرة واحدة ! ..

قالت الصغيرة ياسمينة ذات الاسنان اللبنية المقتلعة : له أسنان أمامية اصطناعية ...

تابعت انجا : وقد صنعها له طبيب أسنان في بيروت ...

سألتها : هل هذا الخط في الرسالة هو خطه ؟

قالت : نعم . اني واثقة من ذلك انه يشابه خطه في بقية رسائله الي طيلة سنوات...

قلت لثائرة ، ابنته الكبرى : هل تتحدثين العربية ؟

قالت : بدأت انسى العربية ، وهو أمر يحزنني ... أنا الآن في الصف التاسع وأخي في الثامن ، وقد تتاح لنا الفرصة بعد متابعة دراستنا لتذكر العربية ...

بدأ الحوار يصير حميماً وأقرب إلى الهذيان الموجع .. قالت انجا : لقد عشت معه ١١ سنة . لم يكن شريراً ، وليست لديه ميول للقتل ... أي شيء إلا العنف والقتل ! ..

أضاف فراس : لا يمكن لابي أن يقتل . انه بريء ، وأنا واثق من كل حرف جاء في رسالته الينا ... أو أن هنالك من أرغمه وزج به في هذه القضية .

وأخوك ثائر ؟

قال : انه انسان رائع وبريء .

تابعت انجا : أمه عراقية ماتت قبل زواجي بوالده ، اليوم عمره ١٩ سنة ولكن له مظهر ابن ١٥ سنة ، وقلب طفل . لقد تمنيت أن أربيه بنفسي لكن والده تركه مع جدته في البصرة بعد وفاة والدته ، وكان ذلك قبل زواجنا !

اذن من القاتل المحترف الذي لف الجثة وطواها ؟ من القاتل ذو القوة الجسدية ، الذي استطاع أن يزرع الهلع في بيروت والكويت وحتى برلين ؟

لا أدري ! ..

كل ما أدريه هو انني غادرت الاسرة الصغيرة الطيبة وأنا أحس بالحزن العميق... لماذا لا تقوم السلطات بابلاغ اطفال مهدي اليعقوبي مصيره رسمياً ، وبموضع دفنه أو لمن سلمت جثته إن كانت الجثة جثته ؟..

غادرت العنوان وقد حللت لغز أحد السطور في رسالة المنتحر : الكلمات المتقاطعة ! حللت لغز العنوان البرليني وبقيت ألغاز أخرى كثيرة ... فهل أتابع ؟ ..

وفي الخارج كان المطر ينتظرني ليجلدني من جديد ... والشارع الفارغ . لا انسان. لا بومة . لا قطة . لا ذئب . لا تاكسي . لا أتوبوس . لا أحد .

وغموض القضية يزداد غموضاً وايلاماً .

٨ / ٤ / ١٩٧٤

جريمة الرز المر (٦)
القاتل هو ... أنت وأنا !!

حينَ طرت منذ أسبوعين إلى برلين لمقابلة اسرة اليعقوبي ، القاتل — المنتحر ، استقبلني في مطار فرانكفورت محمود . م من « الميدل ايست » ، وانقذني بما يملك من محبة الموظفين وثقتهم ، من مضايقات « الغستابو » الالماني المعاصر المسلط على الزوار العرب الذين يلقون « اهتماماً خاصاً » جداً بتفتيشهم واستجوابهم ... وهو أمر لم اتعرض له بفضل محمود . م ، وإن كنت تعرضت لاستجوابه هو على اية حال ! ...

سألني بينما انا انتظر طائرتي إلى برلين : لماذا انت هنا ؟

واخبرته القصة باختصار ، وكيف ان ملاحقتي لوقائع الجريمة بين بيروت والكويت تشير إلى وجود عصابة خطرة ومنظمة ، وانني ذاهبة إلى عنوان في برلين ذكره في رسالته طالباً تحويل النقود اليه ، وانني لا اعرف بعد من سأجد في هذا العنوان — ربما وجدت رصاصة في انتظاري ، أو باباً موصداً يعوي خلفه كلب ضخم مخيف ، أو لا أحد على الاطلاق ! ..

وسألني : الست خائفة ؟ .. قالها وجسده هو شخصياً يرتعد خوفاً من حكايتي !

قلت له : نعم خائفة ، ولكنني لا أملك الا أن أذهب .

لم أقل له أن الشعور بالخوف يمتعني . الحس بالخطر الذي يدفع الدم إلى الجسد المحنط بالروتين ، فتستيقظ خلايا الروح الكسول ... الحس بالخطر الذي يشحذ الحواس ، ويجعل الحياة رقصة موجزة على حد سكين .

ولم اقل له ايضاً ان رسالة ذلك الرجل القاتل — المنتحر زلزلت أركان روحي ... هذا رجل يحتضر ، وها هو يكتب الي انا — بدلاً من الكتابة إلى كاهنه أو طبيبه النفسي أو حبيبته ... شعرت بان الكاتب مسؤول بطريقة ما عن قرائه ، وعن المعذبين منهم بشكل خاص ، المعذبين حقاً حتى الانتحار ..

شعرت ان خلف سطور رسالته سرا يريد مني ان اكتشفه ... وقد بذلت جهودي، فهل فشلت في كشف السر ؟ ..

بل إن الأمر كان أقرب إلى لعبة الكلمات المتقاطعة منه إلى السر ... ولكن رقعة الكلمات المتقاطعة التي كنت أحاول حلها كانت مزروعة بالجثث والقتلى والتهديدات، وبأيد خفية تمتد إلى أوراقي في الفنادق فتعبث بها وتفتش حقائبي ثم تعيد كل شيء إلى موضعه دون أن تدري انني تركت علامة لا ترى، ترشدني إذا ما عبث أحد بحقيبتي... وقد استطعت حل بعض الالغاز وربما كلها ... وربما لا شيء !

فلننس الآن ما لقيته في تلك الاسابيع ، ولنستعرض ما وصلنا اليه من حقائق . لكن ، وقبل ان نفعل ذلك ، أحب أن اؤكد حقيقة تتعلق بي : التفتيش عن الحقيقة بكافة صورها هي مهمة الفنان ، وهو أينما اصطدم بالغموض يستثار ... الحقيقة « تسبعك » وتجعلك تتبعها حتى آخر الدنيا ، تصيرك منوماً أو شبه منوم لا تملك إلا الولاء لها . .

حقائق ؟ أوهام ؟ ما الفرق

لا بد من الاعتراف بان كل لغز حللناه وجدنا خلفه ثلاثة الغاز أو أكثر ! كنا كمن يجاهد ليفتح قفل باب مغلق ، واذا به يجد خلفه باباً آخر له قفلان بدلاً من قفل واحد ! ونفتح القفلين والباب الثاني بعد طول عناء ، فنجد خلف الباب باباً ثالثاً له ثلاثة أقفال ، وهكذا ... سلسلة من الأبواب ، ولا شيء سوى دهليز ... ولكن من قال ان الحقيقة كانت تنتظر أي انسان قط داخل غرفة لتمنح نفسها له بكل بساطة ؟..

فلكي تلملم ملامح حقيقة ما ، لا مفر من ان تركض خلفها دهليزاً خلف دهليز ، وقد تلمسها مرات قبل ان تنطلق منك هاربة من جديد ... وانت في النهاية لن تمسك بها ابداً ، لكنك قد تصير قادراً على رسم صورة ذهنية لها من خلال عدد المرات التي استطعت لمسها فيها أو تحسسها عبر الحدس ، ذلك الرادار البشري الغامض ...

في رسالة القاتل — المنتحر نجده يعترف بقتل ع . س حاصراً الجريمة بشخصه وحده ... ولكن من خلال رحلتي إلى الكويت ومقابلة آل القتيل واصدقاء القاتل ، ومن خلال تحريات الزميل سعيد غبريس في فندقي « الهوليداي إن » و « الكومودور » تأكد لنا ان مهدي اليعقوبي لم يكن صادقاً حين كتب لي في رسالته قبل ان ينتحر قائلاً :

« انني اؤكد هنا لمن يهمه الامر ان لا شريك لي في كل عمل قمت به ، فلا حاجة

لجلب الناس والتحقيق معهم » .

وعملياً ، كان في وسع مهدي اليعقوبي النحيل ان يطلق الرصاص على عبد الامير سلطان ويقتله ولكن لم يكن في وسعه حمل جثمانه (٨٦ كيلو) بعد لفه بالنايلون وربطه واخفائه في مكان مرتفع ... وربما لذلك ذهبت شكوك البوليس إلى ابنه ثائر اليعقوبي و « الانتربول » لا يزال يلاحقه ... وفي البداية ظننت ان مهدي اليعقوبي في رسالته هذه يحاول التستّر على ابنه والقاء التهمة على نفسه بكاملها ، وبانتحاره تنتهي القصة ..

ولكن ثبت لنا ان ابنه ثائر مريض بالقلب وشبه مشلول بشهادة صديق حميم لليعقوبي في الكويت وشهادة الالمانية انجريد (انجا) ، الزوجة السابقة لليعقوبي وأم أولاده الثلاثة ثم ان ابحاث سعيد غبريس بين فندقي « الهوليداي إن » (حيث وقعت الجريمة) و « الكومودور » (حيث انتحر القاتل) اكدت ان هنالك من انتحل شخصية ثائر ، وان ثائر « الكومودور » هو غير ثائر « الهوليداي إن » بشهادة موظفي الفندقين ، الذين لم يتعرفوا على الصورة نفسها لثائر ... ترى هل كتب اليعقوبي رسالته اذن تحت الضغط والتهديد ؟ تراهم مثلاً (اعضاء عصابة مافيا لتهديد الاثرياء) خوّفوه واوحوا له بأن ابنه سيدفع الثمن إذا لم يتستر هو على سرهم ؟

هنالك أيضاً التهديدات الواثقة التي تتضمنها رسالة اليعقوبي ، وهي أيضاً تلفت النظر ... فهو يقول :

« ليعلم أ . س شقيق القتيل انه ان لم يحول لعائلتي حسابه فسألاحقه من قبري . »

فلنتوقف عند هذه العبارة « سألاحقه من قبري . » انها ببساطة تعني : « حتى ولو مت فسيكون هناك من يلاحق القضية ، وستستمر الجرائم اذا لم يحدث دفع الثمن . » انها تهديد من احياء موجودين على لسان رجل منتحر سيدفن .. هذا ، الا اذا كان اليعقوبي يؤمن بالتقمص ويعتزم ملاحقة القضية بعـــد حلوله في جسد آخر ، وهو احتمال مقبول كنكتة !

واذا عدنا إلى الحقائق التي جمعناها عن اليعقوبي نجد انه « مغامر » يحمل أكثر من اسم وجواز سفر وجنسية واحكام بالسجن ، ويحمل فوق ذلك كله احلاماً بالثراء والعظمة وقد وعد أولاده في المانيا بالعودة اليهم مليونيراً ... ولم يعد .

مليونير : تلك هي المأساة !

وتسألون معي : من القاتل ؟ من العصابة ؟ ..

أقول لكم : نحن .

نحن القتلة . نحن افراد العصابة . كل واحد منا فرداً فرداً هو جزء منها وهو يدري أو دون ان يدري ! ..

القاتل هو مفهومنا عن المال والرجال . القاتل هو قياسنا حجم الرجل لا بحجم انسانيته وانما بحجم دفتر شيكاته . القاتل هو مفاهيمنا الاجتماعية السائدة :

الفقير مجرم تطبق عليه القوانين وتمارس عليه كل المؤسسات سلطاتها ، اما الثري فأياً كانت جرائمه يستطيع ان يتملص منها كلها وان يأتي إلى بيروت أو أي بلد يشاء تحت اسم « المغترب الثري » أو « الاقتصادي الكبير » ، بل اننا نمجد اختياره لأي بلد يقرر توظيف نقوده فيه ، نقوده التي قد يكون جمعها بارتكاب الجرائم في حق الآخرين. **فنحن لانزال نقيس الانسان بحجم انتفاخ محفظة نقوده. والفرق بين المغترب الكبير وطريد العدالة هو أحياناً القدرة على أن يكون سارقاً كبيراً أم لا . فالسارق الصغير مجرم ، والسارق الكبير نخترع له دائماً أسماء أخرى في مجتمعاتنا الاستهلاكية القيم .**

الخطأ في بعض الانظمـــة الاقتصادية التي تسمح للبعض بثراء فاحش بينما تحرم الآخرين من ابسط بدهيات العيش الكريم وتكافؤ الفرص ...

الخطأ في انعكاس ذلك على المجتمع ومفاهيمه المشوهة المغلوطة عن القيمة الانسانية وربطها مباشرة بالثراء المادي ...

الخطأ في انتقال عدوى العصر المادي الآلي البشع ورؤياه المادية للانسان إلى بعض عالمنا العربي مثل وباء يجتاح الكرة الارضية بأكملها ، ويجتاح تراثنا العربي الذي كان يفترض فيه الصمود في وجه موجة بيع الانسان في المزاد العلني ...

ليس مهماً ان اذكر لكم اسماء مافيا المال ... كلنا شركاء في هذه المافيا ... كلنا نساهم في ترسيخ امتيازات الثراء ...

الرجل الصامت ، إذا كان ثرياً قلنا انه « متوازن » واذا كان فقيراً قلنا انه «معقد».

الرجل الضاحك ، اذا كان ثرياً قيل انه « صاحب نكتة » وان كان فقيراً قيل انه « مهرج » .

الرجل غير الوسيم ، اذا كان ثرياً قيل ان له وسامة خاصة وطابعاً مميزاً (جونر) واذا كان فقيراً قيل انه بشع الصورة ...

الرجل القصير النحيف ، اذا كان غنياً قيل انه شفاف ، وان كان فقيراً قيل انه « بلا رجولة » .

الرجل الكثير الكلام ، اذا كان ثرياً قيل انه « صاحب مجلس » واذا كان فقيراً سمي « ثرثاراً » ...

الرجل الفقير هو دوماً سارق اذا حاول السرقة .

الرجل الغني هو رجل اعمال – « بيزنس مان » – لأن « سرقاته » كبيرة .

الرجل الغني يستطيع التلاعب بالقانون . الفقير يسقط « عبرة » لغيره ...

في مثل هذه الخلفية الأخلاقية ولد اليعقوبي وترعرع ، وكان همه جمع المال بأية وسيلة . إنه جلاد وضحية في آن واحد كما نحن جميعاً وكما كل فرد في مجتمع غير انساني وغير عادل ...

تريدون اسماء محددة للقتلة ؟ ارقام جوازات سفرهم ؟ .. ليفتح كل منا جواز سفره أو ليقف امام المرآة ويرى فيها بعض وجوه القاتل الذي أداته رصاصة من ذهب ...

لقد ختم المحقق التحقيق في القضية واحاله إلى النيابة العامة لكتابة القرار الظني ...

وها أنا اختم التحقيق واحيله إلى النسيان .

السقطة

طيلة الايام التي اهتممت فيها بحكاية اليعقوبي وحياته المضطربة ، واحلام العظمة والثراء التي حولته إلى « فاوست » يبيع روحه للشيطان من أجل رغباته ، كنت استعيد كلمات رسالته ... كلمات مشوشة سيئة اللغة ، خالية من التركيز والوضوح ، ومع ذلك كان يخيل الي باستمرار انه يريد أن يقول لي شيئاً لم يستطع التعبير عنه جيداً . ففي رسالته رغبة هائلة في فضح الاخرين ونفسه معهم... وكان يخيل الي باستمرار انني اقرأ بين سطور رسالته الهزيلة عبارات البير كامو في كتابه الرائع « السقطة » ، كأفضل تعبير لم يعرف اليعقوبي كيف يسطره ... يقول كامو (ولو عرف اليعقوبي كيف يقولها لقالها) :

« ان البشر لا يقتنعون أبداً باسبابك وصدقك وجدية عذابك الا حين تموت . وما دمت حياً فان قضيتك مغمورة بالشك ... اني اقف مغطى بالرماد ، انتف شعري ، وتمزق وجهي المخالب ولكن بعينين نافذتين امام البشرية كلها اعيد على مسامعها فضائحي من دون ان احول بصري عن التأثير الذي أحدثه . واقول : لقد « كنت » أحقر الجميع . وهكذا « نحن . »

٢ / ٤ / ١٩٧١

الاسرائيلي التائه ، تائه حقاً ؟

كان صباحاً حزيناً وماطراً حين دخلت إلى باحة سجن صيدا ، وأغلقت خلفي الابواب ... لم أكن في طريقي لمقابلة مجرم عادي ... نشال مثلاً ... بل أحد المشتركين – عمداً أو خطأ – في جريمة نشل أرض فيها شعب آمن وحقول برتقال وزيتون وتلال مقدسة ونجوم صارت حزينة واسمها فلسطين ...

اسرائيلي . اسمه رينيه فرانشتان .

اعتقل في الناقورة يوم ١٨ اذار ١٩٧١ .

هارب من اسرائيل ...

قال للسلطات فور اعتقاله انه هرب من اسرائيل لانه يريد العودة إلى موطنه الأصلي في ولاية كاليفورنيا ؟؟ .

لماذا هرب ؟ ربما كان السؤال الموازي في الأهمية هو : لماذا ذهب ؟ ... ما الذي حمله على هجر موطنه الأصلي في كاليفورنيا ، وخلف أي سراب في اسرائيل كان يسعى ؟ ... وأية خيبة قذفت بهذا اليهودي « التائه » من جديد إلى حدود اسرائيل محاولاً عبثاً كسر قضبانها للخروج منها ؟ ... هذا (الأكسودوس) Exodus الجديد ما مدلوله خصوصاً وأن عدداً من حوادثه تكررت هذا الاسبوع ، وتوالى هرب المجندين الاسرائيليين إلى لبنان واحداً بعد الآخر ، وبدأوا يشكلون ظاهرة تستحق الدراسة ... ؟

(الاكسودوس أي « الخروج » ... رواية بيع منها أكثر من ٢٠ مليون نسخة للكاتب « ليون يوريس » تروي حكاية خروج اليهود من أرض « الميعاد » ، ارض فلسطين وسيناء منذ حوالي الفي سنة ، وتروي عودتهم « الظافرة » تحت اسم اسرائيل ...) فهل نحن اليوم أمام بداية ظاهرة (اكسودوس) يهودية جديدة معاكسة؟ ... يهرب فيها اليهود هذه المرة من اسرائيل ، ويخرجون باختيارهم ؟ ... أم اننا

أمام ظاهرة تسلل جاسوسي ذكي لفئات تدّعي الهرب من اسرائيل لدى القبض عليها ؟ أم اننا أمام نماذج مهزوزة لشخصيات واقفة على تخوم العقل والجنون ، راكضة وراء الشهرة بأية وسيلة أو سبب ؟ ...

ايا كان السبب ، وجدت في رينيه فرانشتان نموذجاً يستحق الدراسة والتفرس .

فان كان اسرائيلياً هارباً من جحيم تلك الدولة المبنية على الجماجم فمن المناسب أن نستمع إلى ما يقوله وإلى شهادته في اسرائيل على طريقة (وشهد شاهد من أهله) ...

وان كان جاسوساً متسللاً ، فليكن في حديثنا معه (حلقة تدريب) مع واحد من اذكى محترفي المهنة ...

وان كان معتوهاً ، ممزقاً ، ضائعاً ، فليكن في لقائي معه صورة عن حوار مع نموذج انساني بائس ، بائس بمطامعه وشروره وحقده العتيق ...

ربما كان رينيه فرانشتان واحداً من اولئك ... هارباً ... أو جاسوساً ... أو مجنوناً ... أو طالب شهرة ... وربما كان يمثلهم جميعاً في آن واحد ...

(أليس ذلك أقل ما يمكن لدولة عدوانية أن تعكسه على نفوس رعاياها ؟) ... وذلك اليهودي التائه ، ما حكايته بالضبط ؟ ... إلى أي حد هو مجرم ؟ وإلى أي حد هو ضحية ؟ ... ثم ، أليس كل يهودي تائه ، مزيجا مروعاً من مجرم وضحية ؟ ...

اليهودي التائه

عبرت باحة السجن . تسلقت الدرج الحجري المهترىء . اليوم هو السبت ، يوم زيارة المحكومين ، وراء الحديد البارد للقضبان تطل وجوه ، كل وجه فيها فتحة بئر دفنت فيها مأساة ... طفلة جاءت مع أمها عبثاً تمد اصابعها الرفيعة نحو أبيها عبر قضبان الحديد التي تفصل بين عالمين ، عالم الطفولة ... وعالم الذين غادروا الطفولة إلى الأبد ، وعلناً ... بل ان كل من يدخل السجن ، محكوماً أو متفرجاً يفقد الطفولة بطريقة ما إلى الابد ... ان تفعل أو أن تدري ، كلاهما موجع كطعنة خنجر..

وانا اليوم في السجن احسست بالخنجر وقد غار فجأة وبسرعة في احشائي ... ومع ذلك لم أكن اترنح حينما دخلت على السجين رينيه فرانشتان ، وفي عيني شريط راكض لحكاية انزلاق فلسطين في احشاء تنين الاستعمار ... وشريط صاخب لصرخاتي في المظاهرات في شوارع دمشق منذ اعوام ... ثم صرخاتي على شوارع سطور الصحف بقية اعوام عمري (فلسطين عربية) . بجسد تأملت رينيه

فرانشتان ، فقد كان هناك : في حيفا ... في يافا... في بيرزيت ... في القدس ... طولكرم ... رام الله ... في كل الاماكن التي أنا محرومة من حق الركوع فوق ارضها ، أو الرقص، أو حتى الانتحار !... وهو ايضاً هارب منها ... اتأمله ، وجهه صورة نموذجية لليهودي التائه ...

عينان ضيقتان لا تخلوان من خبث خاص جداً ... خبث لا يشبه الخبث البريء لثعالب الحقول والليالي ، وانما هو خبث حزين وداكن ومخنوق ، يذكر برائحة أوكار العبادات السرية لأديان تقدم لآلهتها قرابين من دم ضحايا بشرية حارة ... أوكار معتمة ، بلا نوافذ ، بخورها يأكله العفن وجدرانها مزارع طحالب سامة ...

ذقنه طويلة ومدببة الشعر ... وشعره لا يخلو من الشيب ... وشيبه مليء بهزيمة الشباب دون حكمة الكهولة ... مشيبه ليس ثلجاً على قمة جبل ناء . مشيبه صدأ أبيض ... رماد لموقد كان لا مفر من ان ينطفيء ...

قامته الضئيلة القصيرة شبه محنية رغم امتلائها ، كأنه يحمل على كاهله ٢٠٠٠ سنة من الحقد والتشرد وينوء تحت أمتعته وأحزانه التي ما زال يجوب الارض بها منذ عصر ما قبل المسيح ...

كانت صورته الخارجية نموذجاً مذهلاً لصورة اليهودي التائه ... وحينما تحدثت اليه اكتملت الصورة ...

حكاية عمرها ٢٠٠٠ سنة

رينيه لا يتحدث العربية ولا العبرية ... يتحدث الفرنسية والهنغارية والالمانية والانكليزية ... وبالانكليزية دار حوارنا ...

— رينيه اسم فرنسي ؟ هل فيك دم فرنسي ؟

— بل دم اوروبي . أمي هنغارية وابي كذلك ..

— عمرك ؟

— ٣٤ سنة .

(٣٤ سنة فقط ؟ يبدو لي وكأن عمره ٢٠٠٠ سنة ! فيما بعد ، بعد أن سمعت حكايته كلها ، تأكدت من ذلك !) ..

— أين ولدت ؟

– في بودابست .

– دراستك ؟ ...

– الصف الاول الجامعي في جامعة لوس انجلس . كنت اتخصص في « ادارة الاعمال التجارية»...لم انتم قط لاي حزب. كنت اصوت للريبابليكانز (الجمهوريين)...

– ما الذي حملك من بودابست إلى لوس انجلوس ، هذا قبل ان اسأل مـــا الذي حملك من لوس انجلس إلى اسرائيل ؟ ...

– هاجرت امي وزوجها إلى الولايات المتحدة منذ عام ١٩٥٦ وانا معهما ... وهكذا وجدت نفسي هناك ! ...

– بعد ان تركت الجامعة ، ماذا عملت ؟

– كنت أعمل استاذاً لحلاقي الشعر النسائي ... انا حلاق شعر نسائي محترف ! ...

– وهل انت هاوي جز رقاب ؟ ... هل انت (بارت تايم) جزار ، أم اية ريح قذفت بك إلى اسرائيل ؟ ...

– الحكاية طويلة . عمرها ٢٠٠٠ سنة ...

– ماذا تعني ؟ ...

– أعني ان أي يهودي في أي قطر من هذا العالم يشعر بطريقة ما بانتمائه إلى اسرائيل ... بالضبط ، انه بحاجة إلى هذا الانتماء ...

قال لي حرفياً بالانكليزية : انك لا تستطيعين فهمي . لا أحد يستطيع فهمنا ... حينما تكونين يهودية لا تملكين الا الارتباط باسرائيل بطريقة ما ...

– ماذا تعني ؟

– اننا قد نملك كل شيء وأي شيء الا الوطن . خلال ٢٠٠٠ سنة ونحن مضطهدون ومطاردون وبلا وطن ... ونحن مرفهون واثرياء وبلا وطن ... المهم اننا بلا وطن ...

– واسرائيل ؟ ...

– انها الارض التي وعدنا بها كتابنا . انها اليوتوبيا (ارض الميعاد) ...

– وهل بحثت عن مكان تنتمي اليه من قبل ؟ هل حاولت ذلك من قبل ؟ ...

– اجل . لقد حاولت . ويبدو انه لا مفر من ان استمر في المحاولة – اذا بقيت حياً – ... لانني لم انجح في أي من محاولاتي ... حتى في اسرائيل ! ... فبعد أن تركت جامعة لوس انجلس عملت حلاقاً نسائياً ... من عام ١٩٦٠ حتى ١٩٦٢ خدمت في الجيش الاميركي . كنت جندياً ، وتجولت خلالها في اوروبا . لا . لم أذهب إلى حرب

فيتنام ولا أية حرب سواها . تجولت بين المانيا وأوستريا (النمسا) وايطاليا وفرنسا .. بعد ان تركت الجيش ذهبت إلى كندا وإلى المكسيك ... عام ١٩٦٥ زرت هنغاريا مسقط رأسي ... ورغم تجوالي في أميركا من اقصى شمالها (كندا) إلى اقصى جنوبها ظللت غريباً ... ورغم عودتي إلى مسقط رأسي في هنغاريا ظللت غريباً ... عن اوروبا ظللت غريباً ... في كل مكان ظللت غريباً ...

— وفي اسرائيل ، غادرتك الغربة ؟

— بل استوطنتني ... ربما إلى الابد ! ...

— فلنترك الشعر ... حدثني عملياً ... واقعياً ، كما في الافلام الجاسوسية والبوليسية وكما في الجرائم ... حدثني كيف جئت إلى اسرائيل ؟ هل جئت عن طريق مؤسسة ، من اتصل بك ليجيء بك اليها ؟ ...

— جئت إلى اسرائيل دون وساطة أي فرد أو مؤسسة . جئت بناء على الدعاية التي امتلأت بها الولايات المتحدة .

— ما هي الصحيفة التي كنت تقرأها باستمرار ؟

— لوس انجلوس تايمز ... وغيرها ...

— ماذا كانت تقول تلك الدعاية ؟

— كانت تصور اسرائيل بالصورة التي لا يملك أي يهودي (وانت لست يهودية ولن تفهمي ما أعنيه) الا الركض خلفها ... كانت اسرائيل كما تصورها الدعاية هي جنة كل يهودي أينما كان ... سماؤه ومأواه الاخير ... كيهودي عاش في اوروبا وأميركا ، وجاب انحاء الارض ، احسست ان اسرائيل هي حيث يجب أن أكون ...

— وحملت سلاحك ، وشهرت خنجرك وذهبت اليها ؟

— لم أحمل أي سلاح . اشتريت بطاقة سفر وذهبت لأعمل في « الكيبوتز » هناك.. كان ذلك منذ ثمانية اشهر ...

— وكيف قضيت هذه الاشهر الثمانية المباركة في اسرائيل ؟ .

— كنت أعمل في (اللوندري) في هايالت هاشاهار ، قرب الجفونة ...

— لماذا لم تعمل حلاقاً للشعر مثلاً كما هو من المفروض ، لانه عملك الاصلي ؟...

— كان ذلك هو العمل الشاغر في الكيبوتز ، الغسيل والكي ...

(تخيلته في مكان ما هناك يغسل عن الثياب الوحل والدماء ...)

وتابعت : — هل طلبوا اليك الالتحاق بالجيش ؟ ... أو أي شيء من هذا القبيل ؟..

— ابداً لم يفعلوا ، اسرائيل ليست بحاجة إلى جنود وانما هي بحاجة إلى يد عاملة ...

— ولماذا تعتقد ان اسرائيل ليست بحاجة إلى جنود ؟ هل هنالك حس عام بأن هنالك من يحميها حتماً في حالات الطوارىء ؟ ام انه غرور ما بعد حرب الستة ايام ؟

ظل صامتاً . تجاهل سؤالي تماماً وكرر : كنت اعمل في (اللوندري) ! ولم اعمل مجنداً أو أي شيء من هذا القبيل ، ولم يطلب الي ...

— عظيم ... ولماذا لم تبق هناك سعيداً إلى الابد Happily ever after

— لانني لم أحس ايضاً بانتمائي إلى اسرائيل !

— بالضبط لماذا ؟ ...

— لانني لم أجد لنفسي مكاناً في مجتمعها ... I didn't Fit in

— بالضبط لماذا ؟

— لا أدري تماماً . ظللت أسير حس عام بالغربة . كنت وحيداً وبدأت متاعبي تتزايد !

— هل كانت لك صديقة ؟

— لا .

— صديق ؟

— لا .

— ولماذا لم تحمل جواز سفرك بكل بساطة وترحل إلى الولايات المتحدة كما جئت ؟ ...

— لان هنالك مشكلة تتعلق بجواز سفري لا أستطيع أن اتحدث عنها. (بعد الحاح شديد مني ، مباشر وغير مباشر ظل مصرا على كتمان حكاية « جواز سفره » وان كان قد تحدث عن شخص يدعى مستر شادار انتحل جواز سفره أو اعطاه لشخص آخر تسلل به إلى لبنان وعاد بعدها إلى اسرائيل ... بعد قليل عاد ليناقض نفسه وليقول ان الشخص الذي انتحل شخصيته قد ارتكب (جريمة ما) في اسرائيل . المهم انه حينما وصل إلى هذا الجزء من الحكاية بدت كلماته مفككة غامضة — لا أدري اذا

كان يتعمد ذلك أو يعنيه) .

ـ حسناً ... احسست بالوحشة في اسرائيل . بالغربة وخيبة الامل ... وقررت الهرب ... فماذا فعلت ؟ ...

ـ بدلت النقود التي احملها إلى دولارات ... ركبت الباص إلى أقرب نقطة من حدود لبنان ... ثم سرت ثلاث ساعات ووجدت نفسي داخل اراضيها ...

ـ لماذا اخترت لبنان ولم تذهب إلى سوريا ؟

ـ يخيل إلي ان مسؤولي لبنان أكثر قدرة على الحياد وهدوء الأعصاب ... اذ لا يستفيد احد من ايذائي ولا يحل ذلك اية مشكلة ...

ـ وماذا تتوقع من لبنان ؟

ـ السماح لي بالعودة إلى اسرتي في اميركا ... في ايلينوي ...

ـ اسرتك ؟ تعني امك ... بالمناسبة هل امك يهودية ؟ ...

ـ أجل . طبعاً ...

(لا أدري لماذا سألته)

ـ وهل زوجها هو والدك ؟ هل والدك حي ؟ ... هل أنت وحيد ابويك ؟ ...

ـ نعم أنا وحيد اسرتي ...

(وفجأة استحالت عيناه جمرتين من الحقد البائس وقال) :

ـ زوجها ليس أبي . أبي قتله الالمان في حمامات الدم خلال الحرب العالمية الثانية ! ...

(بدأت الصورة تتضح) .

سألته : كم كان عمرك حين قتل النازيون والدك ؟

ـ ٧ سنوات .

ـ متى تزوجت امك ثانية ؟ ...

ـ بعد وفاته بقليل .

ـ وهل تعتقد ان تحولك إلى نازي معاصر أي إلى اسرائيلي يقتل العرب هو الحل لمشكلتك ؟ ...

لم يجب . لست هنا على أية حال لألقنه درساً اخلاقياً ، كان يبدو مكسوراً ومرهقاً بما يكفي .

وعدت لاقول له : ـ حسناً . فلنتحدث عن ايامك (الحلوة !) في اسرائيل ... حدثني عما أحببته فيها .

ـ الطقس !

ـ ماذا كرهت فيها ؟ ...

ـ البيروقراطية . الاسعار المرتفعة بشكل لا يصدق ... بصراحة : ليست هناك تفاصيل هامة أرويها ... هنالك احساس واحد شامل وكلي : وهو انني لم أجد اسرائيل التي كنت أتوقعها ... ولذا (قلبي لم يبق معها) ...

ـ اذن دعاية اسرائيل مدهشة في العالم الغربي ...

ـ بل هي سيئة جداً ... الدعاية السيئة هي الدعاية الكاذبة ، ودعاية اسرائيل كاذبة . الدعاية الجيدة هي في نظري الدعاية الصادقة ...

ـ الا تشعر بان ولاءك لاميركا قد جرح حينما تخليت عن وطنك فيها ؟ ...

ـ اني نادم . منذ وصلت إلى اسرائيل احسست انني كنت بأحسن حال في اميركا..

ـ وهل أهلك على علمٍ بنبأ هربك ؟

ـ القنصل الاميركي هنا ابلغهم بذلك . آخر مرة كتبت لهم من اسرائيل لم أذكر لهم شيئاً عن هذا ...

(شيء ما في حديثه ، في صمته الخبيث الحسن التوقيت وفي اجوبته الدقيقة الاخفاء لكل معلومات محسوسة جعلني اسأله) :

ـ هل انت جاسوس متسلل أم هارب حقاً ؟ ...

ـ قلت لك انني هارب ، وكل ما اطمح اليه هو العودة إلى كاليفورنيا .

ـ هل سلمت نفسك أم قبض عليك في لبنان ؟

ـ التقيت بمزارع لبناني . لم يكن يفهم الانكليزية لكنه فهم فوراً انني من اسرائيل واقتادني إلى المخفر كما كنت أرجو ...

ـ كيف عوملت هنا ؟ ...

ـ تماماً كما كنت أتوقع ! ...

(انه ينتقي ألفاظه جيداً ، انني حائرة ايهما فيه صاحب النصيب الاكبر : المجرم أم الضحية) ...

ـ حدثني عن الفدائيين . هل حدث أن التقيت بهم مرة في اسرائيل ؟ ...

– لا أبداً ... هناك كنت اقرأ عنهم . لكنني التقيت بهم هنا في لبنان ، في زنزانتي هنالك بعض المساجين من فتح ! ...

مسرح اللامعقول العربي

صعقتني كلماته ! ...

أياً كانت الاسباب ، والتبريرات ، من المفجع ان يلتقي اسرائيلي بالفدائيين العرب للمرة الاولى في سجن لبناني ! ... وان يسجنوا معاً في زنزانة واحدة ... حينما اتحدث عن (مسرح اللامعقول) يقولون لي انه مسرح غربي مستورد ... يبدو اننا نحن سادة من ابتكر مسرح اللامعقول ... لا أستطيع ولا أريـــد ان افهم لماذا سجناء فتح وهذا الاسرائيلي والقتلة والنشالون ومهربو الحشيش ... كلهم في زنزانة واحدة ... في هذه اللحظة لم أعد ارى مأساة اليهودي التائه ، الغامض ، الحذر ، الماثل امامي ... بل اتسعت امامي مأساة العربي التائه حتى غطت وجه العالم ...

– فلنعد إلى حديثنا عن اسرائيل .

– ارجو منك ان تفهمي ظروفي . لا أستطيع أن أقول أكثر مما قلت . باختصار كانت اسرائيل مخيبة لامالي وكانت دعايتها كاذبة ، وها انا اتمنى العودة إلى كاليفورنيا ...كاوروبي اميركي ، ظروف اسرائيل ليست ما انشد ، انها لم تمنحني أي عزاء معنوي كما انها لم تمنحني مستوى حياة افضل ... هذا كل شيء ...

(الشاب الماثل امامي احسه ذكياً ومثقفاً ... وفي محاولة للتأكد اسأله) ...

– اجبني بسرعة ... من هو موسيقارك المفضل ؟

– ماندلسن (يهودي) . بيتهوفن . هاندل .

– سمعت انك حين القاء القبض عليك كنت تحمل كتاباً . ما هو ؟

– اتوبايوغرافي (السيرة الذاتية) للكاتبة بيرل باك .

– في اسرائيل ، من هي الدولة العربية التي تحس بأن الرأي العام يخشاها أكثر من سواها ...

– سوريا . سوريا نشعر بأنها غير مأمونة ولا ندري بم قد تفاجئنا !

(احسست بالفخر يغمرني . وبكل شراييني المليئة بدم سوري تنبض باعتزاز . فجأة غمرني الشوق إلى وطني سوريا التي لم أزرها منذ ستة اعوام . قررت ، سوف اخرج من هذه المقابلة وأمضي مباشرة إلى دمشق . للاسف : لم افعل) ...

ــ والدولة الاقوى استعداداً ؟

ــ مصر .

ــ والزعيم العربي الاشد رهبة ؟

ــ مات . (يقصد جمال عبد الناصر)

ــ والعرب في اسرائيل ؟

ــ لا أدري . لم اختلط بهم فانا لا أتحدث العربية ... حتى ولا العبرية ... وليس في الكيبوتز حيث كنت أعمل أي عربي ...

ــ ألم تزر مدن اسرائيل ؟ ... ألم تتجول فيها ؟

ــ بلى . ذهبت إلى حيفا ويافا وتل ابيب وغيرها ...

ــ والعرب هناك ، الا يعاملون بطريقة تشبه طريقة معاملة النازيين لوالدك ؟

ظل صامتاً لكن وجهه اكفهر لذكر والده ... من هناك بدأت المأساة . يوم قتل والده تم دمغه نهائياً بعقدة الاضطهاد ... ومن يومها واليهودي الضال يتشرد في العالم ... وجاءت اسرائيل ... وانجذب اليها وخرج منها في (الاكسودوس) الثاني وهو اشد خيبة ومرارة ... خرج منها انساناً لا حد لتمزقه ... اذ انني سألته : اجوبتك غامضة . هل انت خائف من بطش اسرائيل أم من رفض اميركا لك ؟

ــ لم أعد خائفاً من شيء . أشعر وكأنني ميت .

ــ هل انت معجب بالقادة العسكريين العظام امثال نابليون ؟

ــ لا . امقت الحرب ولا اعتبرهم عظاماً . اؤمن بانك لا تستطيعين تحقيق أي شيء عن طريق القتل والقوة ! ...

ــ تلك هي مأساتك . اذا كنت تؤمن بذلك ، كيف جئت إلى اسرائيل التي وجودها يرتكز على انتصار عسكري لا تحميه الا قوة السلاح والعدوانية ؟ ...

(حينما يتعلق الامر باسرائيل يبدو ان هذا المخلوق عاجز عن الفهم ، كأن هنالك حاجزاً يقف بينه وبين الموضوعية) انه يهودي تائه حتى آخر ذرة من دماغه قال لي : اني معجب بتشرشل ...

ولا أدري لماذا كنت واثقة من انه معجب بتشرشل لأن تشرشل حدد هدف بريطانيا ذات يوم : « استسلام المانيا النازية بلا قيد ولا شرط » ... وهكذا كان ...

إلى أين يمضي ؟

وبعد ، هذا اليهودي التائه ، الهارب من اسرائيل ، الخارج من أرضها أول مرة منذ ٢٠٠٠ سنة ، (ربما مرغماً يومئذ) ، والخارج من أرضها منذ اسابيع مختاراً ...
تراه فعل ذلك حقاً تحت وطأة خيبة الامل ؟ ... ترانا بدأنا نشهد الاكسودوس الاختياري ليهود اسرائيل ؟ ... أم ان نظراته المظلمة الحذرة تخفي سراً أبعد ؟ ...
لا أدري .

كل ما أدريه انني كنت أمام رجل خائب تعيس وممزق . قد يكون جاسوساً . وقد يكون طامعاً وفاشلاً . لكنه رجل ممزق ... من الواضح في عينيه انه تخلى نهائياً عن كل أمل ... ليس منذ دخل إلى سجن صيدا ... ربما قبل ذلك بوقت طويل ... بالضبط : قبل ذلك بثمانية أشهر حين ارتكب خطيئة الدخول إلى ملكوت دولة قائمة على العدوان والظلم وتشريد الابرياء ... كأنه مكتوب على اسوار اسرائيل ... مكتوب في مطاراتها وموانئها :

ايها الداخلون إلى هنا
تخلوا نهائياً عن كل امل
وإلى الابد .

عين غ تتفرس

في

الثلـــج

« البياض ليس غياب اللون وتخلفه عن الحضور . البياض حضور مضيء وأكيد ، وحشي كالأحمر ، وحاسم كالأسود » .

— ج . ك . شيسترتون —

« سقوط الثلج حدث سحري . ها أنت تذهب إلى النوم مخلفاً وراءك عالمك المألوف ، وعندما تصحو ، تجد نفسك في عالم آخر مختلف تماماً ! أليس في ذلك نوع من السحر ؟! » ..

— ج . ب . بريستلي —

« لا يستطيع الانسان أن ينسى القسوة الكامنة خلف جمال الطبيعة » .

— ماري ويب —

٧ / ١ / ١٩٧٢

الثلج : عدو للفقراء ، ديكور للأثرياء ، ووحيٌ للأدباء !

ثلج . ثلج . ثلج .

الثلج يرمي بجسده الابيض فوق جسد لبنان . يحتويه ويحتضنه كحكاية حب ... وكما الحب ، يبدأ رقيقاً شفافاً شاعرياً ، يندف في الاعماق احلاماً عذبة صغيرة ، كذلك الثلج ، يبدأ حنون الرقة ، يتطاير في الجو خفيفاً ... ينبت في الفضاء كأزهار اسطورية بيضاء صغيرة راعشة سريعة التلاشي ... يفور أمام عيوننا مثل كائنات اثيرية صامتة أرق من وهم النسيم — ليس فيها شراسة المطر وثرثرته ودبيبه الملحاح — ومع ذلك لا تكاد تنقضي ساعات إلا ونجده — كالحب — يهيمن على كل شيء ... يربض فوق كل شيء ... يدمر أو يقتل أو يبدع لوحات جمال وسعادة ... تماما كالحب ...

أن يهطل الثلج في الاسكيمو أو سيبيريا ليس حدثاً يلفت الانتباه ... (أن لا يهطل الثلج هو الخبر هناك) ...

أما هطول الثلج في بلد عربي ، فحدث لا نستطيع ان نمر به بلا مبالاة ... لقد ذهبت إحدى بعثات الاسكيمو الديبلوماسية إلى نيويورك في الشتاء ، والمعروف ان شتاء نيويورك شديد البرد وأكثر قسوة حتى من شتاء لندن ... وطلب أفراد البعثة من إدارة الفندق ان تكون غرفهم في الطابق الخامس والعشرين ، كما طلبوا إيقاف التدفئة المركزية (الشوفاج) عن العمل في غرفهم وفتح النوافذ لأنهم يشعرون بالحر ! ... لم تدهش إدارة الفندق كثيراً ، فالمعروف أن أهل الاسكيمو يعيشون في بيوت احجارها من الثلج المتجلد المقصوص على شكل أحجار بناء... ولكن يبدو أن أفراد بعثة الاسكيمو ظلوا يشعرون بالحر ، ففي الصباح لم يجدهم خدم الفندق في غرفهم . وحين بحثوا عنهم وجدوهم نائمين على السطح وبثيابهم الداخلية ! لا تضحكوا ! ... — هذه ليست نكتة — إنها حقيقة إنسانية — قد يكون في طريقة عرضها بعض المبالغة — .. إن من يعيش دوماً بين الثلوج يصير من بعضها ، ويستحيل إلى دمية ثلجية تتلاشى في

الدفء ... ونحن في بلادنا العربية – كما في أكثر بلاد الدنيا – لسنا دمى ثلج ، لذا ، للثلج في بلادنا حضور هام وكثيف نتوقف جميعاً امامه ، وان كانت ردود فعلنا تختلف في حضرته وفقا لاختلاف شخصياتنا وابعادنا الانسانية... بل ان موقف الناس من الثلج قد يشف عن موقفهم من الحياة ككل ...

الثلج في عصرنا ترف للغني ومزيد من الشقاء للفقير ...

ولقاء الثلج في لبنان باهظ الثمن أكثر من لقاء غوانيها .. ان الذهاب إلى الأرز أو إلى فاريا أو غيرهما من المرابع الجبلية التزلجية وقف على أصحاب الثروات الراغبين باستعراض قوتهم الشرائية (ما عدا قلة نادرة من عشاق الثلج للثلج لا الثلج للمظاهر)... هنالك مخازن خاصة ببيع ثياب الثلج ، ثمن الحذاء المبطن بالفرو فيها يفوق متوسط دخل الاسرة الشهري في لبنان بثماني مرات ونصف على الاقل ! ... وبالقياس إلى ذلك ليس صعباً تقدير ثمن بقية ثياب الثلج وعدة التزلج ولكنه حتماً يفوق كلفة التعليم الجامعي لطالبين فقيرين ... (هذا إذا لم نحسب أجرة المستشفى التي يدفعونها بعد ان يكسروا ساقهم أو غيرها من اعضائهم اثناء استعراض رشاقتهم ومهارتهم في الرقص على الجليد كالفقمة !) ...

ويبدو ان مرابع لبنان – الثلج صارت متخصصة في استدراج نوع خاص من الزبائن الذين يتنافسون على دفع الثمن الأغلى ارضاء لتطلعاتهم الطبقية لا (الثلجية) . فقد لوحظ انهم كلما رفعوا الاسعار في فندق أو مطعم ما ، كلما ازداد اقبال تلك الفئة المعينة (أكرر استثنائي لقلة قليلة جداً جداً من عشاق الثلج الحقيقيين) ، وكأنهم لا يدفعون أجرة الاقامة في الفندق وانمـا يدفعون ثمن (شرف) الانتماء إلى مـا يلقبونه خطأ بالمجتمع الراقي (هاي سوسايتي) ... ويصير الثلج هناك مسرحاً لعرض آخر الازياء وآخر الفضائح .

وتسود التقاليد الروسية ليلاً ، (تقاليد ما قبل الثورة طبعاً) من موسيقى ورقص ومظاهر ترف وشرب للفودكا مع كسر كل كأس بعد ابتلاعه حتى الثمالة ، وعبارة : سجل الثمن على الحساب ... وطبعاً يسجل (الجرسون) الثمن مضاعفاً مما يرضي الزبائن قبل صاحب المحل ! ...

وفي هذه السهرات التي تضيئها نار الموقد (الشمينيه) وتفوح منها رائحة الخمرة والشواء والضحك ، يخلع الكثيرون أقنعتهم ويخلفونها مع ثيابهم الرسمية ، ليكشفوا عن وجوههم الحقيقية القديمة ولكن ... للأسف ... وجوه أكثرهم صارت نسخة

طبق الاصل عن اقنعتهم لكثرة ما ارتدوها ... وتحت القناع يخرج قناع آخر . فقد اضاعوا وجوههم الحقيقية ولم يبق تحت القناع وجه ! ...

ومع ذلك يظل الثلج ناصع البياض ، ولا تعدم كثبانه إنساناً مرهف الحس ، يخرج اليه مع الليل ويسير وحيداً كذئب طفل ، مستسلماً لعالم من الرؤى ... وربما لدمعة ، ما تكاد تسيل من عينيه حتى تتجمد ! ... وربما متأملاً في عظمة الطبيعة واسرارها ، فكل ندفة ثلج هي تحت المجهر تشكيل لبلورات جميلة التكوين ، ولا توجد أبداً بلورة تتطابق تماماً مع بلورة اخرى بين ملايين ملايين ندف الثلج ... ان كل ندفة ثلج هي مثل بصمة اصبع انسان .. مختلفة تماماً عن اية بصمة اخرى ...

أول شروط الاستمتاع بالثلج هو ان تختار زمان ومكان معايشته؛ أي: ان لا تكون فقيراً !! ...

وهذا الصيف قضيته وأنا أحلم بالثلج !.. وأخيراً جاء الشتاء ومعه الثلج فبدأت أحلم بالصيف ... وذهبت إلى بيت أحد اصدقائي في قرية لبنانية متواضعة لأستمتع بالثلج بعدما حلمت به طويلاً بطول الصيف ، وليلة وصولي اليهم هبت عاصفة ثلجية وحاصرتني الثلوج ولم تعد العودة ممكنة قبل أربعة ايام على الأقل (على رأي خبراء الثلوج من أهل البلدة) ... وفجأة غمرني ضيق لا حد له ، أحسستني سجينة الثلوج فكرهتها رغم كل ما كان من توقي اليها ، فالحب والسجن لا يلتقيان ، والاستمتاع يرفض الاكراه ، ومجرد إحساسي بانني سجينة ومكرهة على البقاء فجّر في نفسي احساساً بالرفض الحاد ... لم أعد أرى من الثلج سوى برده ، وأحسستني تماماً مثل فتاة مسجونة في براد ... ذلك هو أقل ما يحسه (بروليتاريو) بلادي ، (وما أكثرهم)، حينما تحاصرهم الثلوج وتسلمهم الدولة لبراثن العزلة والصقيع ، فالثلج الارغامي تهديد لا على الصعيد النفسي فحسب ، بل وعلى صعيد اللقمة أولاً ...

قال لي عجوز نقطن قرية نائية : الثلج ذئب . انه يأتي على أغنامي ودجاجي ...

وقال لي آخر : الثلج جراد ... انه يقتل مزروعاتي ويقرضها حتى جذورها ...

وقال جار لهم : الثلج لعنة ... اذ يمرض أولادي المضطرون إلى السير على اقدامهم كل يوم إلى حيث مدرستهم في القرية المجاورة ...

وحينما يحمل الثلج منجلاً وجمجمة ، ويصير تهديداً بالمرض وبمزيد من الفقر والبؤس والقهر الجسدي والأصابع المدماة بجرف اكوام الثلوج عن الابواب والنوافذ ، يذهب من بياضه كل سحر ... يصير بياضاً لكفن ممدود على طول ساحة القرية وحقولها

وأفقها ... انه الثلج البروليتاري. ثلج الفقراء، الثلج الذي لا تستطيع ان تتأمله من خلف نافذة دافئة بينما انت غارق في دفء موقدك واسطوانتك وتبغك وربما حسنائك، وانما هو الثلج الوحش، القوة الطبيعية التي تعايشها بكل ما تحمله من قسوة وايلام واستنزاف لواقع (الطبقة الاكثرية) الاليم.

ومع ذلك يحدثك رعايا الثلج البروليتاري عن كثبانه بحنان ...

قالت لي أم أسعد وهي عجوز في السبعين، في وجهها نضارة وضاءة: في مواسم الثلج، كل صباح منذ ٥٠ سنة افتح النافذة، وافرك وجهي بالثلج جيداً ... اظل افركه حتى احس بانه صار ملتهباً كالجمر ! ...

ولم اقل لها ان ذلك هو الترف الوحيد الذي تشترك فيه مع قيصرة روسيا كاترين الكبيرة، التي كانت تفرك وجهها كل صباح بالثلج كوسيلة تجميل (على ذمة فيلم وثائقي قديم)..

وأبو أسعد الذي أدمى البرد اصابعه الخشنة يؤكد كلام زوجته قائلا : في ايام الثلج انام ٤ ساعات في الليلة بدلا من ١٠ ساعات وانهض ممتلئاً عافية ... هواء الثلج نقي ...

وحديث أم وأبي أسعد عن الثلج هو نوع من تغزل الجرح بالسكين ... وتركتهما لعذاب ما تبقى لهما من أعوام مع ثلوج الزمن والطبيعة، وتركت أيضاً ذكرى المترفين الذين يجدون في الثلج ديكوراً لاستعراض ثرائهم في موسم الشتاء — كما كان البحر في الصيف هو البديل الديكور لاستعراض يخوتهم وشاليهاتهم وازياء بحرهم وسياراتهم البرمائية، ومعدات التزلج المائي وغيرها ... أي لاستعراض قوتهم الشرائية في مجتمع استهلاكي تسعيرتك الانسانية فيه تعادل رصيدك المصرفي — .

أخلف ذلك كله ورائي، أطمره في حفرة ثلج ... وارحل واياكم إلى عوالم الثلج — الثلج ... ثلج الرموز الانسانية ... تعالوا معي في رحلة ثلجية بعيدة عن ثلج الديكور، وثلج الصور التذكارية والكرات المتقاذف بها، تعالوا معي إلى ثلج الفنانين والكتاب والشعراء والموسيقيين ولنطل عبر عيونهم على آماد من الثلوج الازلية لنرى ماذا يرون فيها ... وعبرها ... أية اسرار ... أية احزان ... أية مهابة ... وأي هلع ... وأية مباهج ...

الثلج في الأدب العالمي

ثلج كبار الفنانين ليس ديكوراً للتفاهة ، ولا مجرد انخفاض تسجله موازين الحرارة وانما هو رمز لاشياء كثيرة مختلفة ، وبطل يتدخل في أحداث الروايات والقصص ويؤثر في مجراها احياناً ... إنه شخصية قائمة بذاتها ... شخصية أكثر عمقاً وكثافة من شخصية الثلج الحربية والسياسية .

فالثلج هو الضابط الروسي الأهم من كل دباباتها ومدفعيتها ، فهو الذي هزم نابليون وعظمته ، وهو الذي دمر هتلر ... ويلقبه بعض المؤرخين والمراساين الحربيين بلقب : الجنرال ثلج ! ...

واذا كان « الجنرال ثلج » بطلاً حربياً وشخصية سياسية تاريخية لعبت دورها في تبديل خارطة العالم ، فان « الثلج » في الأدب العالمي هو شخصية متعددة الوجوه ، خصبة الايحاءات وكثيفة الرموز ... تعالوا نعش مع ثلوج همنغواي وتوماس مان وباسترناك وملفيل وديستويفسكي وغيرهم ...

همنغواي والثلج الأزلي

تبدأ رواية « ثلوج كليمانجارو » للروائي الاميركي همنغواي (الفائز بجائزة نوبل عن قصته « الشيخ والبحر ») بالعبارة التالية :

« كليمانجارو جبل يبلغ ارتفاعه ١٩٧١٠ أقدام ، تكلل هامته الثلوج ويقال انه أعلى جبال افريقيا قاطبة . وتعرف قمته الغربية بـ (مازي نغاجي نغي) أي بيت الله . وعلى مقربة من هذه القمة الغربية هيكل فهد جاف يعلوه الجليد . ان احداً لم يشرح ما الذي كان الفهد يلتمسه عند تلك القمة المرتفعة » ...

بهذه العبارة تبدأ رواية ثلوج كليمانجارو ، وهي حكاية رجل مغامر أوروبي يخرج إلى الصيد مع عشيقته الثرية التي تهوى ممارسة هذه الهواية في أدغال افريقيا ... وهو يذهب معها لأنه بحاجة إلى الابتعاد عن الاجواء البورجوازية الأوروبية التي أدمنها وكادت تقتل موهبته ككاتب . جاء معها هارباً من (دنيا من الرفه والنعمة التي جعلت منه نفس الشيء الذي كان يزدريه — كل يوم من تلك الايام كان يُبلّد مواهبه ، ويوهن إرادة العمل عنده إلى حد انتهى به آخر الامر إلى ان لا يكتب كلمة واحدة ... وكانت افريقيا هي المكان الذي نعم فيه بأعظم السعادة في الفترة الطيبة من حياته ، وهكذا انقلب اليها ليبدأ من جديد ...) .

ولكنه في افريقيا بدأ شيئاً جديداً حقاً ... فهو ليس صياد وحوش ، وانما هو ككاتب ، صياد الحقائق الانسانية ... فماذا كانت حصيلة صيده واين وجد اسرار الوجود وكيف نجح في صيدها ؟ ...

تبدأ « ثاوج كليمانجارو » ببطل الرواية الاديب الفاشل مرمياً عند سفح جبل كليمانجارو يحتضر بينما ساقه حتّى الفخذ ميتة مشلولة مصابة بالغنغرينا . ها هو الثلج عند القمة يلوح ناصعاً سرياً مماوءًا بأسرار الوجود ، وها هو الفهد الذي تجمد قرب القمة ، ترى هل حَجّره الصقيع أم صعقه اكتشافه لأسرار الوجود التي أودعتها الآلهة أعلى قمة في افريقيا وجعلت من الثلج حارساً لها ؟ هل الموت هو ثمن المعرفة الكلية ؟ وأسطورة « بروميثيوس » الشهيرة تراها تتكرر الآن ؟ بروميثيوس الذي تسلق جبال الآلهة ليسرق من قمتها النار المقدسة التي ترمز إلى المعرفة فسملت عيناه بوهجها ، هل الثلج فوق جبال كليمانجارو هو نفسه رمز المعرفة ، كالنار فوق جبال آلهة الاولمب؟... يبدو ان الأمر كذلك ... فبطل « ثلوج كليمانجارو » الممدد تحت القمة ، يحتضر ، ويتذكر أيام شبابه ، ويتذكر آلاف الاحداث التي سجل رؤوس أقلام بها (نوطاً) كي يكتبها قصصاً لكن الوقت لم يتسع له قط ليفعل ذلك ... لقد شغف بالحياة أكثر مما شغف بالفن وتلهى بالنساء والخمرة ومباهج اللحظة وشغل بها عن الركض خلف حقائق الوجود التي هي من مهمات الاديب ... وها هو الآن يموت وإلى جانبه المرأة الاخيرة التي أحبها وأحبته ، ينتظران وصول طائرة هليكوبتر تقله إلى احدى المستشفيات ؟ ... هل تصل الطائرة ؟ هكذا يخيل إليه . تصل . تطير به . تصل فوق قمة كليمانجارو . تهوي هناك وسط الثلوج ، ويصير الفهد عند القمة فهدين ، وفي بياض الثلوج الازلي يكتشف كل ما كان يتمنى معرفته ... (قمة جبل كليمانجارو المربعة ... عريضة كالعالم برمته ... هائلة ، سامقة ، ناصعة إلى حد لا يصدق ، في وجه الشمس . وعندئذ أدرك انه كان يقصد إلى هناك) ... ليس بطل ثلوج كليمانجارو هو وحده المسافر إلى (هناك) ... كلنا مسافر إلى (هناك) ... بعضنا يدري وبعضنا لا يدري ... وبعضنا يتوق إلى ذلك توقه لاكتشاف أسرار الكون مهما كان الثمن ... انه توق (باندورا) التي لم تقو على كبح جماح شوقها لاكتشاف أسرار الصندوق المحرم ، ففتحته ، وأخرجت منه الشرور إلى العالم ... واذا كان الثلج لدى همنغواي يرمز إلى الموت بمعنى الانعتاق أي بمعناه الغني الثري وربما بمعنى التطلع إلى حياة اخرى واكتشافات روحانية مذهلة ، فان رمز الثلج لدى كتاب آخرين يحمل مدلولات اخرى مختلفة ...

الموت ... غربة

د . ه . لورانس مؤلف كتاب « عشيق الليدي تشاترلي » المشهور جداً ، وكتاب « نساء عاشقات » الأقل شهرة لأنه اقل إباحية – رغم انه أجود أعماله ومن أجمل ما كتب في الادب العالمي – . وفي « نساء عاشقات » يروي المؤلف حكاية علاقة إنسانية بين اربعة اشخاص ... فتاتان وشابان . الفتاتان صديقتان والشابان كذلك وأحدهما مدير مصنع والآخر عامل بسيط عفوي غجري الاهواء ... وتنجح العلاقة الانسانية بين الغجري وحبيبته إلى حد بعيد وينجحان في مد خيط عنكبوتي رقيق ولكن دائم– واسمه الزواج – في حين تفشل العلاقة بين صاحب المعمل وحبيبته لأسباب كثيرة ، وتنتهي الرواية بالاعلان عن فشل العلاقة الانسانية بينهما ويتخذ د . ه . لورانس من الثلج وسيلة مذهلة للتعبير عن ذلك ... ان سوء التفاهم هو ثلج يندفه كل منهما في عالم الآخر ... ويظل ثلج الغربة يندف حتى يستحيل قارة من الوحشة والغربة ، وينتهي بموت صاحب المصنع متجمداً وحيداً في صحراء شاسعة من الثلوج ، انها ليست ثلوج سويسرا ،بل هي ثلوج القلب الوحيد الذي ظل طويلاً ينزف صقيعاً حتى صار أسير جزيرته الصقيعية الذاتية ... وإذا كان الثلج عند همنغواي رمز الانعتاق بالموت فان الثلج عند لورانس هو رمز الموت الذي لا بعث بعده : الموت بالغربة ... حيث يتحول الانسان إلى ما يشبه الصواعد والنوازل في مغارة العذاب الانساني حيث التوحد قدر لا مفر منه .

الثلج على الطريقة الأميركية

في رواية « المطار » تأليف آرثر هيلي نجد ان الثلج هو بطل الرواية ... انه كاوبوي من نوع خاص ، كاوبوي شرير ، مجرد قوة طبيعية يواجهها الانسان هذه المرة في غابة عصرية من زحام الطائرات بدلاً من ان يواجهها في كهوفه الحجرية القديمة ... نظرة آرثر هيلي إلى الثلج ليست عميقة ولا رمزية رغم ان العاصفة الثلجية هي بطلة الرواية ، وهي التي كشفت اسراراً إنسانية كثيرة هي أسرار ابطال الرواية ... ملخص رواية (المطار) هو ان عاصفة ثلجية تعرقل المواصلات الجوية فوق مطار نيويورك المزدحم بحيث يستحيل هبوط الطائرات فيه ، وتنفجر قنبلة في احدى الطائرات حملها معه رجل يائس عمداً وذلك كي تقبض زوجته الفقيرة قيمة التأمين الكبيرة على حياته ، وتحدث في الطائرة فجوة تهدد بسقوطها في اية لحظة ، ويصير الربان مضطراً للقيام

بهبوط اضطراري بأي ثمن ورغم العاصفة الثلجية والطائرة الاخرى الغارقة في الثلوج على مدرج الهبوط والتي استحال عليهم جرهـا وفتح الطريق . ووسط هـذه الدوامة ، من المتاعب الثلجية تأتي دوامة اخرى من متاعب انسانية غير ثلجية ، فمدير المطار يحب سكرتيرته ويكره زوجته الارستقراطية المتعجرفة ، وربان الطائرة أيضاً يكره زوجته ويحب المضيفة الحامل منه ويزداد رغبة بها حينما تصاب بشظية من القنبلة.. وأخيراً تهبط الطائرة بسلام ، ويتم طلاق العاشقين بسلام ويتزوجان بسلام من حبيباتهن وينتصر الجميع على الثلج . هذا نموذج للثلج في الادب الاميركي ... انه ثلج على الطريقة الاميركية ... ثلج سطحي ، واقعي ، عملي ، مجرد ماء متجمد وقوة طبيعية جبارة ، وليس رمزاً ميتافيزيكيا .

ملحمة اللون الأبيض

ولكن ، ليس النتاج الادبي الاميركي كله على هذه الدرجة من السطحية والسذاجة في تناوله للثلج أو حتى لمفهوم اللون الأبيض . وهنالك عمل أدبي خالد اسمه « موبي ديك » تأليف « هرمان ملفيل » الاميركي على درجة من العمق والخصب الانساني تدفعنا إلى القول : مغفورة خطايا وسطحية بعض الادب الاميركي ! رواية ملحمة دفعت الساخر برنارد شو إلى التحدث عنها بإجلال جاد ، إذ وصفها بقوله : « منذ عرف الانسان كيف يكتب لم يوجد قط كتاب مثل هذا ، وعقل الانسان أضعف من أن ينتج كتاباً مثله ، وإني أضع مؤلفه في مصاف مؤلفات رابله وسويفت وشكسبير » .

و « موبي ديك » اسم لحوت ضخم ابيض متميز ببياضه المراوغ الاسطوري العجيب ، طالما طارده الحواتون عبثاً ...

إنه زئبقي الوجود ، انه هناك ، في المحيط الغامض ، وانيابه الحادة تطبق من وقت إلى آخر على ساق أو ذراع مغامر قرر اغتياله ...

« الكابتن آخاب » يحمل منه تذكاراً لا يُنسى ... قدم مصنوعة من عظم حوت بدلاً عن قدمه التي فقدها بين انيابه ذات مرة ... وقرر يومئذ في حنق متمرد هستيري ان يقتل ذلك الحوت وأن يقضي بقية حياته جوالاً في محيطات العالم للانتقام منه ... « هل قتلتموه » يسأل آخاب كل سفينة تحويت تمر به ..

« — هل قتلتموه ؟

— ان الرمح الذي قد يحقق ذلك لم يصنع بعد » ...

ومع ذلك يصنع الكابتن آخاب رمحاً لا مثيل له ... ويطفىء حديده في دم بحارته الوثنيين عوضاً عن الماء ... وينطلق برمحه الوثني ، ويحقده المجنون الاحتجاج ضد الابيض الرمزي المراوغ ، وبباخرته « الباقوطه » ، وبحارته المنومين مغناطيسياً بسطوته ، المذعنين لرغباته ... وتبدأ حكاية مغامرة مثيرة لا ينجو منها سوى بحار واحد هو اسماعيل ، وهو راوي القصة ...

انهم يقتفون إثر الحوت الابيض الكبير « موبي ديك » ... وقع خطى ساق الكابتن آخاب العاجية على خشب المركب صدى لصـــراخه كلما مرت به باخرة : هـــل هل رأيتموه ؟ ... هل قتلتموه ؟ .. ذلك الابيض المرعب اللون ؟

ويأتيه الجواب : ان الرمح الذي قد يحقق ذلك لم يصنع بعد .. ووسط عشرات من النبوءات والاحداث الرمزية والمفاجآت التي تخبئها البحار يلتقي الكابتن آخاب أخيراً بحوته الزئبقي : موبي ديك ...

ويغرس رمحه في الجسد الابيض لموبي ديك ليقتله .. ولكن يلتف الحبل الذي ربط الرمح به حول عنق الكابتن آخاب نفسه ...

ويضرب الحوت السفينة فيشطرها ويحيلها تابوتاً واحداً كبيراً لبقية البحارة ، ثم يعود إلى حيث لا أحد يدري ، إلى الاعماق المجهولة ، ويجر معه جثة الكابتن آخاب المشنوق بحبل الرمح المغروس في عنقه ...

هذا « موبي ديك » كحكاية مغامرة بحرية ...

وهناك في « موبي ديك » شبه تاريخ ودراسة دقيقة عن صيد الحيتان والتحويت في اميركا عام ١٨٤٠ ..

وهنالك ايضاً الجانب الفلسفي في الرواية .. انها تحمل نظرة فلسفية خاصة تلقي ضوءاً جديداً على حياة الانسان ومصيره ... ولكن الكاتب نفسه لم يحاول ان يحدد بالضبط ماذا يعني برموزه ، ربما لوعيه الكبير بانه ليست هنالك أجوبة نهائية والا لكف الناس منذ زمن بعيد عن التفكير والكتابة ..

البعض يجعل من « موبي ديك » رمزاً مسيحياً ، ومن رحلة الصيد هذه حكاية رمزية لتمرد آخاب على الالهة ...

والبعض يجعل من موبي ديك رمزاً للشر ، وآخاب شخصية « بروميثيوسية » فائقة الشجاعة ... وهزيمته تمثل مأساة انهزام الكبرياء الانساني في ركضه المتواصل وراء المستحيل ..

والواقع ان كتاباً كموبي ديك يجر المتحدث عنه في رحلة كتلك التي جر فيها « موبي ديك » الكابتن آخاب ... رحلة يغرق فيها في ابعاد لا متناهية من الشروح ووجهات النظر منها ما هو حول ماهية الرمز للشر باللون الابيض عكس تقليد اقتران الشر عادة باللون الأسود .

وفي الكتاب فصل كامل يتحدث عن بياض الحوت وتحليل لمدلول اللون الابيض اذ نجده يقول ان بياضه يوحي بالوحشة كأنه يعيد إلى الاذهان (تصور الوحشة والعزلة الصقيعية الابدية التي تهيمن على الاعالي الشاسعة) ... ويقول « ان البياض في جوهره ليس لوناً بمقدار ما هو انعدام محسوس للالوان وفي الوقت نفسه تحقق محسوس لها . ألهذا كان هنالك بياض صامت أخرس حافل بالمعنى في منبسط مديد من المنظر الثلجي.. جمود لا لون له جامع للالوان جميعاً تنفر منه نفوسنا ؟

اذا تأملنا كل ذلك بدا الكون المفلوج ممدداً أمام أعيننا كانه أبرص وكما يرفض المسافرون ذوو الإرادة الحازمة أن يضعوا على عيونهم نظارات ملونة كذلك الكافر التعيس تعشى عيناه وهو ينظر إلى الكفن الابيض المنشور على كل منظر حوله » . هذا الكتاب هو ككل أثر أدبي عظيم ، في طياته امكانات تأويلات مختلفة ، تختلف باختلاف القارىء ومستواه الثقافي وميوله الشخصية ... فيه عنصر الحكاية لمن يبحث عن قصة مغامرات مشوقة .. وفيه الفلسفة والفكر لمن يحب ان يغوص خلف الاحداث بحثاً عن عللها الاساسية .

ثلج الحب ... وثلج الرعب

وفي رواية « قصة حب » لمؤلفها إريك سيغال ، نجد الثلج ديكوراً سعيداً للحظات حب ، يتراشق العاشقان بكراته كما في الصور التذكارية ، ويحرثان الثلج ضحكاً ويزرعانه فرحاً ينبت مع الربيع بعد ان يذوب الثلج ... ولكن ذوبان الثلج ليس دائماً جميل الطلعة ... انه قد يكون مأساوياً يجمدنا رعباً على صور مؤثرة ..

ففي رواية « كل شيء هادىء على الجبهـــة الغربية » (تأليف اريـــك ماريه رومارك) ، التي تتحدث عن الحرب العالمية ، حينما ينتهي الشتاء ويذوب الثلج وتطل زهرة صغيرة نبتت في قلب الثلج ، يُخرج جندي رأسه من خندقه ويمد يده إلى الزهرة ليقطفها ، وتأتي رصاصة تطيح به وبالزهرة لتثلجه إلى الابد . وهنالك صورة أشد هولاً عن الثلج والحرب ، صورة سهوب من الجليد ، يبدأ الجليد فيها

بالذوبان ، وتبدأ جثث القتلى المحفوظة بداخلها طوال الشتاء ، تنبت مثل سنابل محنطة ويبادر من القتلى شاهدة على فظاعة الجنس البشري وقدرته على زرع القتلى في الثلوج حيث يظلون حتى الربيع منتصبين كالاشجار التي تنوح ليلا مع الريح الباردة ...

وفي رواية « قوس النصر » لاريك رومارك نجد اللقاء يتم بين العاشقين وكل منهما من معسكر معاد للآخر ، بينما الثلج يندف ... الثلج هنا رمز للعداوة الحربية بين الشعوب ، رمز لصقيع العداء ..

ولكن الخيط الانساني من التفاهم الذي يمتد بين قلبين ينتصر على ثلج البغضاء ولا بد من يوم تشرق فيه شمس المحبة (أعرف أن هذه العبارة الاخيرة صارت تقليدية لكثرة ما تكررت ولكنها للأسف تعبر عن أمنية كادت تهترىء ولما تتحقق !) ...

ثلج روايات الرعب

الثلج ايضاً بطل خطير من ابطال روايات الرعب والروايات البوليسية ... في قصة « مصيدة الفئران » لاجاثا كريستي ، (تقدم كمسرحية منذ ١٨ سنة على مسارح لندن وما تزال تلقى نجاحاً كاسحاً) ، تدور الحكاية في فندق ريفي صغير عزلته الثلوج عن العالم تماماً . وتحدث فيه جريمة قتل ويدب في المكان جو من الذعر ولكن أحداً لا يستطيع مغادرة الفندق. ويصل مسؤول للتحقيق في الجريمة فتحتجزه العاصفة الثلجية. وتتوالى الجرائم والمسؤول يحقق مع نزلاء الفندق جميعاً وأصحابه ... واخيراً مع ذوبان الثلـــوج نكتشف ان المجرم هو المســؤول المزيف الذي جاء للتحقيق في أمر الجرائم ! ...

الثلج عند أجاثا كريستي تنين أبيض ، وسور كثيف يحتجز أبطالها في جزيرة من الرعب لا فكاك منها ... الثلج هو العزلة المكفنة بعدوان ميتافيزيكي غامض يتقمص جسد الجريمة ! ...

الجبل المسحور

في رواية طويلة ومؤلمة للمؤلف « توماس مان » اسمها « الجبل المسحور » حكاية شاب يقضي أيامه الاخيرة في مصح للسل على رأس جبل تحيط به الثلوج ... رمز الثلج في الرواية ليس شبيهاً برمز همنغواي في (ثلوج كليمانجارو) وانما هو اقرب إلى مفهوم (بيكيت) — ابو اللامعقول — للثلج ... فالحياة سير محتوم على سكة قطار

حيث تغوص اقدامنا في الثلج تارة بعد اخرى حتى يبتلعنا نهائياً ثلج العدم والنسيان دون ان نخلف على صفحته البيضاء بصمة أو دمعة أو حتى فقاعة ! ...

الثلج وعوالم السحر

في رواية « الأفق المفقود » لجيمس هيلتون ، تسقط طائرة فوق جبل شاهق بين ثلوج هيملايا ... وهناك يكتشف احد الناجين ان أقواماً يعيشون في احد الوديان — التي يصل اليها عبر مغارة — لا يعرفون الشيخوخة ولا الموت . ويحب امرأة منهم وتحبه ويقرران الهرب من وادي الخلود وصقيعه ، وما يكادان يهربان حتى يتأماها ، واذا بها دفعة واحدة تهرم وتشيخ ويصير عمرها فجأة أكثر من ١٢٠ سنة !

والواقع ان الربط بين نوع خاص من الطقوس السحرية والتأملات الوجودية ، وبين أقوام يفترض انهم يعيشون في ذرى هيملايا أمر نجده في الادب وفي مذكرات بعض الاشخاص الذين وصلوا إلى تخوم تلك المناطق . وفي كتاب (لا تسقط عن الجبل) وهو مذكرات لشيرلي ماكلين نجدها تتحدث عن تجربة مشابهة عاشتها على تخوم التيبيت .

الثلج على الطريقة الروسية

واذا كان (الجنرال ثلج) أحد الابطال الحربيين في تاريخ روسيا وغيرها ، فان الثلج يكاد يكون بطلاً في كل عمل أدبي روسي ... وكما كان الشعراء الجاهليون مضطرين للحديث عن الصحراء — بتأثير المعايشة اليومية — كذلك لا مفر للادباء الروس من الحديث عن ثلوجهم المحدقة بهم كصحارى بيضاء لا متناهية ...

ولكن أحاديث كبار كتابهم عن الثلج تحوله من شخصية عادية رتيبة الحضور إلى رمز مبدع آسر ... نجد ذلك في أعمال ديستويفسكي وتولستوي بل وفي أعمال كل كاتب روسي تقريباً ، بل ونجده في موسيقاهم ، انه يتلألأ على قباب موسكو في موسيقى تشايكوفسكي وبين سطور « الدكتور جيفاكو » تأليف بوريس باسترناك .

ثلوج الدكتور جيفاكو

عبر قارة الثلوج يهرب جيفاكو إلى حبيبته ... يجيئها كالطائر المرتجف المروع من منظر الدماء التي تلطخ الثلوج ، يصل اليها مثل شجرة جافة يسكنها الجليد ويلف

عروقها الواهنة ... الثلج قارة تطهير ... والثلج قارة عذاب ... والثلج مدينة تسكنها الاشباح والذئاب ولكن العشاق لا يعدمون فيها عشاً من الحنان يحيكونه بأبجدية انسانية لا يبدع ربط وشائجها سواهم ... ولكن رياح الثلج تقتلع كل شيء في النهاية ... ولا يبقى من الحب سوى انشودة تحملها رياح الثلوج وترتلها في الفيافي المقفرة مثل قرع اجراس صدئة في كنيسة متهدمة تحجر اهلها منذ عصور ..

الثلج الروسي عنيف . جبار . غني بالرموز . هو تارة المطهر ، وهو تارة الملجأ من قارة قسوة النفس البشرية ، وصقيعه اشد رأفة بالانسان من صقيع الجحود والوحشية البشرية .

وتبقى عبارة الشاعر رونسار من اجمل ما قيل في الثلج والمشاعر الانسانية ...

فكما الثلج المهيمن على كل شيء يذوب ويتلاشى وكأن شيئاً لم يكن ، كذلك الحب الذي كان مهيمناً على كل شيء ... وكان يا ما كان ... ترى كم منكم سيردد معي قول الشاعر رونسار بالحرقة نفسها : « ... أين ثلوج البارحة ؟؟ ... أين ... أين ... أين ... ؟؟ »

عين غ تتفرس

في

الملصق (البوستر)

« الفنان يرسم بدماغه لا بيديه »
– مايكل أنجلو –

« أغلق عيني كي أرى »
– بول غوغان –

٢٤ / ٢ / ١٩٧٥

علاقة حب مع عابر السبيل

على الجدران ينتظرك ... في الأزقة والشوارع ودهاليز المترو ينتظرك ... على الأعمدة ينتظرك ... لا يضجر .. ولا يبدل مكانه ...

تحت الثلج ينتظرك .. تحت المطر يتبلل وينتظرك .. تحت الشمس المحرقة ينتظرك.. يبقى كما هو دونما حراك .. تستطيع أن تقف وتتأمله وتستمع إلى ما يقوله لك .. تستطيع أن تصدقه أو لا تصدقه .. انه لن يعاتبك ولن يحتجّ وسيتابع قول حكايته .. تستطيع أن تطلق الرصاص عليه .. تستطيع أن تمزقه أو تشوه وجهه بالدهان .. ولن يصرخ ..

اسمه « الملصق » أي Poster وهو فن قديم جديد بدأ يأخذ قيمته الكبيرة في أيامنا المعاصرة ، شاقاً دربه لمنافسة الرسوم الزيتية والمائية (اللوحة) تماماً كفن التصوير الفوتوغرافي ...

وقد تم نهائياً تكريس الكاميرا كأداة إبداع كالريشة وصار « للفن الفوتوغرافي » عشاقه ومعارضه الدورية ومجلاته الخاصة وحتى متاحفه ..

وها هو فن الملصقات « Poster » ، يتطور على يد عشاقه المبدعين ، ويمتلىء رقياً وأصالة وعطاء بالرغم من توظيف البعض له تجارياً فقط ، وها هو فن جديد ينمو بغزارة ويصير له في السبعينات متاحفه وصالات لعرض المبدع منه ، ونشرات دورية ، ومجلدات (أطلس) تنتقي أرقى ما ظهر منه كل عام في أكثر أقطار العالم ... ومن أبرز معارضه ، معرض السنتين العالمي للملصقات الذي يقام في بولندا دورياً ، والذي يطرح فيه ما يقدمه الملصق من مكتسبات إبداعية في مجال الاتصال البصري ، فانت تنظر إلى الملصق وعبر حاسة البصر يخاطب بقية حواسك ، وإذا كان جيداً فانك ستسمعه يخاطبك وقد تشم رائحته ، رائحة الدم أو الفرح ، وقد يهز أعماقك في صدمة كهربائية وجدانية ، وكل ذلك عبر نظرة مشحونة كتلك التي يتحدث عنها الذين

يؤمنون بالحب من النظرة الاولى فالملصق يمنح كل ما لديه ، من النظرة الاولى !! ..

وكذلك تعكس المعارض الدورية للملصقات آخر ما توصل إليه زواج الآلات والفن في مجال التكنيك الطباعي والفوتوغرافي المتعلق بالملصقات ...

ملصقات الغربة

والملصق يصير جزءاً من ديكور المدينة وفولكلورها ومناخها النفسي ...

وأيام دراستي في لندن، كانت الملصقات جزءاً من روح لندن، كخشبها العتيق ومصابيحها الصفر وعازف الكمان العجوز وركض شبانها تحت المطر ... وأذكر ملصقاً معيناً في محطة المترو بـ « ساوثكنسغتون » كان خاصاً بأحد الأفلام ، وأذكر وداعي لأخي ذات فجر أمام هذا الملصق .. ومن يومها امتزج طعم نظرة « جولي كريستي » الملتاعة في ذلك الفيلم (الدكتور جيفاكو) ، بطعم الشوق في فمي وحتى هذه اللحظة لا أذكر أخي إلا وأذكر الثلج والدكتور جيفاكو وأسمع اللحن الحزين المميز لذلك الفيلم ... وذات يوم شاهدت بعض الشبان أمام ذلك الملصق في زقاق المترو ذاته ، وأحدهم يعبث به بسكين صغيرة ، ويمزق ملامح الوجوه ويشوهها ... ومن يومها لا أسمع كلمة الفراق إلا وترتسم (بصرياً) في ذهني بسكين صغيرة في يد مراهق عابث يشوه بها وجه الحب .. (آه لحظة الوداع) نسيت ما كنت أقوله ! ... أجل ! كنت أحدثكم عن الملصقات ! .. ... هاينز ادلمان يسمي عملية تمزيق الملصقات وتشويهها في الطرقات بأنها « دراما صغيرة هي دراما العجز عن الاتصال والتواصل مع الملصق » ... ومع ذلك فهنالك ملصقات تستفزك وتتحداك وتمزيقها واجب !! ... نعود إلى هاينز ادلمان . لعلكم تذكرون هذا الاسم (ليس ضرورياً أن تذكروه !) ، إنه رسام جيد معروف في الغرب يهوى فن الملصقات ومن أشهر أعماله فيلم « الغواصة الصفراء » للبيتلز والذي قام هو برسمه بأكمله — الذين شاهدوا الفيلم يذكرون أن أغلبه من الرسوم المتحركة ...

وهاينز ادلمان قام أيضاً بكتابة مقدمة لكتاب جميل اسمه (جرافيس بوستر ٧٥) أي الملصقات الغرافيك ، ويضم الكتاب مختارات لأجمل ملصقات عام ١٩٧٤ — ٧٥ تم اختيارها من ٦٠٠٠ مصدر !! ...

الكتاب جميل وفيه ملصقات تدل على قيمة ابداعية كبيرة لا يشوهها غير أنها ولدت من أم اسمها (الاعلان التجاري) ... ورغم تسخير أكثرها أداةً استهلاكية

فإنها تظل اعمالاً فنية جديرة بالاطلاع ومثيرة للاهتمام ... والكتاب واحد من عشرات (الاطالس) الخاصة بهذا الفن الجميل الجديد ...

الملصق .. فرعوني ! ..

الملصقات صارت جزءاً من حياة الفرد المعاصر . الشوارع كلها هي المتحف المجاني للملصقات، وجدران غرف الشبان والشابات تغطيها مختلف الصور التي تتوافق وميولهم وأمزجتهم... هذا الأمر يزعج غالباً أصحاب البيوت بسبب (التشويه) الذي تسببها المواد اللاصقة لدهان الجدران ، كما يزعج الأهل الذين يرعبهم هذا العالم الغريب عنهم والذي يجدونه على جدران مراهقيهم : آلان ديلون مثلاً ، بريجيت باردو ، حصان راكض على شاطىء البحر ، الغروب ، جسد بسيكاديليك ، بومة ، وغير ذلك مما تمثله مختلف الملصقات التجارية التزيينية ... وينزعج الأهل من صوت الموسيقى المسعورة الراكضة على الجدران (البوسترية) ، ويشتمون جنون العصر والجيل الجديد ...

ولكن الملصق (البوستر) قديم جداً ، وأكثر قِدماً من أكثر رموزهم المحافظة... فأول ملصق عرفه التاريخ كان فرعونياً ! ... ولد على أحد أوراق البردي عام ١٤٦ قبل الميلاد وفيه أوصاف (عبدين) فارين من الاسكندرية مع مكافأة لكل من يرشد إليهما ...

وإذا كان غرض الملصق في عصرنا هو : بيع سلعة أو الإعلان عن حدث ، أو الترويج لفكرة ، فقد كان ذلك هو الغرض منه منذ نشأته ! ! ... فقد عرف الفراعنة والاغريق والرومان الملصقات وكانت تكتب على صفائح البردي أو تحفر على النحاس أو تنقش على أعمدة من الحجارة ! ...

الفن أولاً ... في روما

وكانت لدى الاغريق جدران خاصة مدهونة بالابيض تدق اليها الملصقات ، أو أعمدة مربعة تدور ليقرأ المارة ما كتب على وجوهها الاربعة وكانت غالباً إعلانات عن الالعاب الاولمبية ..

وفي بومباي حين ثار البركان ، طمر فيما طمر ملصقاتهم وكانت أغلبها تعلن عن مباريات المصارعة ! ..

وفي روما كانت (الأفضلية) تمنح للمصقات المسرح والفن ، وكانت صورة الممثل مع صورة مشهد من المسرحية تُبْرَزْ ، وهنالك عقوبات كبيرة لكل من يغتال ملصقاً أو يشوهه أو يرسم شارباً على وجه بطلة المسرحية (كما يحدث عندنا غالباً ! !)..

ونام الملصق عصوراً ، ثم عاد للظهور في العصور الوسطى ببريطانيا بصورة إعلانات عن الدكاكين هي عبارة عن يافطات من الخشب تتدلى فوق الأرصفة ، ولكنها كانت ملصقات قاتلة ! فقد كانت تسقط على رؤوس الذين يشترون والذين لا يشترون وغضبت الدولة (بصفتها وحدها صاحبة الحق الشرعي في سحق رؤوس المواطنين) وتقرر منع الملصقات المتدلية ، وإلصاقها على الجدران .. وهكذا عاد للملصق وجهه القديم الاول ...

باريس .. أمّ الملصقات ! ..

عام ١٥٣٩ تم احياء (البوستر) رسمياً في باريس حين صدر قرار بأن تطبع مقررات الشرطة وتلصق على الجدران في الأمكنة العامة (طبعاً استعمل الناس الطريقة نفسها للاحتجاج على السلطة ، وبعد أن نشأ الملصق لخدمتها ، ولد ولادته الثانية ضدها !) ...

واختراع الطباعة عام ١٤٥٠ كان بمثابة الولادة الحقيقية لفن الملصقات كما ساعدت طريقة الليتوغرافي الطباعية عام ١٧٩٦ على تطوير هذا الفن ...

عام ١٦٣٣ تنبهت السلطة الفرنسية إلى (الخطر) الذي يمثله الملصق على صعيد التوعية ، فقررت منع طبعه دون إذن مسبق منها ! ...

وإذا كانت باريس أم (البوسترز) ، فان الفنان الفرنسي جول شيريه (١٨٣٦) هو أحد آبائه الشرعيين وغير الشرعيين ... ولعل أهم (بوستر) ملصق رسمه كان اعلاناً عن ممثلة مغمورة صاعدة (يومئذ) اسمها سارة برنار ! .. العبقري تولوز لوتريك صنع حوالي ٢٠ ملصقاً ، ومانيه رسم ملصقاً لأحد الكتب (١٨٦٩) وحذا حذوهم عدد من عباقرة تلك المرحلة ... أما ايبلز وبونار وغيرهما فقد وقفوا ضد ذلك واعتبروا (الملصق) تحت مستواهم الفني ! ... ومع نهاية القرن التاسع عشر كان فن الملصقات قد نضج وجاء القرن العشرين وقطف تلك الثمرة وعاش الملصق عصره الذهبي بين ١٩٢٠ — ١٩٣٠ ونما وترعرع أكثره في أحضان المؤسسات التجارية والثقافية جنباً إلى جنب ... وسرت العدوى من فرنسا إلى المانيا وانكلترا وأميركا

وبولندا وكندا وكوبا وغيرها كما تشهد بعض بلادنا العربية اليوم رقياً كبيراً في هذا المجال كالعراق وليبيا وسوريا وغيرها من الاقطار .

الملصقات النادرة ... كالطوابع

وللملصق هواته كما للفراشات عشاق وللطوابع وللقواقع ... والملصقات الهامة والنادرة ترتفع أسعارها (المادية ايضاً) مع الزمن ، وتباع في المزادات العلنية ، وأشهر البوسترات التي سجلت ارقاماً خرافية في هذا المجال : الملصق الذي رسمه فريدريك وولكر لمسرحية « المرأة ذات الرداء الابيض » وأحدث ضجة عام ١٨٧١ ، ولوحة السير جون ميليز التي اشترتها شركة بيرز للصابون وحولتها إلى ملصق عام ١٨٨٤ ... فإذا كنت من هواة الملصقات ، أعد النظر في جدرانك . فعلى أحدها قد تكون هنالك ثروة معلقة دون أن تدري . وقد تهبط عليك من الحائط (لا من السماء) هذه المرة !.

سجين المادة ! ...

ظل (البوسترز) سجين الاغراض الترفيهية والفنية حتى عام ١٩١٤ ثم استخدم في الحرب العالمية الاولى لأغراض سياسية وتم سوقه إلى الجندية الإجبارية (طبعت الملصقات يومئذ لجلب المتطوعين للحرب) ...

والواقع أن مأساة الملصق الأساسية هي انه نما وترعرع في أحضان المؤسسات الاستهلاكية وحتى أكثر نقاد الغرب رجعية لا يملك إلا الاعتراف بأن دور الملصق كفن مستقبلي هو رهن ... بقدرة فنانيه على الخروج من مأزق الملصق الاستهلاكي المكرس للاعلان عن الجوارب والقمصان والثياب الداخلية والسلع الاستهلاكية المعتمدة اعتماداً اساسياً على الجنس وبصورة خاصة على جسد المرأة كسلعة ، ومؤخراً على (جسد الرجل المتخنث) الذي ارتفعت اسعاره في سوق الرقيق الابيض بعد أن اقرت بريطانية الشذوذ بقانون وجعلت منه (أبغض الحلال) إلى قلوب المحافظين ! ! ...

ويقول الناقد هاينز ادلمان (صاحب رسوم البيتلز لفيلم الغواصة الصفراء) ان الملصق قد بلغ حالياً درجة عالية من الإبداع الفني ، ولكن اعتياد الجمهور الغربي على نمط إعلاني تجاري معين يقف في وجه تطور هذا الفن ... ولا يفوت الناقد التأكيد على أن كلامه هذا ينطبق على البلاد الصناعية في العالم الغربي ... فأين الخلاص ؟ ..

ولادة .. في البلاد النامية ...

إن في تحرير الملصق من (الممول) التجاري وربطه بايمان عميق في قرارة نفس مبدعة ، هو ولادة جديدة له .. هذا ما أثبتته التجربة في البلدان النامية .. ففي كوبا نهضة رائعة على صعيد الملصقات التي تعبر عن تطلعات الانسان للفرح والحرية في كل زمان ومكان ... وقد شاهدتُ نماذج منها على جدار إحدى دور النشر اللبنانية ، عند الموظفة . ن . س ، التي تقول « الزخم الثوري في هذه الملصقات يغنيها برافد من الإبداع الخلاق » ...

وفي سوريا وليبيا حركة نامية على هذا الصعيد ، وقد وصلني ملصق جيد فنياً للفنان الليبي الشاب فتحي العربي (صاحب كتاب المتفرج الوحيد) ، والملصق صرخة وجدانية من أجل انقاذ السلام في عالم يمزق العدوان أوصاله ... لقد كان أول ملصق في العالم من أجل تكريس العبودية (نداء للقبض على العبدين الفارين من الاسكندرية) وها هو آخر ملصق يصلني يمثل صرخة ضد العدوان على الحرية ... فالحرية ، ذلك الطير الجريح ، ما يزال جريحاً ، لكن الفنان يستحيل إلى اصبع واحدة كبيرة تشير بالاتهام في وجه « السجان » بكافة أسمائه وصوره كالصهيونية وغيرها .

وفي العراق أيضاً نهضة فنية على هذا الصعيد يتحدث عنها بالتفصيل الفنان ضياء العزاوي ويؤرخ لها في كتابه « فن الملصقات في العراق — دراسة في بدايته وتطوره ١٩٣٨ — ١٩٧٣ » ونعرف منه أن أول معرض من نوعه في العراق للملصق اقامه في نيسان ١٩٧٠ مجموعة من الفنانين وأغلبهم من الشباب وساهم فيه رافع الناصري . ضياء العزاوي . ناظم رمزي . هاشم سمرجي . صالح الجميعي . محمد مهر الدين . وقتيبة الشيخ نوري . حيث ضم المعرض جهداً مشتركاً ضمن موضوعات متنوعة ، سياسية ، سياحية وتجارية وللمعرض أهميته في أنه كان « استجابة لتطوير بنية الملصق وتعميق مهمته في التوعية وخاصة لقضية فلسطين كما أنه لم يغفل الوظائف الاخرى التي يمكن أن يقدمها فن الملصق في الحياة الاجتماعية مثل التبرع بالدم . مضار التدخين . مرض السرطان، إلى جانب ذلك عرضت ملصقات ذات وظيفة دعائية لبعض المنتجات الاستهلاكية الوطنية » . وكان هذا المعرض ظاهرة اعلانية وفنية لم يسبق للحركة التشكيلية في العراق أن شهدت مثلها .

ملصقات العصر الحجري

الملصقات الرسمية في لبنان تملأ شوارعنا ، وتنتقي مواقع غير استراتيجية ، كأن

تحجب منظر البحر الجميل على عارضة صدئة بشعة ، أو تنتصب فوق كوم من القمامة لافتة الأنظار إليه وإلى تقصير المسؤولين ... وتقرأ فوق كوم النفايات عبارة : « أنا وأنت نبني لبنان » وتتأمل موقع الملصق فتغص بدموع شيء شبيه بالضحك ...

والمعروف أن مكان الصاق (البوستر) هام جداً وجزء من مهمته ، فمن الموجع مثلا أن تقرأ اعلاناً عن الثياب الداخلية معلقاً فوق جدار موقع أثري مثلاً ، أو أن تقرأ اعلاناً حول منشط جنسي ملصق على باب ملجأ للعجزة ، أو اعلاناً عن (الموسوعة البريطانية) أمام مدخل مستشفى المجانين ! ... وفي سويسرا هنالك رقابة على أمكنة الملصقات وحجمها بحيث لا تشكل تحدياً للعين أو الذوق العام ... وإذا تجاوزنا هذا الشرط المنسي تماماً في بعض بلادنا العربية ، نجد أن الملصق الرسمي هو مجرد صفحة بيضاء كلوحات العصر الحجري أيضاً كتب عليها بالأسود كما في بطاقات النعوة تماماً (لعل هنالك من قال للرسميين ان تلوين الملصق يفسد هيبة الدولة ! ! وأن الهيبة يجب ان تكون كلباس الجنازات : أسود وأبيض !) . ثم أن الملصقات الرسمية لدينا ذات عبارات عادية تذكر بكليشيهات وظائف (الانشاء) التي يكتبها تلميذ مجتهد وغير موهوب . إنها تخلو من اللمعة . من الومض . من شرر الموهبة الذي يحول الملصق من جدار إلى نافذة . من حائط إلى أفق . من شيء مسطح إلى دنيا ذات ابعاد .

والملصق الفني والثقافي في بيروت على درجة كبيرة من الرقي الفني (ملصقات المسرحيات والمعارض وغيرها) ولا أدري لماذا لا تستفيد الدولة من موهبة وخبرة فناني لبنان الكثر ... باختصار ، الملصق اللبناني الرسمي تقريري كثير الوعظ ولذا يفقد قوة الفن ويتحول إلى مجرد موظف سمج !

دكاكين لاستيراد الأبطال

وفي بيروت أكثر من مخزن مختص ببيع الملصقات ، كما في بعض العواصم العربية الأخرى ... فالملصق يلقى اقبالا كبيراً من الجيل العربي الصاعد بصورة خاصة ... (وهذه الدكاكين) تستورد بالطبع بضاعتها ، وبالتالي يعيش جيلنا الطالع في مناخ من استيراد الأبطال ... هنالك ملصقات للممثلين الغربيين وبعض المشاهد التي تمثل أجساداً عارية وعوالم بسيكاديليك وغابات أوروبية وغيرها ... هنالك استثناء ، فقد نجد بعض الوجوه الثورية العالمية ، كما قد نجد بعض اللوحات الفنية الشهيرة التي تم طبعها في ملصقات — وهذه لم تصل بعد إلى اسواقنا العربية — وأكثرها لفتاً للنظر الجوكندا

وبعض لوحات سلفادور دالي الشهيرة والمعبرة عن روح هذا العصر ...

ولكن لا نجد ولو ملصقاً واحداً لعنترة أو لبطل عربي معاصر ، أو لوحة عربية تعبر عن أعماقنا الحقيقية ...

وهكذا فان جدران جيلنا الطالع المكسوة بالملصقات المستوردة هي مظهر من مظاهر اغتراب الجيل الجديد عن تاريخه وامته ، وتعبير عن تقصيرنا في هذا المجال ...

والمنظمات الثورية الفلسطينية تساهم مساهمة فعالة في تعبئة هذا الفراغ العربي ... وبعضها على جانب كبير من الإبداع حيث تتزاوج الموهبة مع عدالة القضية ، وبعضها الآخر يسقط في المباشرة الفجة .

ملصقات ... القلب

أحب أنواع الملصقات إلى قلبي هي كتابات ورسوم الجدران ... تلك المكتوبة بدم القلب ، وحرقة الشعب ، وكبته السياسي الذي يدفع به إلى الخروج ليلاً ليخط غضبه وثورته على جدران المدينة ... وهذا النوع من (الملصقات) يملأ جدران المدن اللبنانية ، ويصب نقمته على جلادي الشعب ومحتكري أرزاقه وسارقي اللقمة من حناجر أطفاله ...

الملصق الذي لا أنساه طيلة حياتي كان كتابة على أحد أرصفة بيروت ... ففي الربيع الماضي عشقت مشهد طلوع الشمس ، وكنت أستيقظ مع الفجر وأخرج للمشي على شاطىء البحر ... وعلى الكورنيش عند « الرملة البيضاء » كنت أقرأ كل صباح هذه العبارة « كل النساء عاهرات » مكتوبة بالطباشير تحت نخلة معينة على الرصيف ...

وحين تدب الحياة في المدينة ، كانت هذه العبارة المكتوبة بالطباشير تذوب تحت أقدام المارة أو زخات المطر ...

ويوماً بعد يوم ، كنت أرى العبارة نفسها مكتوبة بالاصرار ذاته ، على الرصيف ذاته ... (كل النساء عاهرات) على شاطىء البحر الحزين ... وأثار هذا الملصق فضولي . قررت أن وراءه قلباً مجروحاً ، أو رجلاً تلاعبت امرأة بقلبه ، (أو توهم أنها تلاعبت بقلبه) ، واستيقظ فضولي الوسواس الخناس وذهبت قبل الفجر وجلست في الظلام داخل سيارتي لأرى من هو صاحب هذا (الملصق) ...

وذات يوم قبيل الفجر ، جاءت سيارة صغيرة ./نزلت منها امرأة لم ألمح منها غير خطوط جسدها المرتسمة على أفق البحر شبه المضيء ... وانحنت المرأة على الارض

وبدأت تكتب (كل النساء عاهرات) ... وذهلت ... وتقدمت منها لأسألها عن سرها العجيب ، لكنها هربت ، وذابت سريعاً في أثير ذلك الفجر الحزين .

وما زلت اتساءل حتى اليوم : تراهم اقنعوها بذلك ... أم أنها ... الحقيقة ؟!... حقيقتها ؟ .. حقيقتنا ؟ ...

عين غ تتفرس

في

التصوير الفوتوغرافي

« للصورة اليوم السطوة ذاتها التي كانت للكلمة (المطبوعة) قبل أعوام ، وللكلمة (المسموعة) قبل عصور » .

ـ والتر ليبمان ـ

« كل صورة ناجحة ـ باستثناء بنت المصادفة والحظ ـ تبدأ بفكرة ، وبمخطط واع »

ـ اندرياس فينينجر ـ

« الصورة الفوتوغرافية الجيدة ليست مجرد حادث عشوائي ، وإنما هي وجهة نظر .... إنها تعبير شمولي عن موقف المصور من الموضوع الذي يصوره ، يفجر عبره رؤيته الفنية للحياة ككل » .

ـ آنسل آدامز ـ

١٩٦٩ - ١٩٧٥

اللوحة الفوتوغرافية : فن جديد

انسان نادر .

له أنامل نشال . وعينا قط بري . وذاكرة جاسوس . وطموح مؤرخ . ورؤيا شاعر . ومعدات فلكي . وصبر بحاثة في مختبر . وجرأة فدائي .

برشاقة بقعة ضوء تنزلق على مسرح ، بشفافية شبح أليف ، تجده يتحرك في كل مكان من ذلك المسرح الكبير : مسرح حياتنا المعاصرة ...

كعاصفة لا تهدأ ، يتنقل بين مباهج أهل واجهة المسرح ومهازلهم ، ومتاعب أهل الكواليس ، ومآسي أهل الشارع الخلفي المسكون بالسعال والبرد ، والكوابيس ..

تجده في سيرك حفلات الكوكتيل . تجده في مسرح الدمى والعرائس للسيدات (المخمليات) وعروض ازيائهن وتفاهتهن . تجده في قاعات روليت الانتخابات ، وفي بلاط السياسيين والزعامات وترقيص السعادين ... تجده في قصر قرب جسد تمثال يتدفق من فمه — النافورة : الماء (وربما الشمبانيا) ، كما تجده في بيت من التنك (أو خيمة) امام جسد كادح ، ينزف دماً وعرقاً ..

تجده في سحب دخان القنابل .. في حقول الألغام والموت ..

وتجده في حقول الشمس والكستناء ، في سحب الضحك والغناء لسكة محراث وجديلة وأرنب ابيض وطفل ...

انه فنان من نوع جديد ، لم يكن ممكناً لغير القرن العشرين أن يشهد مولده لأن أداته التعبيرية آلة حديثة .. تدعى الكاميرا .. الكاميرا هي قلمه وريشته .. وأحداث العصر محبرته . والانسان مداد كل عصر ، مداده .

الاسم الرسمي له : مصور فوتوغرافي صحافي ...

البداية

ولدت أول صورة عام ١٨٢٦ من أب فرنسي اسمه نيسيفور نييبس ، وتمت

الولادة على نافذة البيت المطلة على الحديقة . وخرجت اول صورة فوتوغرافية في التاريخ إلى النور ، وكانت تمثل مشهد الحديقة المشمسة من النافذة . كانت الصورة مرتجفة ، مشوشة ، ومع ذلك كانت فتحاً كبيراً في تاريخ الانسان .. واستطاع شقيق رائد التصوير أن يلحظ منذ الوهلة الاولى أهمية هذا الحدث الذي وصفه بقوله انه واحد من اعظم اكتشافات هذا القرن . وكان على حق .

ومنذ ولادة الكاميرا وهي تلعب دوراً اساسياً في حياة الانسان . انها ترافقه في مناسبات حياته كلها كولادته وتخرجه الجامعي ورحلاته . وفي مناسباته التعيسة كوفاته أو زواجه أو دخوله إلى السجن !

الرسم بالكاميرات

والصورة ليست وثيقة حياتية فحسب ، أو حتى أداة صحافية ، بل هي تطورت حتى صارت فناً قائماً بذاته على يدي جيل من المصورين الذين يستخدمون الكاميرا كما يستخدم الفنان الريشة ، وينقلون عبرها وجهة نظرهم في الحياة والوجود ، ورؤياهم الشعرية أو صرخات احتجاجهم ضد الظلم وبشاعة العالم المعاصر ووحشية الحرب .

وهكذا تحولت الكاميرا المعاصرة من مجرد أداة تسجيلية إلى قصيدة شعر ، أو إلى صرخة اتهام انسانية ، أو إلى لوحة تجريدية ، أو إلى ملحمة وثائقية ، ويقول لازلو موهولي ناجي ان الرجل الذي لا يحمل كاميرا سيعتبر « أمي العصور المقبلة » ! وليس في هذا القول مبالغة بالنسبة إلى الولايات المتحدة على الاقل ، إذا عرفنا ان عدد الصور التي يتم تحميضها كل عام هناك هو ٦ ملايين ملايين صورة . وثبت في احصاء هناك « ان نصف الطلاب الجامعيين من مختلف الاختصاصات يدرسون التصوير » — كما أعلن زاركاوسكي ، مدير قسم التصوير في متحف الفنون الحديثة في نيويورك .

وفن صناعة الكاميرات تطور إلى حد تقني مذهل ، لكن ذلك التطور حدث في الوقت الذي لم يعد فيه المصورون الشبان يبالون كثيراً بعين الكاميرا قدر مبالاتهم بعينهم الداخلية ، عين البصيرة لا البصر . ويقول مدير المتحف زاركاوسكي : « لقد تطور فن التصوير من مجرد تسجيل خارجي إلى إعطاء وجهة نظر شخصية . لقد انتقل الاهتمام من التركيز على سطح الأشياء إلى باطنها ومدلولها » .

وأيام كان توزيع مجلة الـ « لايف » حوالي عشرة ملايين نسخة ، أصدرت المجلة

في ٥ تموز ١٩٦٨ عدداً خاصاً عن « رئاسة الجمهورية » ... وكان من الطبيعي ان يتضمن العدد تحقيقاً عن الرئيس جونسون بمناسبة انتهاء مدة (ولايته) ... وكان هذا التحقيق مفاجأة العدد ، لا للصفحات العشرين التي أفردت له وحده ، ولكن لأن الصفحات العشرين تلك كانت تحقيقاً بالصور والصور فقط ! ... صور التقطها فنان الرئيس الخاص (اوكاموتو) ... صور مفرودة على عشرين صفحة ، استطاع الفنان اوكاموتو ان يروي عبرها حكاية جونسون وان يكشف عن زوايا مجهولة في شخصيته ، وان يروي متاعبه وأسرار حياته كرئيس وكزوج وأب وجد ، أكثر مما كان لأي قلم أن يفعل ، ولأية لغة ان تفصح ...

وفي افتتاحية العدد ، كتب رئيس التحرير جورج هانت يقول : « أما وأن الكاميرا تحولت في عصرنا هذا إلى مؤرخ محترف ، وصار المصور كاتب مقال بالكاميرا ، فاننا نترك للفنان يواسي اوكاموتو ليكتب لنا بكاميراته حكاية الرئيس جونسون كما لا يستطيع ان يفعل أي قلم ... ان نتاجه هذا سيظل مرجعاً للمؤرخين بعد ٥٠٠ سنة».

الكاميرا تفطم نفسها عن الصحافة

ذات يوم ، كان حلم كل مصور هو ان يصير مصوراً في مجلتي « لايف » أو « لوك » . اما اليوم فقد تم فطم الكاميرا عن الصحافة وبدأت تكرس نفسها كفن قائم بذاته معترف به في نادي الفنون الكلاسيكية (الرسم ، النحت ، الشعر ، الموسيقى) .

وقد غزت « الألبومات » الفنية المكرسة للرسم الفوتوغرافي أوروبا وأميركا ، وكلها من تصوير فنانين تقول صورهم ما تقوله سطور الكاتب المبدع أو أبيات الشاعر التقليدي ، واستطاعت الكاميرا ان تقول في لقطة مبدعة ما يحتاج قوله إلى شرح قاموسي طويل . ثم ان لغة الكاميرا سريعة ، وهي بالتالي معاصرة ، إنها أقرب إلى البرقية ، وعصرنا عصر برقيات لا عصر معلقات .

الصورة الفنية المبدعة هي تماماً كومضة البرق : سريعة ، شرسة ، تكشف عن الكون حولها في ثانية التماع واحدة هي الثانية التي يستغرقها تأمل الصورة .

وبلغ من مكانة التصوير الفوتوغرافي في عصرنا ان احد الفنانين نعى فن الرسم . فقد صرخ الرسام بول دي لاروش حينما شاهد صورة فوتوغرافية فنية بديعة : « منذ اليوم . مات الرسم بالريشة ! » وهنالك لقطات يقضي الفنان اياماً في الاستعداد لها وتصويرها ، كما ان هنالك لقطات تلعب الصدفة دوراً هاماً في قذف صاحبها إلى

الشهرة ، كما حدث لبوريس يارو الذي استطاع التقاط صور مصرع روبرت كنيدي اذ وجد هناك بالصدفة ومعه كاميرا .

« بورتريه » الكاميرا تنافس الموناليزا

واذا كانت معارض التصوير الفوتوغرافي قليلة في بلادنا ، فقد صار لها في الغرب « غاليريهات » خاصة بها ، واجنحة خاصة في المتاحف الفنية الرسمية ، وقد افتتح مؤخراً في نيويورك متحف خاص بالفن الفوتوغرافي (من المساهمين في تأسيسه مالياً لا فنياً روكفلر) . كما ان المتاحف الاخرى صارت تخصص معارض كاملة لابداع الكاميرا ، ابرزها معرض « التصوير في اميركا » الشامل .

وارتفعت اسعار الصور في سوق هواة جمع « الانتيكات » .

وفي مزاد علني في صالة « سوثبي بلجرافيا » في لندن بيع « ألبوم » صور « بورتريه » تقليدي عمره مئة عام — كانت قد صورته جوليا كاميرون — بمبلغ ١٣٠ الف جنيه استرليني فقط لا غير !

اما احد هواة التصوير الفوتوغرافي ارنولد كرين فقد دفع ٣٥ الف جنيه استرليني ثمناً لصورة واحدة هي صورة الكاتب ادغار آلن بو الملتقطة له عام ١٨٤٨ .

وليست الصور الاثرية (التي يتقاضى ثمنها الورثة لا مصوروها) وحدها باهظة الثمن . فـ « الالبومات » التي يصدرها مبدعو الغرب من المصورين تباع باسعار تنافس اسعار اللوحات الجيدة والكتب الثمينة .

الكاميرا العبقرية

مذهل ما تستطيع الكاميرا ان تصنعه حينما تمسك بها يد سريعة ورؤيا فنية مبدعة ! وبقليل من الحيل التكنيكية يتحول المشهد إلى لوحة تجريدية أو سوريالية أو إلى صورة انطباعية تهب منها الينا رائحة فان غوخ وغوغان . وهواة الصور الفوتوغرافية ، الذين يقبلون على شراء « الالبومات » السنوية لافضل الصور الملتقطة في الغرب ، لا بد وأن يتساءلوا احياناً مثلي : « لو امتلك ليوناردو دافنتشي كاميرا ، هل كان يرسم الموناليزا بريشته أم بكاميراه ؟ ! »

ان فن الكاميرا ليس انتصاراً للآلة ، كما يبدو للوهلة الاولى ، به هو انتصار للانسان . فالانسان المبدع قادر على سحق برودة الحديد وحياد العدسة وتحويلها

بين اصابعه إلى شيء حي ومرهف كاوتار العود . الانسان الذي يجعل الغيتار الاخرس يصدح هو نفسه الذي يخرج الرقة والشراسة والاسى من علبة سوداء مقفلة لها عين واحدة بيضاء كردة الاساطير !

المعذبون في الصحافة

هذا يحدث عندهم .

لديهم كاميرات ومصورون وجمهور ونقاد وصالات فنية وجوائز وهواة جمع صور ومعاهد تصوير ... فماذا لدينا ؟ وهل ما زلنا في عصر « التصوير الحجري » أم اننا نعيش عصر الفضاء حين توجت الكاميرا أمجادها بتصوير الكواكب النائية وحملتها إلى بيوتنا بأمانة لنتأمل أصقاعاً تبعد ملايين الاميال عن تلسكوباتنا ؟ ..

المصور العربي ، ماذا يفعل ؟ وكيف حاله ؟ .

صديق مصور قال لي : « بصراحة يا سيدتي ، نحن النعجة السوداء في قطيع الصحافة » !

فالصحافة التي نفخر بها — نحن العرب — ما زالت للاسف متخلفة — في أغلبها — في استخدامها للصورة . بعض صحافتنا تهوى الثرثرة ، ولم تؤمن بعد بأن الصورة الناجحة تلخص في صيحة واحدة كلاماً كثيراً . ونحن فيما يبدو ما زلنا نحب الكلام الكثير ! وعلى اية حال ، فان جولة مع وجع المصور الصحافي اللبناني قد ترسم صورة عن وجع المصور الصحافي العربي بوجه عام في بعض الأقطار فإلى جولة مع بعض الاسماء (على سبيل المثال لا الحصر) ، فلبنان يزخر بمبدعيه ولا مجال لتعدادهم جميعاً .

اللقيط في دير الصحافة

المصور الصحافي ذلك (الفنان . الصحافي . رجل المختبر . المواطن) ، هو عندنا غالباً موظف درجة عاشرة في ديوان (المتصرفية) الصحافية الانكشارية ... هذا ما خرجت به من حواري مع كثير من الزملاء المصورين .. لكنني لم أكن بحاجة إلى اجاباتهم لأتأكد من بديهيات حول وضعهم (غير المريح) .

وليس هنالك من يجهل أن المصور الصحافي لدينا لا يملك من حقوق الفنان الا البؤس والاهمال ، ولا يملك من حقوق رجل المختبر الا الارهاق ولا يملك من حق رجل الصحافة الا جفاء الرسميين وتهرب المسؤولين . ولا يملك من

حق المواطن الا كلمة (ممنوع) اينما توجه ... ولا يملك من وسائل تبريد الاعصاب الا خراطيم رجال الاطفاء ومع ذلك ، فهو يرافق زميله (المحرر الوطني الغيور) في جولاته على (المعذبين في الارض) للمطالبة بانصافهم دون ان يفكر ذلك الزميل (الوطني الغيور) ولو لمرة بأن ذلك الصامت حامل الكاميرا الذي يرافقه في جولاته من أجل (انصاف المظلومين) هو اول المظلومين الذين تجب الكتابة عنهم ... وتصوير (اللاعدالة) اللاحقة بهم ... وانه قبل ان يذهب بجولاته (الانسانية) بعيداً ، فان هنالك وضعاً (لا انسانياً) لاصقاً به ، هو اجدى بالوصف والتصوير ...

سام مزمزيان وعقدة الاضطهاد

الفنان سام ، في صحيفة لبنانية كبرى يحدثني .. وجهه يمتاز بتلك الشراسة المتحدية اللامبالية التي تغلف عادة وجوه أصحاب النفوس المرهفة جداً ، كما لو كانت قناعاً وقائياً ، لا يلبث ان يسقط حينما يمتد جسر من الألفة والطمأنينة بينه وبين محدثه ...

وحين أزاح سام قناعه ، صار له وجه طفل بريء استحال شعره فضياً اثر ليلة رعب ، وظلت ضحكة عينيه نقية وهو يحدثني بكبرياء عن عالم غير نقي .. يقول « ممنوع » هي الكلمة التي أسمعها في كل مكان اذهب اليه لأصور ... وحتى حينما لا يواجهني بها رسمي أو مسؤول ، فانني اقرؤها في عيون الناس التي تنظر إليّ بحذر وشك ، وتجعل موطىء اقدامي مكهرباً كيفما تحركت ، وحتى لو تصادف أن دخل عصفور إلى حفلة كوكتيل واردت أن أصوره يخيل إلي ان الجميع يصرخون بي لانني غادرت دائرة الطباشير المرسومة على البلاط ، المسيجة بألغام غضبهم وشكوكهم فيما لو تجرأت على مغادرتها .. إنهم مرضى خوفهم وجهلهم ، وتصرفاتهم المريضة تكاد تسبب لي أنا مرضاً مقابلاً : هو الحس بالاضطهاد ، صرت أسمع اصواتهم الخانقة تصرخ بي حتى قبل ان يفتحوا فمهم بالصرخة .. احياناً يضطرني تعنت المسؤولين — غير المبرر — على مواجهة (لاشرعيته) بتصرفات مشابهة ... أكثر من مرة اضطررت لأن اتصرف مثل أي جيمس بوند محترف...منذ سنوات مثلاً ذهبت والزملاء لالتقاط صور محكوم بالاعدام شنقاً ... رغم كلمة (ممنوع) التقليدية التي يرتجلها أي (عسكري) التقطت صورة ، فقامت القيامة (ودبت الصرخة) ، وطاردوني لانتزاع الكاميرا ، وكما لا يحدث الا عندنا ، اضطررت للركض في دهاليز (العدلية) وتبديل الفيلم الذي تم تصويره بفيلم جديد ، حيث تم انتزاع الفيلم (البديل) ونجوت بالصور ...) .

تخيلت سام مطارداً بتهمة (تأدية الواجب) الصحفي .. تذكرت أن زهير سعادة المصور الشاب تعرض لاعتداء عليه في لحظة تفضل زميله جورج فالوف بتخليدها في لقطة نموذجية لواقع يعاني منه المصور .

لكل مصور صحفي لدينا حكاية موجعة مع (التخلف الفكري) لبعض المسؤولين الذين ما زالوا يتابعون عيشهم بسلام في عصر (فورد ابو دعسه) و(صندوق الفرجة)، وما زالوا ينظرون إلى المصور الصحافي نظرتهم إلى (جاسوس يعمل لحسابه الخاص) ، وتجب مكافحته أسوة بدودة التفاح وزراعة الحشيش والانفلونزا الاسيوية !! ..

طاقات مهدورة

رغم الرواتب الهزيلة ، والافتقار إلى ضمانات ، وآلات التصوير القاصرة أحياناً ورغم ظروف العمل القاسية في كل مكان يذهبون اليه ، فقد نجح جيل مصورينا الشبان في تحقيق لقطات رائعة اثبتت أن موهبتهم ليست موضع شك ... وان استعدادهم للمغامرة والفداء لا يقل عن استعداد أي مراسل حربي اجنبي ، رغم يقينهم بانهم لن يتلقوا حتى ولا (تابوت وكفن) في حال اصابتهم ، (بل ان الورثة قد يتلقون فاتورة بثمن الكاميرا اذا لم يعد حطامها مع بقايا صاحبها القتيل !!) :

أسماء كثيرة لمعت ولفتت الانظار وعلقت في اذهان القراء ، اذكر منها على سبيل المثال — لا على سبيل الحصر — الفنانين : سام . همبر . جورج فالوف . جورج سمرجيان . لبيب ريحان. عبد الغني السيد . كوكو. سعيد الفيومي. زهير سعادة . هاري كوندكجيان . مسعود قرداحي. قاسم عباس . جاك فيليب . هاري فاسكين، ادوار قزي.. روبي بريدي . جاك رزق . جان لطوف . حسن حوماني . عباس قاسم وغيرهم. كثيرون منهم غادروا ملكوت الصحافة وقرروا ان يعملوا على طريقة (دالاتي ونهرا) دون الانضمام إلى مؤسسة صحفية بعد ان اقتنعوا بأن (عزوبية) المصور الصحافي عن اية مؤسسة خير له ما دامت (الدوطة) التي تقدم له لا تفي بثمن المواصلات لتنقلاته والحبوب المهدئة لاعصابه !! ..

بصوت يقطر حزناً كصفير الريح الباردة في مغاور الشاطىء ذات فجر شتائي طرح فيه المد عشرات من جثث الاسماك الطفلة ، كذلك كانت اصواتهم وهم يروون لي عشرات الاحداث والمآسي التي يعايشونها ... بصوت يقطر حزناً كله كبرياء وتحد وتجلد تجيئني اصواتهم ... ويتابع سام وهو يشعل سيكاره: « لا يا سيدتي ... ليس لدي

أرشيف لنتاجي ... لمن الارشيف ؟ لمعرض للرسوم الفوتوغرافية ؟ ... ما جدوى معرض بلا جمهور ، جمهوره الأجيال القادمة التي لم تأت ؟ تاريخ .. نتاجي كله للريح ... غداً ؟ لا أفكر بالغد .. تكفيني مأساتي بالتقسيط ... يوماً بيوم ... ! لو انك ترين وقفتنا ، سرباً من المتعبين تحت المطر امام الابواب ... ساعات وساعات تنتظر ولادة الخبر – تشكيل وزارة مثلاً – ننتظر بصبر كما ينتظر أب مولد طفله الاول ... كل خبر هام هو بالنسبة الينا طفلنا الاول». و« سام » اصبعه على زر الكاميرا سريعة كاصبع « كاوبوي » على زناد مسدسه . استطاع تصوير لقطات مذهلة في مطار « الثورة » في عمان يوم فجر الفدائيون الطائرات المخطوفة الثلاث ، وفازت احداها بجائزة عالمية وتناقلتها وكالات الانباء ومجلات العالم الكبرى .

زهير سعادة

سريع ومرهف . وكأي فنان يعبر عن وجهة نظره السياسية والانسانية في لقطاته . صورته « جنوبي لبنان » تروي الحكاية : وجه متعب مستنفد يمثل الماضي ، ومن خلفه يطل هلال المستقبل في طفل حاد النظرة .

اما صورته « العنكبوت » فقصيدة شعرية تمثل اتجاهاً هاماً للتصوير في اميركا ، وهو التقاط المشاهد اليومية بطريقة تجعل الشعر أو القصة يقطر منها ويمنحها مدلولا ابعد (مثل صورة لرالف جيبسون تمثل « سيلويت » اسود ليد امتدت لتفتح المقبض المضيء لباب نصف مغلق) .

لقطات رائعة للعمل الفدائي بعد اسابيع قضاها معهم والرشاش في يد والكاميرا في الاخرى . يلخص لي آراء الزملاء حاضرهم وغائبهم :

المطلوب اعادة النظر في مفهومنا للمصور الصحافي من قبل : السلطات . المؤسسات الصحفية . المجتمع .

المطلوب تحرير الفنان من النظرة الطائفية المتحجرة .. (فهم) يسألون المصور : من أية جريدة أنت ؟ ... ويعتبرونه امتداداً لسياسة (الجريدة) ، ويستخدمون صفتهم الرسمية لمنعه أو لتسهيل مهمته وفقاً لولائهم (الطائفي) الذي ما يزال للاسف فوق ولاء الموظف (للدولة) ...

المطلوب منح المصور الصحافي بطاقة من وزارة الانباء تؤمن له حرية الحركة اسوة بالمحررين النقابيين ... ودون ذكر اسم المؤسسة التي يعمل فيها ، لأن ولاء

الفنان هو الحقيقة وهو (عميل للحقيقة المجردة) التي لا تتفق بالضرورة مع (الحقيقة) كما تراها الدار الصحفية التي يعمل فيها ..

ضمانات تحررهم من الخوف والقلق ، ومن اضطرارهم للهرب من الصحافة إلى انشاء مكاتب مستقلة ...

انقاذ المصورين من ابشع انواع الاحتكار الذي تمارسه الدار الصحفية على طريقة ابتلاع السمك الكبير للسمك الصغير .. وضمان اعطائهم نسبة مئوية عادلة في حال بيع الدار لنتاجهم إلى الوكالات الاجنبية وغيرها .

(قاسم عباس ، المصور في دار صحفية معروفة ، الكاميرا أفيونه ، ووسيلته للتعبير عن نظرته إلى الوجود ، كان في حديثه الهادىء يكرر الملحوظة ذاتها : الاستهتار بالمصور الصحافي وبمهنته لا كفن فحسب ، بل كعلم يتطلب المتابعة والمثابرة ...

انه يتهم المحرر العربي بعدم تقدير قيمة الصورة في الصحافة الحديثة .. ويتهم المحرر والقارىء على السواء بجهله للمفهوم الحديث للصورة حيث (الوضوح) بمعنى (المطابقة الحرفية) لم يعد المطلب الاساسي ... الاهم هو أن (تقول) الصورة شيئاً ما ... أن تقوله على طريقتها ... وإقامة معارض للتصوير الفوتوغرافي ضرورة لتنمية قدرة الناس على التذوق الكامل والسليم لهذا الفن الحديث .

جورج فالوف

الابداع العربي اللبناني في مجال الكاميرا يلفت الاهتمام . هنالك صورة التقطها جورج فالوف من وراء زجاج سيارته المغطى بالمطر هي اشبه بلوحة انطباعية اقترح تسميتها « المطر يفترس المدينة » . صورة اخرى التقطها لطائرة « كونكورد » وتبدو فيها واقفة على اسلاك الهاتف كالطيور . انها اشبه بلوحة عصرية معبرة : « طائر العصر ايضاً يستريح » ! اما صورته « اطفال في الجنوب » فتروي حكاية البؤس العاجز عن قهر براعم الطفولة ، أي المستقبل المضيء رغم سواد كل ما حوله .

هاري كوندكجيان

في صوره صرخة احتجاج من أجل آلام البشرية المعذبة والجائعة في عصر يموت الناس فيه جوعاً وتخمة في آن واحد! صورة له عن اعاصير الباكستان نالت الجائزة الاولى في العالم .

« تمثال شكر من الارض » هو.« سيلويت » يرفع يدا تجريدية نحو السماء، والجميل في الصورة ذلك النور في السماء كما لو كان جواباً مكتوباً بالسحب المضيئة : السماء تقبلت الشكر ورضيت !

جورج سمرجيان

عينه حادة وذكية في التقاط الزاوية التي تعبر عن وجهة نظره . صورته لرشيد كرامي ، التي ابرز فيها قنبازه وقدمه المرفوعة في وجه الكاميرا ، تذكرني ببعض قصائد الحطيئة في الهجاء !

لقطة لحمامة في لحظة الطيران تبرز في حركة الجناحين جمال التحليق والعطاء ، ويذكرني بكتاب اجنبي علمي عن الطاقة اختاروا له رفة جناح العصفور غلافاً ورمزاً للطاقة في اجمل صورها الطبيعية العفوية .

حسن حوماني

مستعد للتضحية بحياته أو دخول السجن من أجل لقطة ناجحة ، تماماً كما الاديب الاصيل مستعد للموت أو السجن اذا كان في ذلك اطلاق لسراح حنجرته ! انه ابن الجنوب والنبطية ، وله مغامرات في مواجهة العدو الاسرائيلي بكاميراه وتسلله بالعدسة المكبرة (تيلي اوبجكتيف) وتوغله وراء الاسلاك لتصوير الحشود المهيأة للاعتداء على ارضه ...

صبور وهادىء ، كاميراه ذكية ، كما في تلك الصورة التي تمثل طفلة خائفة متمسكة بشقيقها الطفل الحمش ، واسم الصورة : « انها لا تؤمن بمساواة المرأة مع الرجل » !

يحب استعمال كاميراه بشاعرية ، لكن متطلبات العمل الصحافي والركض من طائرة إلى اخرى لا توفر له المناخ اللازم للتصوير دائماً بحنان كما يريد .

محمد شبو

السيارة ثمينة ، والطفل ايضاً ، السيارة فاخرة والطفل جائع والام تتسول . سلسلة من الصور « الملتزمة » أكثر من أي شهادة حزبية ، تصور وجها من وجوه مجتمعنا الطبقي البشع . مجموعة من اللقطات لمتسولي التكنولوجيا الذين يتخذون من منطقة

الشارات الحمراء والخضراء – حيث تضطر السيارات إلى التوقف – مراكز لنشاطهم . وتتهم الصور مدنيتنا المزيفة : «لقد استوردتم السيارة ولكن لم تستوردوا الحضارة – لانها لا تستورد – ما دام في الشارع جائع ! ما جدوى التكنولوجيا لمدينة بلا عدالة !» في صورة وثيقة اجتماعية وصرخة احتجاج واعية .

سيمون الجمل

صرخة احتجاج واعية : ابن الصياد الصغير يحمل من السلال ما هو فوق طاقته ويذهب بها إلى البحر . فهل يتعطف البحر ويملؤها لتمتلىء البطون قبل النوم ، أم ينامون ليلة اخرى بلا عشاء ؟

جورج عابديني

مهارة تقنية ، وعوالم « بسيكاديليك » ووجوه حائرة في غابة من الالوان ... صورته رحلة مع الضوء ودراسة جمالية مرهفة .

فاروج مافيليان

ايقاع الحياة اليومية الشرس ورصد حي لنبضها ... في مخيم الرشيدية فدائي يحتضن طفلا وبندقية . حين يسقط الفدائي يكون دور الطفل قد حان لحمل البندقية .

لديه صورة رائعة لجريح وقد تدلى جسده كما جسد المسيح في الايقونات ، وقد امتدت الايدي إلى الاعلى لحمله – أم لعلها تتوسل إلى السماء كي ترفق بجسده المصلوب برصاصة !

لدى فاروج صورة مروعة عن هشاشة الجسد البشري . صورة اصطدام سيارة وقد تدلى من النافذة انسان يحترق . هذا الانسان كان إلى ما قبل لحظة التقاط الصورة مثلنا ، مملوءاً بالامال والتوقد وربما الحزن ... وربما كان ينصت إلى اغنية رقيقة ويفكر في حبيبته !

قاسم عباس

اختصاصي في ابراز جمال المرأة وان تكن عيناه تلتقطان الجمال في كل مكان . طالما صوّر الفنانات شبه عاريات الا من الرموش الاصطناعية !

عدنان ناجي

كاميراه حاذقة في استخدام التكنيك للتعبير عن رؤياه للاشياء . حين صور مدينة بيروت لأجل روايتي « بيروت ٧٥ » رسمها كما كتبتها : مدينة من الملح فوق بحر من الرمل ... بلا جذور ،رسمها مهزوزة كمدينة لحظة الزلزال. عماراتها الشاهقة، استطاع ان يصورها على حقيقتها، وحيدة في مهب الرياح ، شاهقة ولكن فارغة!

في صوره، الحركة عامل اساسي ، وهو يتقن ابرازها . فحتى الابنية في صوره تمشي وتتحرك في ايقاع متواتر .

لديه صورة جذع شجرة معتقة كأنها قصيدة العطاء على طول السنين،دونما تعب.

صورته « وجوه » تعرية لواقع المرأة العربية في اكثريتها الساحقة ، لا امرأة صفحات المجتمع التي تزيف حقيقة ما يدور تحت قناع غربي من الأزياء والرقصات !

فنانون بالرغم عنا !

الأسماء التي ذكرتها — على سبيل المثال لا الحصر — هي عينة من المواهب العربية الكثيرة الراكضة خاف لقمة العيش وعلى كتفها كاميرا ، وفي صدرها كلام كثير مبدع . ولكن ...

الرسام بالكاميرا مظلوم .

على الصعيد الرسمي : لا أحد يجيء ، لا شيء يحدث .

وحتى الدول العربية التي بدأت ترعى فنانيها التشكيليين ما زالت ساهية عن ان التصوير الفوتوغرافي صار اليوم فنا عصرياً هاماً ، وانه من الضروري مساواة الرسام بالكاميرا بزميله الرسام بالريشة . اما في لبنان ، بلد الاشعاع ، فما زال الكثيرون يعجزون عن التمييز بين فنان الكاميرا والمصور «الاثري» الذي يحمل علبته بسيقانها الثلاث وهو يهتز خلفها على ساقيه العجوزين !

نحن العرب لدينا معاهد للفنون الجميلة،لكننا نفتقر إلى معهد واحد للتصوير الفوتوغرافي الفني ؟

مصورونا ما زال مرغماً على ان يكون خريج معمل لا خريج معهد ! ليس في العالم العربي كله « غاليري » خاص بعرض ابداع الكاميرا ، ولا متحف لفنها ولا حتى جناح في متحف ! إلا فيما ندر .

ورغم ذلك يكافح مصورونا ويدفعون من جيوبهم ثمن ادخال هذا النوع من الفن

الحضاري إلى بلدنا. والمعارض الفنية من هذا النوع قليلة لكنها مهمة وتستحق الوقوف عندها . فبعد معرض روبي بريدي في صالة « الفينيسيا » منذ اعوام ومعارض اخرى قليلة ، نشهد معرض جان لطوف وفيه اعمال سورياليه وانطباعية و « بورتريه » رائعة . ان زهرته الطالعة من الجمجمة مثيرة ومحرضة للخيال كأي قصيدة سوريالية ناجحة .

المصور في لبنان يلهث باستمرار راكضاً ، فهو مرغم على تصوير جريمة في الصباح وجلسة نيابية ظهراً وحفلة مصارعة بعد الظهر وجولة حربية ليلاً ... ووسط هذه الدوامة التي لا رحمة فيها ولا تفهم نجده مع ذلك يبدع « ويثبت وجوده » بل ويفوز بجوائز عالمية ، ولكن ... لا كرامة لمصور في وطنه !

عين غ تتفرس

في

ليلة رأس السنة

« هذا موتي ! ... سيوسع مداركي أن
أفهمه »

ـ آن سكستون ـ

« عام مضى .. عام بدأ .. هذا لا يحدث
فقط يوم ٣١ ديسمبر . إنه يحدث كل
يوم ، لأن كل يوم يختم الـ ١٢ شهراً
المنصرمة »

ـ سير والتر سكوت ـ

« كثير من شواهد القبور يجب أن تحمل
هذه العبارة : مات في الثلاثين ، ودفن في
الستين ! »

ـ نيكولاس ميوري باتلر ـ

٢٢ / ١٢ / ١٩٧٢

ليلة ... الجنون ... والصحو !

رن جرس الهاتف في بيتي عند منتصف الليل . رددت بقلق ولهفة ، لأن هواتف منتصف الليل هي للعشاق ، أو المرضى المشرفين على الموت ، أو لأية أنباء طارئة وغير عادية .

وفوجئت بصوت صديقة لم أرها منذ زمن بعيد ، وبأنها هتفت في هذه الساعة ، فقط لتسألني أين سأقضي ليلة رأس السنة ! قلت لها بغيظ : لم أفكر بعد ، ولم أقرر شيئاً . (خجلت من ان اقول لها انني عادة افضل ان اقضيها وحيدة أتأمل وأفكر وأقاضي نفسي والزمن) .

غرد صوتها : عظيم . انا سعيدة لانك لم تقرري شيئاً بعد ، فهذا يعني انك ستسهرين معنا . لدي فكرة مدهشة لن يكون بوسعك رفضها .

— لماذا ؟ هل قررت افتتاح مقهى فوق سهول القمر ؟ ...

— لا . ولكننا سنفعل شيئاً مشابهاً ... سنقوم برحلة فوق باخرة سياحية ، ونقضي ليلة رأس السنة مبحرين إلى قبرص ، أو إلى حيث لا ندري . ما رأيك ؟

(تخيلت كيف سيكون الأمر . الباخرة تشق صدر الليل والسكون بحثاً عن قارة الفرح المنسي وأنا أجلس وحيدة مع ذاتي ، أواجهها ، وأتجول في سراديب الذكرى المختومة بالشمع الاحمر : النسيان . ألملم صيدي وقتلاي ، وحطام مراكبي ، ورائحة الهشيم ، وغبار المعركة على طول أعوام عمري ، وأتكوم في منتصف البحر عارية من أقنعة التخدير والهرب ، أتأمل ظلمة الوجود المهيمنة فوق البحر الغامض ، وعبثاً أصطاد نفسي من بحر ضياعي .. وألقي بصنارة الامل في الماء ...)

وشكرت التي تذكرتني في ساعة مجنونة من أجل ليلة مجنونة الابتكار ..

ولكن ، ليست صديقتي وحدها الباحثة عن ليلة مبتكرة ...

العالم كله يحاول ايجاد افكار مبتكرة جديدة لليلة رأس السنة منذ آلاف السنين ...

ومنذ أيام الفراعنة والفينيقيين والفرس والاحتفالات تقام ليلة دخول السنة الجديدة ، وكانت تقع في ٢١ ايلول (سبتمبر) مع دخول الخريف ...

أما الاغريق فقد ظلوا حتى القرن الخامس قبل الميلاد يحتفلون بدخول العام الجديد يوم ٢١ ديسمبر (كانون الاول) مع دخول الشتاء ... والرومان القدامى ظلوا يحتفلون برأس السنة كالاغريق حتى جاء يوليوس قيصر وأعلن تبنيه ليوم ١ كانون الثاني (يناير) كأول ايام السنة .. وفي العصور الوسطى في اوروبا ، كان يوم ٢٥ مارس (آذار) هو يوم رأس السنة لدى المسيحيين ... وظل يوم ٢٥ ديسمبر (كانون الاول) اول ايام السنة في انكلترا ، حتى جاء وليام الفاتح ونقله إلى أول ايام كانون الثاني ... وبصورة عامة لم تعتمد ليلة أول كانون ثاني نهائياً في اوروبا كلها الا في منتصف القرن الثامن عشر .

ورغم أن سكان الكرة الارضية لم يتفقوا بعد على بدء العام الجديد ،في وقت واحد ، وما يزال أكثر من نصف سكانها يبدأون عامهم الجديد وفقاً لتقييمات خاصة (كالصينيين والفيتناميين) ، فان هناك أمراً واحداً اتفقوا عليه منذ اقدم العصور وهو اعتبار آخر ليلة في السنة القديمة وأول فجر في السنة الجديدة ساعات خاصة من حياتهم لا بد من الاحتفال فيها كل على طريقته ...

واوروبا المعاصرة تحتفل بعيد رأس السنة احتفالاً صاخباً وتمتد الاحتفالات على طول ايام بين عيد الميلاد ورأس السنة ، تماماً كما في احتفالات الفرس القدامى بالنيروز وغيرها من الاحتفالات التي يعود عهدها إلى آلاف السنين وكانت تمتد اسابيع عديدة...

ففي عيد رأس السنة في لندن تتحول المدينة إلى شعلة من الاضواء والصخب والجنون ... ولندن ذات الشوارع الهادئة التي لا تسمع فيها بوق سيارة طوال العام، تزعق فيها أكثر من تسعة ملايين سيارة مرة واحدة عند منتصف ليلة الجنون اياها ... والامر نفسه يتكرر في العواصم الاوروبية الاخرى ...

أما في البلاد العربية ، فقد كان الاحتفال برأس السنة يقتصر على أقلية ميسورة ، ولكن الاعوام الاخيرة الماضية شهدت حماساً لدى الناس للجنون في « ليلة الجنون » هذه ، وتفنن الناس في أكثر عواصم المدن العربية للاحتفال في تلك الليلة ، ولم يعد الاحتفال مقتصراً على الميسورين وانما تعداه إلى القادرين على الاستدانة ! .. وفي العام الماضي كانت بيروت ليلة رأس السنة غجرية مجنونة أرخت شعرها وركضت ترقص ثملة عارية القدمين في دروب الليل الماطرة ... فالمطر لم يحل في العام الماضي بين الناس

والشوارع ، ومن لم يسهر خارج داره ، أيقظه زعيق المارة وجنونهم وأصوات فرامل السيارات والاصطدامات ! . وحتى المقاهي في بيروت تم احتلالها من قبل (المتظاهرين) بالعام الجديد...وتفجر من الناس عنف مكبوت لا يخلو من الايذاء. والظاهرة التي تلفت النظر في احتفالات رأس السنة هي نزوعها إلى العنف والجنون عاماً بعد عام كنوع من الاحتجاج على سوء توزيع الثروة ، والافتقار إلى العدالة الاجتماعية . ... العلماء والفلاسفة والمفكرون وربما الفقراء ، هم فقط الذين يقضون رأس السنة وحدهم . ففي تلك الليلة ، يعي الانسان أكثر من أي وقت مضى انه يموت (بالتقسيط) ، وانه لا يملك لهذه الحقيقة شيئاً ، وأن حياته ليست سوى زحف بطيء ارغامي نحو النهاية .. ليلة رأس السنة يعي الانسان أكثر من أية لحظة اخرى ان الحياة ليست أكثر من غوص مستمر بطيء في مستنقع الرمال المتحركة المدعوة بالحياة .. وأجمل قصائد الادب العالمي وأكثرها حزناً هي تلك التي خطها الفنانون تحت وطأة هذا الشعور .

وعلى ضوء وعي الانسان بقصر الحياة وانزلاقها من بين اصابعنا كحفنة الرمل، يمارس البعض مراجعة ذاتية ، ويفتحون (دفاترهم) النفسية وحساباتهم الانسانية ، فيأتي حوارهم مع ذاتهم مجرداً من الغرور والفخفخة لانه أمام الموت تنفقىء فقاعات السطحية والادعاء .

ان أصحاب المؤسسات والشركات يقومون بجردة مالية لحسابات العام الماضي مع مطلع كل عام ، فلماذا لا يختلي الانسان مع مرآته وحيداً من اقنعته مع مطلع كل عـــام ليقوم (بجردة) انسانية محاولاً تحديد مواقعه من الآخرين ومن حقيقته ومن وجوده ؟

مما لا شك فيه انه حتى الانسان العادي يعي – ولو وعياً مبهماً – أن ليلة رأس السنة هي صفارة إنذار الموت التي تقرع كل عام ... ويعي أيضاً خيبات عمره وماضيه. وتستيقظ مخاوفه من المستقبل ، وتنتابه حالة من الفزع من العام المقبل ، وتمتزج في داخله هذه المشاعر كلها لتعبر عن ذاتها في احتفال جماعي هستيري افريقي الايقاع يختلط فيه الفرح بالحزن ، والكآبة بالعويل ، كله صخب وكآبة مقنعة بالفرح .. كأن الفرح الوحيد ليلة رأس السنة هو أن الانسان استطاع أن يصمد عاماً آخر ! ... ويخيل الي ان « الصخب الصوتي » الذي يرافق دخول العام الجديد (من نفخ في الزمامير وعويل موسيقى ونفخ في الابواق في العصور الوسطى تحول إلى نفخ في زمامير السيارات في الشوارع وابواق البواخر في السفن ، والمفرقعات والمتفجرات وغيرها) ، هذا

الصخب الصوتي ليس إلا صورة معاصرة للاحتجاج وهي تشبه تماماً ظاهرة الاحتجاج البدائية لدى القبائل القديمة ، حينما كانت تواجه قوى لا يد لها في تبديلها منذ أقدم العصور ..

فرحة ... الخائفين

ففي حالات الخسوف والكسوف مثلاً التي لم يكن الانسان القديم قادراً على تحليلها علمياً ، كانت القبائل تخرج إلى الغابات وتحمل الطبول والاواني النحاسية ويظل كل انسان يقرع ويقرع والزعيق يتعالى إلى السماء احتجاجاً وخوفاً في هستيريا جماعية كبيرة ...

ربما كان هذا بالضبط ما يحدث ليلة رأس السنة ... كل ما في الامر ان أقنعة القبيلة صارت من البلاستيك ، والطبول التي تقرع صارت جزءاً من الاوركسترا ، والاصباغ الاحتفالية التي يلونون بها وجوههم صار اسمها ماكياجاً ، وثياب فرو النمر (الطقسية) صارت بزة (سموكن) أو (بيير كاردان) أو (تيد لابيدوس) ... وحينما يعبّر المساجين عن سخطهم نجدهم يقرعون كؤوسهم النحاسية في صخب محتج .. وفي رأس السنة نجد الناس جميعاً — سجناء قفص الموت المحتوم — يعلنون احتجاجهم بالقرع على جدران الحياة ، التي ليست في الحقيقة سوى زنزانات للموت الاكيد ..

وحينما يغضب الطفل ، يمسك بأول كأس زجاجية ليرمي بها إلى الارض ويحطمها .. وما أشبه ذلك بعادة تحطيم الكؤوس ليلة رأس السنة ، حيث لا يرمي الانسان بكأسه التي شربها إلى الارض ليحطم الماضي بقدر ما يرميها سخطاً لخوفه من المستقبل ...

وعاماً بعد عام نلحظ تزايد الكوارث ليلة رأس السنة مع تزايد ظاهرة العنف والجنون تلك الليلة ... هنالك الخمرة التي يشربها الناس حتى الثمالة ، محاولين عبرها العودة إلى عالم الطفولة الراحل هرباً من الرعب الحاضر والمستقبل ... لكن الخمرة لا تصنع النسيان كما أن السنونو لا يصنع الربيع ، والقبعات الملونة لا تصنع الطفولة .. والرقص المجنون لا يعيد الشباب .. كل ما تفعله الخمرة هو تأمين رحيل سريع عن هذا العالم ، وتحقيق عملي لمخاوف الانسان من الموت ... فقد دلت الاحصاءات على ان عدد الناس الذين يموتون ليلة رأس السنة هو أكبر من عددهم في أية ليلة اخرى ،

وانه في الولايات المتحدة وحدها يموت تلك الليلة في حوادث السير وغيرها ما يوازي عدد (المرحومين) بالحوادث طيلة العام ...

ودلت الاحصاءات أيضاً على أن عدد ضحايا « جنون رأس السنة » في تزايد مطّرد عاماً بعد عام عندهم ...

لماذا ؟ ...

لان المجتمع الاستهلاكي يخنق أنفاس الفرد عاماً إثر عام ... ولأن العيش في شوارع السردين المعلب اضحى تعذيباً مستمراً ... حيث الزحام ... والتلوث ... والتدجين الاجتماعي.. والعلاقات الانسانية المخلخلة.. والمدينة كاراج كبير عبثاً تهرب بسيارتك فيها من زحام السير ،وانت تركض وتركض وعقارب الساعة مسلطة فوق الرقاب كسيف اسطوري ... الكل متوتر ومشدود ولاهث ومعبأ بالخيبة والقرف ، وتجيء ليلة رأس السنة إلى سكان شوارع السردين المعلب ، فيواجه الكثيرون خواء حياتهم رغم زحامها .

ان « جنون ليلة رأس السنة » هو صرخة احتجاج على المجتمعات الاستهلاكية ، حيث مات الفرح والامل ، وبقيت أقنعته وزماميره وقبعاته وجثته الخفية المعلقة بين الزهور الاصطناعية وزينة العيد ..

كثيرة هي مظاهر الثورة على المجتمعات الاستهلاكية ولكن بعضها ينتهي ليلة رأس السنة إلى موقف هستيري مجنون .

بيروت سدوم وعمورية

وبيروت اليوم ، بمجتمعها الاستهلاكي الصغير ، تفوح منها روائح التلوث المادي والخلقي .. ونجد فيها صورة مصغرة عن كل مآسي وفظاعات مدن السردين المعلب .. ومجتمعها المخملي امتداد لمجتمع سدوم وعمورية بما فيه من فساد خلقي مستورد .

وفي ليلة رأس السنة يتم استعراض مواهب بيروت في تكثيف أمراض العصر واحتضانها ، وهي في نظري ظاهرة تثير من الحزن والخشية أكثر مما تثير من الغيرة على الاخلاق ..

ففي ليلة عيد البربارة منذ اسابيع ، خرج الشبان إلى الشوارع ، ولوحظ ان أكثرهم قد اختار لنفسه الجمجمة قناعاً .. وكان منظرهم هذا مروعاً .. انبثقوا من

قلب الظلام قافلة من الموت ، وكانت أغانيهم تشبه الشتائم ، واصواتهم تطلق الصفير الهائج الذي نسمعه عادة في التظاهرات الغاضبة ..

ومنذ أيام لاحظت ان أكثر الاقنعة في واجهات دكاكين بيع الالعاب هي أقنعة الموت (الجمجمة) أو أقنعة تمثل وجوهاً حزينة ومتجهمة أو منقبضة السحنة .. ويخيل الي ان الناس الذين ألفوا في بلادي ارتداء تعبير الرضى الكاذب على وجوههم طوال العام ، سيختارون الآن قناعاً يعبر عن وجههم الحقيقي . حينما تختلط القيم ويصير الوجه قناعاً ، نجد الانسان يبحث عن القناع الذي يشبه وجهه الحقيقي ..

قناع الموت ..

لانه لو وقف أي عربي ليلة رأس السنة ليفكر بحياد في موقعه من العصر والتاريخ لارتدى قناع الموت والفداء ..

وهستيريا ليلة رأس السنة في بيروت لا تثير غضبي من أجل الاخلاق ، وانما تثير حزني من اجل احزان الناس وثوراتهم المكبوتة التي تعبر عن نفسها بشكل منحرف والتي تهرب من مواجهة المشاكل الحقيقية إلى التخدير والرقص المسعور ، والاضواء التي تطفأ منتصف ليلة رأس السنة كي يرضى الرجال بتقبيل زوجاتهم (أو كي يتاح لهم تقبيل زوجات الآخرين) ، هذه الانوار تظل لدينا مطفأة بقية العام كله .. مزيد من الظلام .. ومزيد من الضياع .. وغداً ، تطالعنا الصحف بصور « ليلة الجنون » في بيروت ، ونحن أحوج ما نكون إلى وقفة صدق مع الذات الفردية والجماعية الوطنية .. فنحن نداوي جراحنا على طريقة الهيبيز .. وإذا كان بعض الهيبيز قد نجوا بانفسهم عبر الهرب إلى الطبيعة ، فهذا الحل لا يجدي عندنا .. فتخديرهم لذاتهم هو هرب من مواجهة مشكلات حضارة التخمة .. اما تخديرنا لذاتنا فهرب من مواجهة مشكلات (الطفر) أي الفقر والتخلف .

كشف لشهوات العام المقبل

هذه الخواطر كانت تنزلق في اعماقي وانا ذاهبة إلى صديقتي للمشاركة في الرحلة البحرية ليلة رأس السنة .. كنت فرحة لانني سأقضي رأس السنة بعيداً عن الصخب وهستيريا الموسيقى والزمامير والفضائح ، بعيداً عن الناس الذين يعدون كشفاً بشهواتهم للعام المقبل وبرنامجاً لتنفيذها بدلا من كشف لاحداث العام الماضي وسقطاتهم الانسانية وبرنامج لتجاوزها .. (سنهرب من الضياع الذي يغرق الناس فيه .. سنذهب في

مركب ليس له شراع وإلى ليلة ليس لها أفق .. بلا أقنعة ولا زمامير ولا تقليعات . سنرحل إلى الليل لنقف وسط البحر كعيدان القصب في الريح ، عارين الا من حقيقتنا.. كل يتأبط ذاته ويواجهها ويحاورها بعيداً عن العيون الفضولية ، الا أعين السمك المدهوشة التي لا تملك جفوناً تسدلها أو دموعاً تبكينا بها) ..

وفتحت صديقتي الباب . وحاولت أن أقول شيئاً .. ان أقول لها ان الانسان الذي يقضي عامه بأكمله مع الناس هو بحاجة إلى ان يعيش ولو ليلة واحدة كل عام مع ذاته .. حاولت ان اقول لها اشياء كثيرة حلوة .. ولكنها فتحت لي الباب ثم انشغلت عني بالهاتف وبالصديقات اللواتي جنن للتخطيط عملياً للرحلة .. وسمعتها تحدث على الهاتف أحد افراد اوركسترا (يه يه) وتذكره بضرورة جلب الطبل الكبير وأدوات الاوركسترا كلها .. وكانت بقية الصديقات غارقات في التخطيط لازيائهن وقد دخلن في حوار يشبه الشجار عن ضرورة اصطحاب حلاق شعر في الرحلة لان الريح البحرية قد تفسد التصفيفات الحديثة .. وعن اصناف الطعام .. والجرسونات ..

وجلست مشدوهة صامتة .. كنت اظن ان الباخرة ستكون حقاً رحيلا عن العقلية السائدة ، ولم أكن أدري ان الباخرة ستتحول إلى مطعم عائم من مطاعم بيروت بكل ما فيها من هستيريا وجنون وخدر وتفاهات ..

ماذا أفعل بنفسي تلك الليلة ؟ ..

أكثر الافكار اغراء : ابتلاع عدة اقراص منومة ، لانه اذا كان لا بد من التخدير في تلك الليلة ، فليكن تخديراً بلا اقنعة . وليتم ببساطة ودون طقوس .. (ربما سأضيء شمعة واحدة سوداء) .

ولكن .. أينما كنت .. سأحلم بالبحر ، وبالليل ذي الريح المنعشة ، الليل النابش للجراح العتيقة ، وللجراح الآتية .

عين غ تتفرس

في

المصيف

« إن اختيارنا لإجازتنا : مكانها وزمانها
وأسلوب قضائها وجوهر سلوكنا خلالها ،
هذا الاختيار له مدلول يعبر عن شخصيتنا
الحقيقية أكثر من أي أمر آخر يلخصنا »

ـ أليك واط ـ

« الجميع تقريباً يستخفون بقيمة الإجازة »

ـ ويليام فيزر ـ

١٦ / ٨ / ١٩٦٨

لبنان المصيف : وطن أم فندق ؟

« المصيف » ليس مجرد اشتقاق من كلمة « صيف ــ الفصل الحار » ، **الذي تجاوزه** عصرنا ولو على نحـــو محدود حين اخترع أجهزة تكييف الهواء وآلات التـــبريد الاصطناعي ..

اذ ان تلك الآلات مكنت الانسان المعاصر من « الغاء الصيف » كفصل حار ، في المنزل والسيارة والمكتب ، (واختيار الفصل الذي يفضل عبر تحديده لدرجة الحرارة والرطوبة المطلوبان بواسطة زر صغير أحمر يضغط عليه بإصبعه .)

المصيف : إجازة من الحر الداخلي !

ولو كان المصيف مجرد هرب من حر الطقس ، لوجد العلم حلاً لنفقات الانتقال إلى المصيف عن طريق اختراع حديث ، يؤمن تكييف هواء مدينة بأكملها ، الامر الذي لم يسارع العلماء لاجراء تجاربهم في ميدانه ، لا لأن تكييف وتعديل هواء مدينة بأكملها يبدو مستحيلا ، فجميع الاختراعات قبل اختراعها كانت تبدو مستحيلة وأقرب إلى الهذيان ..

(مثلا فكرة القدرة على سماع صوت انسان في قارة اخرى ، والرد عليه ، كانت تبدو أكثر من مستحيلة قبل اختراع التلفون ..

وفكرة مشاهدة الاشخاص الاموات ، والاستماع اليهم ، بدون تحضير الارواح ، كانت تبدو كالإلحاد قبل اختراع السينما ، ثم ، ألم يخترعوا الغيوم الاصطناعية والمطر الاصطناعي ؟ ..) ...

لكن أحداً من العلماء لم يفكر بعد بانهاء عصر « المصيف » عن طريق تكييف هواء المدن ربما لانهم يعلمون أكثر من سواهم ان المصيف ليس اجازة من الحر الخارجي ، الحر الذي تدل عليه مؤشرات قياس درجات الحرارة ، بقدر ما هو اجازة

من الحر الداخلي : حر الارهاق النفسي والفكري والعاطفي ..

اجازة من حر الحياة المعاصرة التي تتزايد تأججاً في أعصاب الانسان ورأسه كلما ازدادت حضارته نمواً وبالتالي تعقيداً ... وبعبارة اخرى ، يدفع الانسان ثمن مكيف الهواء — الذي يخفض درجة حرارة غرفته — من ارتفاع درجة اعصابه هو حتى الاحتراق والاهتراء ... واعصاب الانسان المعاصر الملتهبة ، ذات الصيف الدائم ، بحاجة إلى اجازة ...

الطمأنينة : في الطبيعة

ورغم رقي العلم ، يظل الاستلقاء على تراب المرعى والتحدث إلى ضفادع الغدير خيراً من الاستلقاء على اريكة أمهر طبيب نفساني في المدينة !... والاستسلام قبل النوم لاصوات الليل في الغابة المبهمة ، ذلك المزيج الوجودي من همهمات الينابيع والصراصير والاشجار أفضل من ابتلاع انبوب من الفاليوم وبقية العقاقير المهدئة والمنومة ...

فالطبيعة اذ تعيد الانسان إلى ذاته ، تعطيه مجاناً السلام والأمن والراحة .. أما العقاقير بنت المدينة (فانها تعطيك هدوءاً مؤقتاً كدين ، ثم تسترده منك ومع « الفائدة » دفعة واحدة بشكل انهيار عصبي) ...

وهكذا ، فالانسان يسعى إلى المصيف كي ينقص درجة حرارة اعصابه وغليان حالته النفسية قبل درجة حرارته الجسدية الخارجية ..

والمصيف تكييف هواء لحالة الانسان النفسية والفكرية ، قبل أن يكون تكييف هواء لكتلته الجسدية .. واذا كان المصيف فيما مضى نوعاً من الكماليات ، فهو اليوم من ضروريات الحياة المعاصرة الوحشية الضغوط لأن طمأنينة الانسان لا تتوافر له الا بالعودة إلى الطبيعة الام ، وفي الغابات الشاسعة ، وأمام السماء الرحبة مع الصفاء والبساطة وأمام اتساع الكون وجلال الوجود ، يسترد انسان العصر ذاته الضائعة .. ويعي مأساة انجرافه في أكثر من دوامة لا تمت إلى اعماقه الحقيقية بصلة ! ثم إنها ليست مصادفة أن الادوية المستخلصة من الاعشاب والنباتات ليست مؤذية ولا تسبب إدماناً، وافضل بملايين المرات من العقاقير المركبة كيمائياً ! ...

وليست مصادفة أن ينتظر الناس في اوروبا اجازاتهم للهرب من المدن لمدة شهر ، ترمم الطبيعة خلاله ، ما أكلته من اعصابهم دواليب المترو ، ودهاليزها ، وتوابعها ،

وثقل الحياة الآلية التي تستعبدهم ..

والذي لا يعرفه اهل لبنان بصورة خاصة ، وأهل المدن القريبة من الجبال — حيث لا صناعات ثقيلة ،وهي المزية الوحيدة للبلدان المتخلفة ! ! — أنهم يملكون على مرمى ساعة من سياراتهم مكاناً يحلم سكان لندن وغيرها من المدن الكبيرة بالذهاب ولو لاسبوع واحد في صيف كل عام إلى مكان شبيه بذلك المكان الذي يتوافر لهم ببساطة ، حتى ولو كلفه ذلك حصيلة وَفْره طيلة عام من العمل والتحنيط في المدينة كفرخ سردين محفوظ جيداً في زيته وأوعيته، مشتاق للطبيعة شوق السردين إلى بحره العتيق وصخوره، وسمائه ..

لبنان ، « مصيف » طبيعي ، ولكن ..

ولبنان من حيث الجمال الطبيعي يصلح مصيفاً واحداً كبيراً — للشعب العربي المتعب — ، ولا أظن أن في العالم دولة تشبهه بهذا الخصوص ... وجمال لبنان الطبيعي وتفرده أمر لا علاقة لأحد به في مجال التفاخر لأنه هبة .

والحديث عن المصايف فرصة ممتعة لكتابة صفحات شاعرية يمكن أن يقال فيها أي شيء ولا شيء ، وكثير من الكلام الجميل عن (الضيعة) وحلاوة الفلاحة اللبنانية ولطف المصطافين ننتهي بعده إلى القول ان الدنيا بألف خير ، ويخلفون بنين وبنات ويأكلون تبولة وكبة نية ومازاوات على ضفاف البردوني الغزير كالفرات ! ..

فالتغني بجمال لبنان الخارجي يكاد يصبح حرفة ، لكنه ، مهما بلغت عذوبته ، اصبح مملا لكثرة التكرار لذا أترك هذه المعزوفة إلى موظفين مختصين يتقاضون رواتب لقاء هذا العمل المملّ ..

اذن انجاوز لبنان « المصيف » بالمعنى الجغرافي — حيث الشروط المناخية والجمالية أكثر من متوافرة — ، وأتحدث عن لبنان « كمصيف » لدنيا العرب ...

واتساءل : هل العربي بحاجة — كالغربي — إلى ما هو أكثر من تكييف الهواء ؟ أنا اؤمن بأن حاجة الانسان العربي إلى « المصيف » بالمعنى الحقيقي للكلمة ، ماسة وملحة . فأعصابه لا تعاني من ضغوط العصر عليها فحسب ، وانما تعاني بالاضافة إلى ذلك من احزان عربية صميمة سببتها له تركة أعوام طويلة .. واذا كان الفرد الاوروبي يشكو من حضارته المعقدة ، فالفرد العربي يشكو من انجرافه في تيارها ، ومن التقاطه للأوبئة الناجمة عن استيراده لحضارة الغرب تلك دون أي من المزايا التي سبق للغرب

أن حصدها قوة في ميادين اخرى ، ورقياً في سباق العلم ...

العربي يشكو من مرض التخمة الحضارية دون أن يكون له نصيب من وليمتها !! ..
واعصاب الفرد العربي تعاني أكثر من هزة ، وأكثر من معركة للبقاء ... هزات ألهبت
اعصابه لم يكن ٥ حزيران أولها ولا الاستعداد للجولة الثانية مع اسرائيل آخرها ،
وليست اعادة بناء اعصاب الفرد العربي تمهيداً لاعادة بناء الشخصية العربية ، الا من
بعض نتائجها ... هذا بالاضافة إلى مسببات التنغيص والنكد الخاصة بكل قطر عربي
والتي لا يخلو منها دماغ من هناك إلى هناك – اعني من المحيط إلى الخليج – .

هذه الافكار جعلتني أحدّق في المصايف اللبنانية خلال جولاتي الكثيرة فيها عبر
سؤالين اثنين :

١ – إلى أي حد يمارس المصطاف اللبناني وضيفه العربي عملية البحث عن الذات
العربية – وطنياً وانسانياً ؟ ! – .

٢ – وإلى أي حد يذكر المسؤولون في لبنان ضيوفهم بأنهم ليسوا في مدينة ملاهٍ فقط؟!
أي إلى أي حد يزاوج لبنان بين دوره كبلد عربي مسؤول ، وبين دوره كمضيف؟
بين دوره كوطن ودوره كفندق .

إلى أي حد يوفق بين مسؤوليات الجراح الطبيب وبين مصالحه كمالك لعمارة
المستشفى في الوقت ذاته ؟

ربما لذلك لم أجد في فنادق الجبل الجديدة حدثاً يستحق الكلام ، ولا في ضيوفه
من المشاهير ، ولا في جمال الطبيعة ومشهد الغروب .

علاقة المصطاف العربي بالمصيف وسلوكه فيـــه هي التي اثارت اهتمامي . ولا
ابالغ اذا قلت : ربما كان في نظرة شاملة نلقيها على المصطافين العرب في المصايف
اللبنانية ، لهذا العام ١٩٦٨ ،شبه رحلة سريعة داخل الرأس العربي،واطلالة على احد
قطاعاته وعلى احدى طبقاته – على الاقل – الميسورة القادرة على دفع نفقات المصيف..
رحلة خاطفة لا تسمح لنا بتقرير حقائق نهائية ، وان كان انطباعنا العام عن مدلولها
يؤكد لنا الكثير مما نعرفه عن الانسان العربي بسموه وسقطاته وتناقضاته وغراباته .

مصايف بنت ست ومصايف بنت جارية !

في الجبل – ولبنان جبل واحد كبير باستثناء مدنه الساحلية ، وحتّى وديانه لها
مناخ الجبال ، كزحلة وشتورة مثلا – ، نجد إلى جانب سكان القرى الذين لا يفارقونها

صيفاً شتاء ، عددا كبيراً من المصطافين البيروتيين ، ومن المقيمين بصفة دائمة في بيروت وطرابلس وغيرها الذين يقضون الصيف في قراهم الام .

هذا من حيث (اللبنانيين) ..

أما من حيث بقية أبناء البلاد العربية فإنهم يقدّرون بـ ٣٠ الف مصطاف كريم من الكويت والخليج العربي. هذا بالاضافة إلى المصطافين الاردنيين والعراقيين والسعوديين والمئة ألف لاجىء سياسي من بعض الاقطار العربية (المصطافين مؤبد) اجبارياً .

وفي لبنان نوعان من المصايف يتوزع فيها المصطافون من لبنانيين وغير لبنانيين بالعدل والقسطاس :

١ — مصايف (بنت الست) .

٢ — مصايف (بنت الجارية) .

مصايف بنت الست

وهي التي يهتم روادها بـ (المظاهر) ، أكثر من اهتمامهم بروح فكرة الصيفية .. و (حب الظهور) اسلوب في قضـاء الصيف ، نجده لدى طبقة ثرية من اللبنانيين (السنوب) ولدى طبقـة مشابهة من ابناء العرب ... طبقة ما تزال موجودة في بعض عالمنا العربي ، طبقة تملك ثراء مالياً يفوق ثراءها الفكري وغناها الانساني وبالتالي وعيها القومي .. وهذه الطبقة لا تتكون في المصيف ، وانما يعريها الصيف لأعيننا ، وتجمع المصايف نماذج مختلفة لها من سائر الاقطار العربية ..

نجد خليطاً عربياً من نماذج هذه الطبقة في عاليه وبحمدون وصوفر ، وان كانت صوفر تختص بأكثر نماذج (تانتات المجتمع ، وهنالك تانتات من الرجال ايضاً) واحفاد (السنوبيزم) اللبناني ، والسوري العتيق المهاجر .

فعاليه وبحمدون لا تفتقران إلى طبقة « اصرف ما في الجيب » من شبان « ليلنا خمر » وملاهي اتباع ابي نواس من امراء وفقراء .. وهكذا فان صور الاعلانات عن الراقصات العاريات تواجه تمثال الشهيد اللبناني شكيب جابر ، واصوات المطربات ، وهتاف (المطروبين) بالفساتين والاجساد لا الاصوات يضيع عند الفجر مع أذان الصبح وقرع أجراس الكنائس .. والمصطاف الذي يخرج من جامع بحمدون بعد صلاة المغرب تقع عيناه على موكب كرنفالي الازياء يختلط مع زحام السير وصفير الشرطة ، واذا تابع صعوداً حتى ساحة بحمدون ، فانه يحس بأنه يسير في شارع الحمراء في بيروت .

الكرنفال الحضاري ..

الزحام نفسه ، زعيق السيارات والسائقين وشرطة السير المساكين امام عنتريات أبناء اصحاب النفوذ ، والفرقة ١٦ أمام بهلوانيات (حزب الاستعراضيين) و « البنات والصيف » انفسهن ، وواجهات المخازن الفخمة ، وحتّى أسماءها وأسعارها ... وأخيراً الفندق الكبير الجديد،عفواً نسيت أدوات (المباهاة بالثراء) من سيارات شاسعة الطول مكشوفة إلى بقية (العدة) .. الستيريوهات ايضاً ... والمقاهي ... والعلاقات البشرية الهشة،علاقة الفرد مع ذاته ، ومع سواه ... وهذا الكرنفال (الحضاري) أو شارع الحمراء بين عاليه وبحمدون يحجب تماماً وجه الوادي والبحر وصوت صراصير الغاب والصفاء والذات ... انه مجرد متابعة طبقة ثرية لطقوس حياة (الدولشي فيتا) واخرى تقلدها وتمشي في ركابها . ... كرنفال التناقض والتقليد كمظهر دون أي وعي بمضمون الاشياء المقلّدة المستوردة ..

ولما كان لكل ميدان حلبته ، فعدا العجائز المتصابين المندسين في (الكرنفال) ، يمارس أولياء المراهقين مراهقتهم في صالات الفنادق الكبيرة المبنية بطريقة توحي بأنها (مشمئزة) من منظر الجبل والوادي فهي لا تفتح صدرها ونوافذها للطبيعة والخضرة بل على العكس ، تنفتح لاسفلت الشارع وطحالب الاسفلت البشرية ، وكأنها تنتظر بفارغ الصبر تعبيد بقية الجبل بأكمله وصب (الاسمنت المسلح) على زهور الوادي ثم تبليط البحر يبلاط مستورد من ايطاليا !!

القتلة والمهرجون

وإرضاءً للذين يعتبرون المصيف فرصة لفرش بيت اضافي ، فقد تم بناء بيوت حديثة — إلا من الماء والكهرباء — حيث يشعر الانسان وكأنه في بيته في العاصمة !! فوقه ثلاثة طوابق وتحته ثلاثة طوابق ، وهو تلك السردينة الملمعة في صالونات (الستيل) الفخمة ، ولا ينقصه شيء من بيروت ، حتّى ولا (زحام السير) ! وهو فخور لأن شرفة بيته هنا تكشف له عن منظر مشابه تماماً للمنظر الذي يراه من شرفته في شارع الحمراء ... قضية المياه لا تهمه كثيراً فهو يفضل الكحول ، ثم إنه يجد في هذه المشكلة فرصة لاستعراض عضلاته الاجتماعية ، وصداقاته ذات المستوى (النافذ) .

ولكن بحمدون ليست كلها هذا الكرنفال ... وعاليه ليست كلها هذا الكرنفال ...

والشعوب العربية ليست كلها على هذه الشا كلة ولا من اتباعها ... وحتى أبطال هذا الكرنفال ليسوا جميعاً أشراراً ، ولا منفصلين عن مناخ حياة الشعب العربي بقدر ما يبدون من ضحايا المرحلة السابقة ، غير الواعين لمرحلة التطور الراهنة ... انهم مقتولون بقدر ما هم قتلة .. وتعساء بقدر ما هم مهرجون ..

و(شارع الحمراء) في بحمدون وعالية وحمانا وصوفر ليس الا تجسيداً لـ (شارع الحمراء) في اعماق كثير من المواطنين العرب الذي لا مفر من ان يكون حيث يكونون ، لأنه التعبير العملي عن رؤياهم المشوشة المتداخلة الناقصة لوجودهم العربي والانساني .

والدليل ؟.. انه إلى جانب بحمدون (شارع الحمراء) ما تزال (بحمدون الضيعة) أي القرية هناك .. لها أهلها وحياتها وصيفها وأجواؤها .. وكذلك كل مصيف لبناني آخر ، فيه ركن للصرعات هو بمثابة حي من بيروت مكيف الهواء ، كما أنه يضم في الوقت نفسه بقية أركانه الأصلية الاخرى ...

مصايف (للنزية)

وكما ان حياة افراد المجتمع العربي ليست كلها تهريجاً وتقليداً ومظاهر ، كذلك حياتهم في مصيفهم الكبير الجميل لبنان ... وربما كانت الطبقة الآنفة الذكر لا تشكل أكثر من نصف جمهور المصايف ..

ما تبقى ، يتوزع في ارجاء لبنان كلها ، بما فيها الجانب الهادىء الاصيل من مرتفعات عاليه وامتدادها في سوق الغرب ، وتلال بحمدون ، وغابات صوفر ..

فالى جانب الفنادق (السنوب) المعدودة ، نجد عدداً لا يحصى من الفنادق العائلية ، حيث يستضيف اصحاب الدار الكبيرة عدداً من الاسر ويحيطون افرادها بجو عائلي من حيث الاكل والخدمة والنفقات ...

هذا إلى جانب البيوت شبه القروية ، على كتف الغابة ، أو في القرى الجميلة الهادئة ، مثل « سير » من مصايف الشمال ، وقرنايل ، ورأس المتن ، ونبع الصفا ، ومشغرة ، وروم وعازور في الجنوب ... وهذه اسماء على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ...

والواقع اننا نجد البيت القروي اللبناني الاصيل في كل قرية ... قرميد أحمر .. واقواس « بيت دينية » ، وساحة دار مزروعة بالاشجار والازهار الظليلة ، وبيوت

متواضعة على (الحروف) ، مصطفة بطريقة حميمة وأليفة كجمهور جاء يصلي لظهور القمر على التلال (كما في دير القمر مثلا) والبيوت التي لا يعود اليها اصحابها من مقر عملهم في المدينة ، يتم تأجيرها أو تأجير بعضها ، وكثير من المصطافين العرب مولع بهدوئها وشفافية أهلها وطبيعتها ..

وهذه المصايف ليست مثالية لأعصاب الكبار فحسب وانما ايضاً لاعصاب الصغار ... واذا كانت بعض المصايف تضطهد (الذرية) حتى في اسلوبها لرعايتها بانشاء (مدينة ألعاب) للصغار (كما لو كانوا في العاصمة) ، فان الاطفال هم السادة في بقية المصايف ... يلعبون في الغابة ...

وشيء واحد يجمع بين المصطافين في لبنان على اختلاف مشاربهم : هو الرضى ...

كل يختار الحياة التي تروق له ، وللناس فيما يعشقون مذاهب ... وربما كانت ميزة لبنان هي في الوقت نفسه عيبه .. فلبنان يرضي الجميع ... عاشق الطبيعة ، وعاشق الروح ، وعاشق (غير الروح) ، وهو بالتالي يضم المتناقضات كلها .. وهو يقدس الحرية أكثر من أي بلد عربي آخر ويحميها ، ويبقى على المواطنين من لبنانيين وغير لبنانيين أن يحسنوا استعمال هذه الحرية ...

واللبناني يفتح صدره للجميع ... ويحب الجميع ويخدم الجميع ... والمهم أن لا يؤدي به سوء استغلال البعض لوطنه حين يحولونه من صاحب مصيف إلى محترف سمسرة بالصيف !! .. ومن وطن إلى فندق .

ومما لا شك فيه ان اللبناني ذكي واصيل ، وانه لا يتخلى عن عراقته وان كان كأي مواطن آخر ينحني أحياناً للعواصف (المادية) التي تهب عليه ...

حماية (الوطن) من (الفندق) !

لا يكفي ان نحمي المصطاف ظالما أو مظلوماً ، بل من الضروري ايضاً حماية المصيف من المصطاف ، وإنعاش المناطق النائية ورعايتها ..

والملاحظ ان الاهتمام الرسمي منصب على المصايف الرئيسية (الواجهة) .. أما القرى البعيدة فما تزال على حالها ... تنقلب فيها شاحنات الامتعة قبل وصولها لسوء الطريق ! ... واذا وصلت ، تبقى جبهة الماء والكهرباء المهملة ...

وهنالك في لبنان مناطق مهملة تماماً رغم جمالها الطبيعي المنقطع النظير ..

وادي قنوبين مثلا ، وادي الاديرة التاريخية ، ما تزال الحمير واسطة النقل الوحيدة

في مجاهله المذهلة الجمال ...

ولا أظن ان لامارتين نفسه رغم عبادته للجمال على استعداد لقضاء الصيف في شروط كهذه ...

وليس حظ سهل القموعة في مجاهل عكار بأفضل من حظ وادي قنوبين ، رغم انه سهل يندر وجود مثله في العالم ... سهل على قمة جبل كأنه مطار يتلقى هبات السماء من الجمال ، وما اكثرها فيه ... خضرة على مرمى النظر لا تقطعها سوى بحيرة رائعة الالوان والاتساع ، يغذيها نبع غزير تجتمع أمامه احياناً مالئات الجرار في موكب موجع من الجهل والعزلة ...

والواقع أن الكثير من المصايف اللبنانية يعاني من مأساة عربية شبه عامة : مأساة معاملة بعض المناطق على انها (بنت الست) والاخرى على انها (بنت الجارية) ... وهو أمر لا يتعمده أحد ، لكنه النتيجة المباشرة لمهازل الحكم في البلاد والمزايدات التي تُنحر فيها المصلحة العامة العادلة على مذبح المحسوبيات والمصالح الخاصة، والصيف في لبنان مناسبة تعكس هذه الصفة العربية شبه العامة للحكم إلا فيما ندر من الاقطار .

أما لو قيمنا ما يدور عبر تساؤل أبعد مدى كالتساؤل (إلى أي حد يزاوج لبنان بين دوره كبلد عربي مسؤول وبين دوره كصاحب فندق كبير) فمن الافضل عدم الكلام !

عين غ تتفرس

في

الحمى الفضائية

« لا بأس بجلب صخور من كوكب القمر ، شرط أن يكون الخبز متوافراً لسكان كوكب الأرض» .

— جودمان إيس —

« إننا نشهد بداية عصر اكتشاف ما وراء فضاء كوكبنا ، وعسى أن نشهد في الوقت ذاته بداية عصر اكتشاف البلدان الأخرى في كوكبنا نفسه »

— برتراند دي جوفونيل —

« أفظع ما في عصرنا ، هو أننا سنرقب ملايين البشر في البلدان المتخلفة يموتون جوعاً أمام أعيننا ، على شاشات تلفزيوناتنا » .

— س . ب . سنو —

١٤ / ٢ / ١٩٦٦

اغتيال القمر

ترقص اسلاك البرق . ترقص حروف المطابع : القمر لم يعد قمراً . انه كالارض: مجرد أرض . أرض . طين . غبار . معادن . مستنقعات . وحل ، وحل .

وتزغرد الآلات الحاسبة .

ترقص تجاعيد وجوه رجال السياسة : القمر قاعدة عسكرية استراتيجية جديدة .

يلعق رجال الاعمال شفاههم بعد ابتلاع أقراصهم المهدئة : القمر منجم جديد . فحم . معادن . ذهب . ذهب .

يمسح مدراء شركات السياحة نظاراتهم : القمر ... سياحة واصطياف .. رحلات منتظمة ..

يتعانق علماء السكان في ظل شبح مالتوس : أرض جديدة .. يسقط تحديد النسل ..

يركض المسؤول عن ضياع قنبلة اميركا الذرية في حقول البندورة في اسبانيا صارخاً : وجدتها وجدتها .. سنجري تجاربنا الذرية هناك ..

تربت سيدات الجمعيات النسائية على شعورهن المصبوغة بارتياح كبير ، فقد انتهين من غوث أيتام الارض وجياعه ، وها هو حقل جديد ، والبركة في ايتام القمر ...

ويحك هتشكوك صلعته : فيلم رعب جديد هناك .. وتزين دار «كريستيان ديور» مبناها احتفالاً : عرض أزياء ... في القمر ..

وتحزم الراقصات رياشهن ، وتغلق الأقفاص على حيوانات السيرك وتلملم الاقنعة ، ويشحذ الجياع سكاكينهم ، ويجمع رجال الدين والمبشرون كتبهم ومنطقهم واللاجئون السياسيون أمجادهم ، والقراصنة خطافاتهم ، ويهرولون في موكب هستيري إلى الفريسة هناك : القمر ..

صوت ضعيف في هذه الجوقة الكبيرة المصفقة ، أبرق محتجاً .. انهم الشعراء .
ابرقوا احتجاجاً على اغتيال فارسهم الابيض العتيق .. القمر ..

وضحكت منهم صحف الغرب ، وضحك من جزعهم المنطق الغربي العصري ..
فهو لا يستطيع ان يفهم حكايتهم مع القمر طيلة اجيال ...

اما نحن فنستطيع ان نفهم لأن لنا معه حكاية مشابهة ... فقد قُتل فارسنا الابيض العتيق .. سقط نهائياً من ملكوته الاميري حيث ظل طيلة اجيال ، رمزاً لعوالم عاطفية رومانسية شرقية ثرية ..

من منا لم يكن القمر ذات يوم جزءاً كبيراً من روحانياته وأثيريته ورغباته المبهمة وتراثه الثقافي العتيق ، وحكايا طفولته ، ووتر شعرائه المفضّل ؟ ...

انتهى ، الفارس الابيض العتيق .

برقية احتجاج لا تجدي .. الأمل الوحيد الذي تبقّى هو ان لا نتبدل ، وان لا نخون رموزنا ولو خانتنا ..

ذات ليلة ، لو رحلت إلى القمر ، وبقدمي دست الوهم الفضي الذي صار طيناً ووحلاً ، فسوف أبحث عن عريشة ياسمين كتلك التي كانت في بيتي في دمشق ، وسوف أستسلم لليل في أعماقي ، وسوف أتأمل الكوكب الآخر « الأرض » مضيئاً نائياً فضياً ، وسوف أشير اليه وأهمس بالحماس نفسه : ما أحلى هذا القمر الآخر .

١٨ / ٤ / ١٩٦٦

صلاة فوق سهول القمر

عدد مجلة (التايم) الأخير ، الذي احتل كعادته واجهات المكاتب ، ودكاكين باعة الصحف ، كان هذا الاسبوع — وللمرة الاولى — رقعة سوداء كبيرة ، كتبت عليها بحروف دامية الحمرة هذه العبارة : « هل مات الله » ؟ ! ...

وداخل المجلة ، تحقيق (علمي — فلسفي — فني — ادبي) طويل ، لم يُخفِ رئيس التحرير إدراكه لمدى خطورته ، فقدم له في افتتاحيته شارحاً الجهد الكبير في إعداد : « هل مات الله » ؟ ! ..

وما هذا المقال الا احد المظاهر الكثيرة ، لتلك الموجة العلنية التي تجتاح اليوم اوروبا بعنف : موجة من الالحاد المتحدي ، تحاول ببرود علمي لامبال اثبات ان الاديان اساطير ، وان الله غير موجود ... وما كتاب (موت المسيح) الذي التقطته مصادفة من احدى مكتبات بيروت الا مثال آخر على هذه الموجة المسعورة ...

الخطير في الموجة ، اسلوبها في تناول قضية الله والانسان .. انها لا تحمل لهجة التشكيك المتسائل ، المفعم بحزن انساني متواضع مرير ، والتي سبق أن التقطناها في كهارب سطور كامو وسارتر وكافكا وبيكيت وحتى ابي العلاء .. انها لا تحمل ذلك الشك المفجوع الذي قد يسبق أي ايمان عميق ..

انها تحمل إلحاداً من نوع آخر تماماً ... إلحاداً « غير انساني » .. واعني بكلمة « غير انساني » ان القارىء يشعر بأنه أمام انسان آلي يكتب ، وعقل الكتروني يطرح قضية الله والانسان بمنتهى الدقة الحسابية والتجرد ! ومن هنا كان الخطأ ، و « اللاإنسانية » ... لان كتابات كهذه تصلح لمخاطبة جيل من (الإنسان الآلي) ومن (العقول الالكترونية) ...

لن أتعرض للتفاصيل المعقدة التي يوردها علماء ومثقفو هذه الموجة ...

لن أناقش الادلة (العلمية) التي يحاولون بها تهديم اركان دين أو آخر ، لا

لضيق المجال ، وانما لايماني العميق بأن العقل ليس وحده موطن الدين في نفس الانسان ... وان سؤالا صغيراً ، له سذاجة قلب انساني طفل ، ربما كان وحده الرد على زوبعة إلحاد العقول الالكترونية ..

السؤال هو ببساطة : لماذا ؟! ...

لماذا يستميتــون في اثبات ان الاديــان اساطير شعبية متناقلة ، وبالتالي يجب اعدامها ؟ ...

من اجل الحقيقة (العلمية) ؟ ...

أليست الاديان حقيقة (انسانية) ما دام هناك من يؤمن بها ؟ ...

واذا زعزعوا يقينهم ، فأي بديل يمنحونه لملايين المتعبين ؟ وأي كابح يبتكرونه للواقع الانساني : لملايين الانياب التي تفترّ عنها الشفاه حينما تضحك ، وحينما تشتهي ، وحينما تئن وتحتضر وتصلي ؟ ..

ولماذا نزعزع تلك الطمأنينة العميقة لدى الملايين حينما يفكرون بالله ؟ ...

أليس الله موجوداً ما دام الانسان قد عثر عليه في ذاته ؟

ما البديل الذي يملكه (ذكاء) الانسان الآلي (العملاق) ، (لضعف) الإنسان (البشري) ؟ ..

ربما استطاعت الحضارة الآلية ان تمنح الإنسان أدمغة الكترونية تتولى خدمته ، واختراعات يسخرها رقيقاً لرفاهيته المادية .. هذا كله رائع ...

لكن الخطر الكبير على الإنسانية يقع حينما يترك هذه الادمغة الآلية تخطط (للنفس البشرية) .. وبعبارة أخرى حينما يستولي اختراعه عليه ويستعبده ، فيناقش قضاياه الأساسية كالدين والله ، بالطريقة نفسها التي تتناول بها الادمغة الألكترونية عملية حسابية معقدة ..

لا أستطيع أن أجد أي مسوّغ لتشجيع انطلاق العقل (مسعوراً) في هذا الاتجاه، ما دمنا لا نملك بعد البديل الذي نمنحه لإنسان (تشيكوف) المعذب الطيب ... وما دامت الحضارة الآلية لم تنجح في منح الإنسان أي عزاء فكري جديد ، كما لم تنجح في تحويله إلى إنسان آلي ..

وما صرخات الاحتجاج التي يرسلها أدباء الغرب المسحوقون بين مسننات حضارة الآلات الهادرة إلا دليل على ان قضايا الإنسان لا يمكن أن تعالج بعمليات حسابية معقدة فقط ، وان (المحراب) لدى البعض ، حاجة حيوية كالرغيف والفراش ! ..

الصلاة .. ان تكون أول عمل يقوم به أول إنسان يهبط على سهول القمر :
الصلاة ...

هل يفسد ذلك آلات صاروخه ؟

٢٥ / ٧ / ١٩٦٩

حمى الفضاء

لندن .

صيف ١٩٦٨ .

غرفة ضيقة ومغلقة كمركبة فضاء .

مزدحمة كمسلخ حديث .

جامعيون من مختلف الجنسيات ، كنماذج متعددة لفئران التجربة في مختبر عالم مجنون ...

أبخرة غريبة الرائحة تتكاثف ضباباً رمادياً مخدراً ...

صرخة : لم يعد (الحشيش) يجدي ...

صرخة : جربي الـ (ال . اس . دي) ...

صرخة : لا جديد ... لم يبق أي جديد لم نجربه . لم يبق غير الصعود للقمر ...

صرخة : أنصتوا جميعاً . جئتكم بجديد .

مضيفنا يحمل اسطوانة . يتجه بها نحو الحاكي (البيك – أب) . يديرها . يضغط زر النور ، فتصبح الاضاءة (فلاشات) متلاحقة لنور احمر فأخضر فأزرق فبنفسجي ، فأصفر ، فأبيض فاجر ، فأصفر ميت .. يعلو صوت الاسطوانة . يصمت الجميع فجأة ويتسمرون في أماكنهم بلا حراك ، مثلي ... يهمس أخي في أذني : هذا الشاب هو مؤلف الاسطوانة . اسمها « موسيقى الفضاء » ، عمرها اسبوع ، وقد سجلت خلاله ارقاماً مذهلة في المبيعات ... هل فهمت الآن لماذا جئت بـك إلى هـذا (الجحر) !! ...

موسيقى الفضاء

أرهفت السمع .

موسيقى عجيبة غريبة ... لا يمكن تشبيهها بأية موسيقى سبق أن سمعناها من شرقية أو غربية ، بدءاً بتقاسيم الموسيقى الصينية الغامضة الهدوء ، وانتهاءً بالقرع الحار

لطبول افريقيا ... انها ليست (موسيقى) بالمعنى الذي ألفناه ، بل هي مزيج عجيب لأصوات مبهمة ...

مزيج مروع ، يذكّرنا في آن واحد بأصوات متشابكة ، فيها ما يشبه نداء الاستغاثة الاخير لباخرة تغرق و « البارازيت » الرتيب لمذياع معطل الابرة ، وحفيف اجنحة طيور ليلية سامة الاشواك ، وصراع وعول حديدية القرون ، وهذيان خشب تابوت دفن فيه خطأ رجل حي ، والشهقة التي نتوهم أننا نسمعها حين نرى شهابا يسقط في عتمة الليل ...

ولموسيقى الفضاء هذه ايقاع عجيب غير مألوف ، شرس وحاد حينا كأنما تعزفه مؤشرات عربة فضائية منطلقة بأقصى سرعتها .

خافت ومسحور أحياناً ، كالصوت الذي قد يسمعه انسان وجد نفسه فجأة وحيداً في كوكب ميت الا من نبضات قلبه ... يحس بايقاع ذلك القلب ، يسمعه ولا يسمعه ..

موسيقى لها توتر جدران قذيفة في اللحظة التي تسبق انفجارها ، تقطعها ضربات صمت مرعبة ، كالصمت الذي يعقب صوت مقصلة سقطت للتو وكفّ الرأس المقطوع عن التدحرج !! ...

على اية حال ، يتعذر (وصف) الموسيقى (كما يتعذر وصف الالوان لأعمى منذ الولادة) ... إنها موسيقى ما بعد « الكلاسكية الحديثة » وما بعد (الموسيقى) وما بعد (بيلا بارتوك) و(روبيرتو جيرهارد) و(بروخنر) وغيرهم . ومن المستحيل أن يكتشف المستمع أي نوع من الآلات الموسيقية — من وترية ومزمارية ... — قد استخدم في « عزف » هذه « الالحان » ... ان فيها من أصوات المغارة بقدر ما فيها من أصوات الصاروخ ... وعبثاً نفهم ما تحاول « موسيقى الفضاء » ان تقوله بالضبط ... لأنها لا تحاول أن تقول شيئاً « بالضبط » ... ثم ان الاغنية فيها مفقودة تماماً ... أي : لا لغة ... والحنجرة الإنسانية يتم إدخالها بطريقة عجيبة ... ومهمة (المطرب) هنا هي إصدار أصوات حيوانية غامضة ، وغمغمات بهيمية ناشزة ، كأنها هي أصوات كائنات (كونية) نجهلها ونجهل لغتها : لغة سكان الكواكب الاخرى !! ...

بالدهشة أولاً ، ثم بالرعب والخوف ، ثم بالحزن والغربة يشعر المستمع إليها — كان ذلك احساسي أنا على الاقل — .

« موسيقى الفضاء » في بيروت

كانت تلك أسطوانة « ويك اند قمرية » ، واحدة من مئات اسطوانات « موسيقى الفضاء » التي انتشرت في الغرب ووصلت منذ اسابيع إلى أسواقنا العربية ...

وليست « موسيقى الفضاء » هذه ، الا من بعض « حمى الصرعات الفضائية » التي تركت بصماتها خلال العامين الماضيين في كل حقل من حقول حياة الإنسان : موسيقاه . افلامه . كتبه . اعلاناته . غذائه . قصص اطفـاله . وحتى احلامه ومشاريعه وخطط شركاته السياحية ...

وليست « موسيقى الفضاء » تلك ، (التي استقبلتها بيروت بكثير من البرود — وحسناً فعلت بذلك ! —) الا ظاهرة مكملة لظواهر هستيرية فضائية أخرى شهدناها جميعاً في أكثر من حقل ...

فخلال العامين الماضيين ، تصاعدت الابحاث العلمية في حقل الفضاء تصاعداً لم تشهد له الإنسانية مثيلاً على طول تاريخها السابق ... وتم خلال العام الماضي تحقيق انتصارات علمية كان من الطبيعي أن تهز كل انسان أياً كان موطنه وعقيدته وميوله وعمره .

ولذا كان من الطبيعي أن تتأثر حياة الفرد المعاصر بـ « دوامة عصر الفضاء » تلك ، وان يستثير اهتمامه كل ما يمت بصلة إلى موضوع « الفضاء » ...

وتلك حقيقة كان رجال السينما أول من استخدمها تجارياً ...

فقد وجدوا في موضوع « الفضاء » الإثارة الضرورية لشباك التذاكر .. وجدوا في « الاثارة الفضائية » بديلا عن افلاس « الاثارة الجنسية » التي كانت رائجة قبل خمسة عشر عاماً ، لان العصر (هناك) قد تجاوز مشكلة (الكبت الجنسي) ، ونموذج مارلين مونرو لم يعد كافياً لجذب جمهور عصر الفضاء المتخم جنسياً . واذا كانت تعرية المخرج روجيه فاديم لزوجته السابقة بريجيت باردو منذ خمسة عشر عاماً كافية وحدها لقذفها إلى الشهرة ، فان روجيه فاديم نفسه أدرك اليوم أن تعرية جين فوندا (نجمته وزوجته الحالية) لم تعد تكفي وحدها لتقذف بها إلى الشهرة . فالجمهور تبدل ، وأسهم الجنس في بورصة المتفرج الغربي على الأقل لم يعد لها سحرها القديم ، وهكذا اقدم على (تجديد الجنس) وتطعيمه بصرعة الفضاء الرائجة ... وكانت الحصيلة جين فوندا في صورة : (بارباريلا) — امرأة الجنس في عصر الفضاء ... غير عارية وانما هي كالسمكة الفضية يستر اعضاء جسدها كلها (لباس شرعي) ... الحرير والنايلون الشفاف اختفى ، وحل محله ثوب معدني ملتصق بكل أعضاء الجسد (يخيل

الي انها بحاجة إلى مفتاح علب السردين كلما اضطرت إلى خلعه !) ...

الممثلة راكيل والش أيضاً ، أدرك خبراء الصيد في مياه الصرعات العكرة ان جمالها وحده لا يكفي ... وهكذا تم افتعال سلسلة افلام تقوم فيها الست والش بمشاهد (السترَبتيز) والتعرية داخل سفن وغواصات فضائية أو أمام مغاور بدائية في كهوف الكواكب الاخرى ...

الاعلان والقمر

خلال العام الماضي ، قرأنا ، حتّى في صحفنا العربية ، مثل هذه الاعلانات : « سيدي .. لقد استعمل رائد الفضاء (....) اقراص (....) لعلاج الاسهال المفاجيء الذي أُصيب به في مركبته خلال دورانها حول القمر ... فلماذا لا تستعمل انت ايضاً اقراص (....) » . أو : دخن سجائر (....) . انها سجائر عصر الفضاء » ... وإلى جانب الاعلان صورة للسيجارة في الفضاء كما لو كانت صاروخاً وخلفها الاقمار والشهب ...

« ساعات (....) ، انها ساعة الفضاء ... لا تتأثر بالضغط الجوي » ....

لقد اجتاحت حمى الصرعة الفضائية عالم الاعلان ، وصارت من ركائزه ... وصار من الضروري أن يؤكد البائع لزبونه أن هذا الحذاء مثلاً صالح جداً للنزهة فوق سطح القمر كي يرضى بشرائه ...

وبلغ مد (الحمى الفضائية) اقصاه في مجال تصميم الازياء النسائية ، ووجد تجار الازياء في هوس المرأة بكل ما هو جديد مرتعاً خصباً للهستيريا الفضائية ... الثياب من المعدن والقصدير ، مثل ازياء رجال الفضاء ... الماكياج غريب ، كأنما المرأة كائن فضائي قادم من كوكب مجهول ... العقود والاقراط وبقية الحُلي من النوع الذي يتوج المرأة ملكة في مغارة من مغاور المريخ مثلاً ...

وانسجاماً مع الحمى الفضائية ، ومع طلبات الزبائن لحجز مقاعدهم إلى القمر ، لم تتردد بعض شركات الطيران .

فأُعلن مثلا عن السفر إلى القمر ثلاث مرات في الاسبوع ، وبدأت الاستعدادات في ألمانيا الاتحادية للقيام برحلات إلى القمر ، وقد شرع احد مكاتب السفر في مدينة شتوتجارت في تسجيل اسماء الذين يودون الاشتراك في هذه الرحلات واخذ يقوم بتقديم وصولات خاصة لهم تخولهم السفر إلى القمر عند تنظيم الرحلات الأولى اليه .

وسوف يقوم المكتب بإطلاع المسجلين على آخر المراحل التي تم تنفيذها في مشروع تنظيم رحلات إلى القمر على التوالي . وسوف يطلب من المسجلين تقديم دفعة أولى من اجور السفر بعد ان يتم اعداد وسيلة وتحديد الاجور نهائياً . وقد تقدم للمكتب منذ اليوم الاول ٢٦ شخصاً من سكان شتوتجارت لتسجيل أسمائهم ، وكان بينهم رجال اعمال وصحافيون وبعض الناس العاديين ، ومنهم سيدة يزيد سنها على الستين . وسوف يكون ترتيب كل رحلة إلى القمر حسب النظام التالي : تقوم اسبوعياً طائرة من طراز بوينغ ٧٠٧ بتقل المسافرين ثلاث مرات من فرانكفورت إلى نيويورك . وبعد ان يرتدي المسافرون الملابس الفضائية في محطة القمر في نيويورك ينقلون من هناك إلى المحطة الفضائية بمدة ٢٨٨٠ دقيقة . ثم يمتطون من هناك سفينة فضائية إلى القمر (مدة يومين) وينتقلون منها (بمعدية) قمرية إلى القمر وينزلون هناك في اوتيل « لونا » أي اوتيل القمر .. وتضمن لهم العودة بسلام !!

.. وحتى على صعيد النكات عرّف أحدهم رائد الفضاء بأنه : رجل لا يشكو من أزمة السكن ، لانه يعيش في مقصورة خاصة به !! ..

وقصص الاطفال صار ابطالها من رجال الفضاء ... ولم تعد معاركها المثيرة تدور بين كائنين بشريين احدهما يمثل الخير والآخر الشر — كالعادة — وانما صارت المعركة تدور بين كائن بشري وآخر (كوكبي) ، من سكان احد كواكب الفضاء الكثيرة المجهولة ... ولم يعد مسرحها غابات روبن هود ، وسلاحها سيف ودرع (فرسان المائدة المستديرة) ، وانما صار القمر وبقية الكواكب مسرحاً لها ، وأما الاسلحة فمبتكرة ، فضائية الصرعات ، مثل الاشعة الكونية القاتلة وغيرها ...

لقد استبدل الاطفال طائرتهم الورقية الوديعة بالصاروخ !

والى جانب المجلات العلمية التكنيكية التي كانت إلى عهد قريب هي وحدها التي تنشر أبحاث العلوم بما فيها علوم الفلك والعلوم الكونية ، فقد ظهرت مجلات جديدة ، خاصة بقضايا الفضاء ، تعتمد الإثارة أكثر مما تعتمد الدقة العلمية ...

اذن كان من الطبيعي ان يرافق المد العلمي المذهل إلى شطآن الكواكب الاخرى ردود فعل انسانية فكرية على الصعيد الفني والفلسفي والحياتي ...

ولكن هذا التأثر (الطبيعي) اتخذ في عصر الفضاء شكل ظاهرة غير طبيعية ... اتخذ شكل (الصرعة) و (الحمى) ، بدلاً من الوعي المتوازن بمدلول انتصارات العلم ، وبالتالي لم يتطور الكائن البشري (انسانياً) بصورة موازية ومكملة لتطوره

المذهل علمياً ...

ولكن ، لماذا ؟

ربما لان روح العصر المادية ومجتمعاته الاستهلاكية حين تلقفت هذا النصر العلمي الكبير لم تجد فيه سوى سلعة استهلاكية جديدة ... مادة خام للاتجار بمشاعر البشر في في كل مكان ، واستثارتهم على الطريقة (الميلودراماتيكية) دونما أي تعميق لمدلول ما يدور ... هذا في حين تنطلق أصوات الفلاسفة والكتّاب محذرة من هذا الجنون (اللامجدي) ، مطالبة بتوفير نفقات ابحاث الفضاء ، وانفاقها للخلاص من المجاعات والبؤس على سطح الأرض ... (ما جدوى ان يصعد انسان إلى القمر اذا كان هناك انسان آخر واحد على وجه الأرض يموت جوعاً في اللحظة ذاتها ؟ ..)

جيل الردة

سواء سبقت (لونا ١٥) الروسية (ابولو ١١) الاميركية وتركت لها على أرض القمر بطاقة زيارة أم لا ، سواء استمتع الرواد بـ (ويك انــد) في القمر أو تابعوا ترانزيت إلى المريخ وزحل ومهما بلغ انجراف الناس في دوامة صرعات الفضاء ، التي امتدت من قطر إلى آخر امتداد النار في غاب شاسع جاف الاعشاب ، فقد كانت وستظل هنالك باستمرار صرخات احتجاج مختلفة ، متباينة الاسلوب والحدة ...

الابداع يبقى والصرعة تموت

ردة الفعل هي دوماً ضد (الصرعة) ، ضد (الزيف التجاري) الذي يشوه وجه أصالة العطاء ، وليست ضد (التجديد) ، ولكنها ضد استغلال (الجديد) على صعيد الاثارة الرخيصة ... لان الحصيلة في تلك الحالة تظل فقاعات آنية لا تلبث ان تنطفىء.. وتضيع ... وأياً كانت نتائج هستيريا موضوعات الفضاء ، تظل هنالك حقيقة لا مفر من الاعتراف بها : إن هذه المرحلة بكل ما فيها من مساوىء قد نبهت العقل البشري إلى ما يواجهه من امكانات واحتمالات ، وشرّعت أبواب وعيه وهيأته نفسياً لالتقاط شحنات إبداعية من نوع جديد ... وأنذرته بأن الصعود العلمي إلى القمر ، اذا لم يقابله غوص مماثل العمق داخل الذات الإنسانية ، فان دمار النفس البشرية أمر محتوم... وان الهرب إلى هستيريا (الصرعات) والتخدير أمر لا يجدي ... وان الرحيل عن

الأرض إلى القمر ، اذا لم يرافقه رحيل الذات البشرية عن الوحل الارضي ، فان كل ما يكون الانسان قد حققه ، هو مجرد انتقال من مسكن إلى آخر ! من مسكنه في الارض ، إلى مساكن في القمر ... وانه ما دام حاملاً معه أحزانه وأحقاده وحروبه وأمراضه وحيوانيته فان سفن فضائه ليست سوى توابيت متحركة : توابيت انسانيته الميتة ...

أليس تحقيق حلم « الارض الطيبة » خيراً من حرب عالمية ثالثة تدور رحاها هذه المرة على سطح القمر ؟؟ ..

٣ / ١ / ١٩٦٩

أبوللو : عد إلى أبيك

هنالك مصباح عجيب نصبته يد سحرية في حقول السماء ، زيته من زيتون الأزل لأنه يضيء منذ كان البدء ...

مصباح مثير وغامض ... فهو لا يثبت على حجم أو صورة ، كنزوات العشاق ، واهواء المجانين ...

وهو يشاهد احياناً مهرولاً في شرود على أرطفة الغيوم ... وتطارده من حين إلى حين نجمة صغيرة : ولم يحدث قط أن التقيا .

هذا المصباح ، اكتشفه الانسان قبل ان يكتشف النار والاعياد ، وعرفه نوح قبل ان تعرف الغابات الطوفان .

أسماه « قاطنو كوكب الأرض » بالقمر . ورابطتهم الوثيقة به ، وحكايتهم معه على مر العصور تثير مزيجاً من الحس بالفضول والخيبة والزهو والاسى معاً ..

ذات مساء رمادي ، بالضبط في السابع من كانون الثاني (بتوقيت كوكب الأرض) ، ثمة مركبة فضائية كانت تحط على سطح القمر بهدوء ، وتغرس مخالب كلاباتها في جسده ..

بهدوء ، بصمت كان هبوطها ... ولكن صراخاً هو بين الهتاف والندب تفجر في نفس كل إنسان من قاطني كوكب الأرض المجاور الذي ابحرت المركبة منه ..

الهتاف ، لأن الانسان نجح للمرة الاولى في كسر الجدار الجهنمي والشفاف الذي يقوم بين كوكبنا والكواكب الاخرى . . وفي ذلك ايذان ببدء حقبة جديدة لحياة الإنسان في المجموعة الشمسية .. بل في (الكون) اجمع ..

حقبة جديدة مذهلة مثيرة .. تفسح المجال للملايين الاحتمالات الجديدة التي لم تكن لتمر في خاطرنا قبل قرن من الزمن ..

لقد كان تسلق جبال هيملايا إلى ما قبل اعوام حلماً .. فأصبح قضاء اجازة نهاية

الاسبوع في القمر أمراً معقولاً .. وبات من المتوقع ان تعلن شركات السفر بين عام وآخر عن إقلاع سفنها الفضائية إلى (منتزهات) القمر ، وتخفيضات خاصة للشعراء والعشاق ..

فهذه المركبة التي حطت بصمت وهدوء على خد القمر منذ عام عادت لتقول لنا : القمر صخور . تراب . أحجار . حديد . غازات .. القمر بشع .. بشع ومقفر (بمقاييسنا الأرضية للجمال والحياة) ..

وهكذا فقدت مئات من الابيات الغزلية التي تقارن جمال الحبيبة بالقمر مدلولها .. وخسرت الصور الشعرية ، التي طالما استلهمت (غموض) القمر وشحوبه وشروده ، قوتها الايحائية وطاقاتها الجمالية ..

فلم يعد سراً أن أرضنا ليست فريدة ، ففي الكون عشرات منها .. ولم يعد سراً ان القمر ليس فريداً .. انه مجرد كوكب آخر تصادف انه الأقرب . وان « الإنسان » قد يكون صورة من صور الحياة في هذا الكون ..

أليس الإنسان في صورته الحالية نتيجة تطور آماد طويلة ، ونتيجة تكيف اعضائه مع جو الأرض ومع اسلوب حياته ؟ ..

كان للإنسان فيما مضى ذنب . وضمر لعدم حاجة الجسد اليه .

الزائدة الدودية كانت عضواً عاملاً غير (زائد) ايام كان الإنسان يقتات بالاعشاب في الغاب .. ومع مرور الزمن ضمرت لعدم الحاجة اليها ولم يبق منها الا تلك (الزائدة) التي يتوقع العلماء زوالها نهائياً بعد قرون ..

يقول العلماء :

ليس هناك ما يدعو الى الظن بعد الآن بأن كوكبنا (الارضي) فريد ، وبأنه محور الكون .. وبأن الإنسان هو الطفل الاوحد للطبيعة والوجود ..

فقد تكون في تلك الكواكب الاخرى حياة ، ومخلوقات (تعيش) ضمن إطارات مختلفة وتعبر عن وجودها باسلوب مغاير لما يدور في كوكبنا ..

وعلى اثر الهبوط الاول الصامت لاول سفينة ترحل من كوكبنا وتمزق جدار الجاذبية لتصل إلى كوكب آخر هو القمر ، تفجرت صيحات كثيرة ، وتفتحت اذهان كثيرة ، وبدأت ارهاصات حمى جديدة فضائية .

واصدر الدكتور كارل ساجان الاستاذ في جامعة هارفارد الاميركية بالاشتراك مع الدكتور جوزف شلكوفسكي الروسي ومدير معهد الدراسات الفضائية في

ستيرنبرغ ، أصدرا دراسة محمومة جديدة كل الجدة حول مكانة أرضنا بين الكواكب وإنساننا بين قاطني هذا الوجود .. يقولان : إن نظرة سريعة نلقيها على الكواكب القريبة من الارض تجعلنا نجزم بافتقارها إلى الحياة .

المريخ والزهرة أكثر حرارة مما يستطيع الإنسان احتماله .. فضاء كوكب (مارس) يكاد يخلو من الهواء . الغلاف الغازي لكوكبي (جوبيتر وساترن) يبدو ملوثاً بغازات أمونية سامة ..

ويتابعان :

ولكن ، ما الذي يفترض ان (الحياة) وقف على (إنسان) كوكبنا في صورته التي نعرفها ؟ .. يمكن ان يكون في تلك الكواكب (مخلوقات) طبيعتها الجسدية تتفق وشروط الحياة هناك ..

ثم ، ما الذي يُسَوِّغ لنا ان نتخذ مما نعرفه عن أنفسنا وحدة قياسية ، كل ما خالفها غير جائز ؟

إن أي فلكي من سكان كوكب (مارس) مثلاً سيرى في كوكب الأرض مكاناً غير صالح للحياة ، إذ إن الغلاف الغازي للأرض مملوء بغاز رهيب محرق في نظره هو الاوكسجين مما يجعل أي نموذج (مارسي) للحياة قد يقوم فيها عرضة للاحتراق والأكسدة الفورية ! (أهل الارض وحدهم يعرفون تلك الاساليب التنفسية العجيبة التي تقوم بها اجهزتهم الجسدية فتستخلص بعض الاوكسجين وتحرق ما يلزم ..)

ويتابع العالمان في كتابهما المشترك دفاعهما عن نظرية وجود حياة في الكواكب الاخرى بشكل محموم رائع شبه مقنع ، يقولان : ان كوننا وحده يضم (١٥٠٠٠٠) مليون نجم !! وانه قد توافر لملايين منها ما توافر لأرضنا من شروط . فلماذا لا توجد فيها حياة ايضاً ؟ ..

بل ربما كانوا مثلنا ، يحاولون الإبحار من كواكبهم إلى كوكبنا . إن أية اشارة لاسلكية قد يبعث بها أقرب كوكب خارج مجموعتنا تستغرق في رحيلها حتى تصل الينا حقبتين زمنيتين . من يلتقطها ؟ واذا كان تطور (إنسان) الكواكب متوازياً ، فمن يضمن ان الشيفرة ستكون على حالها بعد حقبتين لنحسن التقاطها وتفسيرها؟..

ثم ، من يدري ، ربما كانوا هم أيضاً يعيشون مراحل تدمير ذاتية بحروب عالمية ذرية .. وتعود المدنية لتبدأ دورتها من جديد بعد ذلك .. وهكذا يمكن ان يلتقي في كوننا في لحظة واحدة كوكب ينتمي إنسانه إلى العصر الحجري وآخر ينتمي إنسانه

إلى عصر ما بعد الفضاء ويتعذر بذلك الاتصال .

هنالك رسوم في مغاور إنسان العصر الحجري ، رسوم عجيبة لها شكل يشبه شكل رواد الفضاء الاميركيين الأخيرين كما بدوا على شاشة التلفزيون في بزاتهم الخاصة بغزو الفضاء ..

ترى ، هل كانت هذه الرسوم محاولة لتسجيل مرور غزاة مجهولين جاءوا من كوكب آخر إلى أرضنا كما نرتاد اليوم نحن كواكب اخرى ؟ (اني أتساءل ، ترى ، هل في كهف من كهوف القمر الآن صورة لتلك المركبة الفضائية التي هبطت بصمت وهدوء منذ عام ؟) ...

تلك التساؤلات كلها ، وآلاف سواها ، وآلاف من المشاعر الغامضة عادت تلح بشدة محمومة على أذهان أهل الأرض وهم يتابعون بأنفاس مرتعدة انباء فرسان العصر الثلاثة المتجهين إلى القمر في فلك نوح المعاصر : نوح الهارب من طوفان جهله بحقائق الوجود ..

اسم الصاروخ الذي نجح في العودة سالماً أبولو ... ومحركه ساترن .. ربما لذلك كنت اسمع كلما تابعت اخباره (ابولو ٨) موسيقى غامضة خافتة تردد اعماقي اصداءها .. وهي رائعة الموسيقار الروسي « ايجور سترافنسكي » ، « باليه أبولو » ..

لقد قام رواد الفضاء الثلاثة باداء « باليه أبولو » ليس على مسرح خشبي وانما في فضاء خال حتى من الجاذبية ، وليس على رؤوس اصابعهم بل بينما هم ينتعلون الاحذية الثقيلة .. انها الباليه الوحيدة التي وقف خلال أدائها (طيلة ستة ايام) المتفرجون كلهم على رؤوس اصابعهم .. ألم يحبس العالم انفاسه ، ويتلصص على ما يدور من خلال ثقوب التلفزيون بفضول وترقب طفل مزروع على رؤوس اصابعه امام ثقب باب مغلق على عاشقين في عناق ؟ .

ولأبولو حكاية عتيقة .. ذلك المنطلق إلى القمر بركابه كطير سحري ، ليس غريباً عن السماء .. وهو لم يخطىء طريقه لأنه (ابن البيت) .. فـ (ابولو) كما تقول أساطير الاغريق هو ابن جوبيتر رب الارباب .. و (ساترن) محركه الناري الذي فجر مراحل العودة ، هو الأكثر تلهفاً للرحلة .. إذ تقول الاسطورة : كان ساترن إلهاً إغريقياً غضب عليه جوبيتر رب الارباب (ووالد ابولو) ، وكان عقاب ساترن الطرد من السماء .. ومن يومها هبط ساترن المطرود من السماء إلى الارض وعلّم

الناس بعض اسرار الآلهة : الزراعة . الخصب . السلام ..

وها هو ساترن (المغترب) الذي استوطن معبداً اغريقياً ينطلق اليوم من قاعدة أرضية في رحلة العودة إلى السماء .. وكأن (ابولو) هو شفيعه لدى جوبيتر .. ويبدو انه كان خير شفيع .. والا ، لما عاد (فرسان المركبة المستديرة) بسلام .

يدمدم الشاعر : ليس المهم ان يهبط الإنسان على سطح القمر ، المهم ان يكون إنساناً حقاً .

يصرخ رجال اعمال : في القمر حديد مناجم . وجدتها ..

تتدلع ممثلة على منتج ثري : لا . لن أمثل فيلمي القادم في اسطمبول . أريد أن يكون ذلك في القمر .

(تنقنق) سيدة مجتمع : ليلة رأس السنة القادمة سنقضيها إذن في القمر . اختراع مدهش التوقيت فقد سئمنا شاليه الارز ومائدتنا بالكازينو ! يصرخ مدير مبيعات : رجال الفضاء استعملوا ساعة ماركة (....) وحينما أصيبوا بصداع اخذوا اقراص (....) وكانت أحذيتهم ماركة (....) .

يتناقش سياسيان : اميركا تغلبت على روسيا . يرد الآخر : لا . روسيا تغلبت . لو وقع صاروخ (ابولو) في ازمة ، لاستطاعت روسيا ان تبعث بمركبة لانقاذه ..

اياً كانت قيمة ما قيل ويقال في عالمنا العربي حول هذا (الابحار) المذهل في عالم الفضاء ، تظل هنالك حقيقة أكبر من أي شيء نقوله : اننا ما نزال جميعاً نحتل مقاعد المتفرجين ! وتصبح لعبارتي هذه اظافر وسكاكين اذا تذكر قارئي العربي ان أول من فكر بالطيران ، أي بركوب الجو ، كان انساناً عربياً اسمه عباس بن فرناس . هذا الانسان صنع لنفسه جناحين كأجنحة الطيور ربطهما إلى جسده وصعد إلى قمة جبل ورمى بنفسه ليطير .. طبعاً أصيب بكسور . (كالعادة ، لدينا «اللمعة» ، الشرارة الاولى ، ولكننا نظل حتى في شؤون العلم شعراء) ..

وهكذا ، فالامة التي كان أول من غامر برحيل في الفضاء أحد ابنائها ، والأراضي التي شهدت مولد أول أبجدية ، يجلس اليوم ابناؤها في مقاعد المتفرجين على ما يدور (بل يتلصصون من خلف السور) ..

وقبل ان يبحث مسؤولونا في موضوع (التكاليف المالية) لبناء (ابولو ٩) ، أو أية مركبة فضاء اخرى ، المطلوب أولاً (ابولو) يرتاد مجاهل نفس الفرد العربي ليعيد

اليها تماسكها ووعيها الحقيقي بذاتها الحقيقية .. اذ ما جدوى الوصول إلى القمر اذا حمل إليه الناس جميعاً أمراض العصر ؟ ..

الحصيلة ، لن تكون الا حرباً عالمية ثالثة ، ولكن مسرحها هذه المرة هو القمر ...

أبولو : عد إلى أبيك !

١٨ / ٧ / ١٩٦٩

أرض القمر !

« أرض القمر » قصيدة من مرحلة « حمى الفضاء » ، نشرتها « اللايف » في عددها (القمري) ... وفيها يغني الشاعر الاميركي ملحمة فضائية: الملحمة التي يعتقد أن رائد القمر الاول سينشدها لحظة تطأ قدمه أرض القمر .

اترجمها للقارىء ، ليس اعجاباً بها ، فهي في نظري مصابة بنوبة من حمى فضائية و « بفقر الدم الابداعي » فأين هي من ملاحم الأدب القديم ..

انني اسمع عبر سطورها (طقطقة) قطعة من (اللبان) الاميركي « التشيكليتس » في فم كاتبها الشاعر جيمس ديكاي أكثر مما اسمع صدى العبقرية ووهج الابداع ...

انها – في نظري – لظاهرة مرعبة ! ... ترى هل قتل « أبولو القمر » الآلة ، « أبولو الفن » الإله ؟؟ .

يقول الهذيان الفضائي :

* * *

تبدو وكأنك تعرفني
أيها القمر ،
رغم ان العالم الذي منه أتينا .
يجرّح جبينك ، كأبولو .
يا صاحبي الحميم ، يا قمر ،
نحن الذين صنعنا الآلهة ..
ونحن الذين ندرك ،
معنى أن تضيء هكذا بعيداً ،
كما تضيء الأرض الآن .
ونحن ، من دون الناس جميعاً

استطعنا أن نخلع احذيتنا
ونطير اليك .
وها أنا ورفيقي
نحط بسدس وزنيتا
على أرضك
بينما الرفيق الثالث لرحلتنا
يحلق فوق رؤوسنا بالمركبة ،
يقرأ المؤشرات والجداول
ويرقب الوقت لينقذ حياتينا .
وأنا وأنت يا رفيق الرحلة ،
واقفان فوق سطح القمر
نستمتع بضياء الأرض
وبظلال القمر العميقة
التي ترتعش على أرضه ،
الأرض الجديدة الميتة !
بوسعنا يا رفيقي
أن نقفز ونلهو كالاطفال
في ملعب الكون الرحب هذا ،
حيث الكواكب حجارته ...
ولكننا لن نفعل ذلك ،
ولا نستطيع أن نفعل ذلك
ولسنا هنا لنلهو ..
نحن هنا لنتأمل :
وحجارة هذه الأرض ،
سوف تروي لنا اسراراً ..
أسرار الوجود والكون ...
لن تروي لنا الـ (لماذا ؟) ،
لكنها ستروي لنا على الاقل :

الـ (كيف ؟) ...
يا أرض ، يا حبيبة
اني ارى وجهك الذهبي
يضيء فوق وجهي ...
اني أسمع صوتك العميق
يضطرم عبر ثيابك : الاجواء ..
صوتك الغامض هذا ،
لا يقول لي لماذا جئنا إلى هنا ؟
لماذا أتينا ؟ ...
لا جواب ...
الأرض شاحبة ونائية ،
وسر الزمن ما يزال نائياً
يشرنقه البعد المذهل ..
ها نحن نتجول في كل مكان ،
وفي رؤوسنا الزجاجية
تتلاحق انعكاسات الحر والبرد المطلقين .
ها نحن نقفز ببطء عبرها ،
لنعود بأحجار الزمن نفسه ،
ونعيد بناءها في الارض
حيث نقطن ...
ترانا نستطيع ؟
أم ان هذا السر
الذي سنعود به إلى ارضنا
سيتلاشى بين أيدينا ،
ويضيع مع السحابة المخططة بالزرقة
التي تظلل دارنا ؟ ...
أم تراه « طاعون القمر » ،
سيقتل أطفالنا في أسرتهم ؟

الكوكب الارضي الغارق في سمائه السوداء ،
يرتعش بأكمله لما نقوم به الآن ،
وأستطيع ان اراه الآن — ذلك الكوكب الارضي .
شقيقك الإلهي الذهبي الوحيد يا قمر ...
ونحن هنا نمثل ذلك العالم :
الرجال الوحيدون هنا .
ولكن ، ما الفرق ،
وأي أمل في المعرفة نملك ،
هنا في أرض السر الميت ،
أو هناك في سماء
بيوتنا اللازوردية الانفاس !
بزتي الفضائية الهائلة
المشدودة على جسدي
تقرقع مع سكونية حركتي ،
ويمتزج صوتها الكئيب هذا ،
بصوت مرثاة لجراي ...
مرثاة يصعدها قلبي بحزن ،
وباستسلام ..
وخواطري ،
انطلقت لتتذكر أشياء اخرى مماثلة ،
كنت قد حفظتها غيباً
أيام كنت طالباً في مدرسة ثانوية ..
هذه الخواطر هي كل ما أعيه الآن ،
إنها تطفىء التضاريس المضيئة .
للمشاهد الواقعة تحت بصري ...
وتحول الفضاء ،
إلى سكون هادىء حابس الأنفاس .
الأرض تلتمع

وينبعث من قشرتها الهوائية الملونة ،
سكون هادىء حزين ..
يا أخي !
أيها الإله ذو الوجه الأرضي !
يا أبولو !
عيناي تعميهما دموع عبثاً أطالها ،
وأنفاسي تضطرم في نفسي ،
وتبقى حبيسة حتى لتكاد تخنقني !
ونحن هنا فوق سطح القمر
لنؤدي عملاً واحداً فقط :
هو أن نحمل أحجار القمر
حجراً اثر حجر ،
ونعود بها !
نعيدها إلى الأرض : موطنها !
ثيابنا تعيقنا ،
تجعلنا عاجزين عن اللمس ،
وعاجزين عن الركوع !
اننا نحدق في غبار القمر المنطفىء ،
وفي تراب أرضنا الملتهبة ...
نضحك بجنون بديع السكون .
ننحني على أرض القمر ،
إننا نلتقط الأحجار .

* * *

هذه هي « القصيدة » . وأنت يا قارئي العربي ، ما رأيك ؟ هل التقط مؤلفها حجراً واحداً عن أرض الابداع ؟؟

عين غ تتفرس

في

كوكبنا : الأرض

« ما جدوى أن تملك بيتاً إذا كنت
لا تملك كوكباً معقولاً تضع بيتك
فوقه ؟ »
– هنري دافيد ثورو –

« الكرة الأرضية هي مستشفى مجانين
النظام الشمسي ! »
– صموئيل ب . كادمان –

« لقد فقد الإنسان القدرة على
الرؤيا والنبوءة ، وسينتهي به الأمر
إلى تدمير كوكبه » .
– ألبرت شفيتزر –

٧ / ٤ / ١٩٧٥

تعالوا نقف في ظل نجمة !

هل تستطيع أن ترفع رأسك إلى السماء في ليلة صَحو ، وترى آلاف النجوم تومض لك بعيونها البراقة ، من دون أن ينتابك حس بالرهبة الغامضة ؟! .

هل تستطيع أن تتأملها دون أن يستيقظ في رأسك ولو سؤال واحد ، ودون أن تنتابك ولو رعشة فضول ؟

اذا كنت تستطيع ذلك ، فلا تقرأ هذه السطور !

أما إذا كنت مثلي ، ترى النجوم حقلاً من شارات الاستفهام المضيئة ، تغتني إنسانيتنا بفهم المزيد عنها ، فتعال معي في جولة سريعة بين الكواكب والنجوم ، وطر معي لا على أجنحة الشعر بل في مركبة العلم أو قل ما يعرفه العلم حتى الآن عن هذا الكون البديع ، ونظامه المذهل الدقة لدرجة تفوق الخيال !

نحن والكون

حين تكبر همومنا حتى تصير أكبر من الكرة الأرضية ، يصير من واجبنا أن نعرف على الأقل حجم الكرة الارضية بالنسبة إلى الكون ... فقد تستعيد همومنا حجمها الحقيقي حين توضع في إطارها الكوني !

إننا نحاول باستمرار معرفة موقعنا من كل ما حولنا : موقعنا من أصدقائنا . موقعنا من قلوب أحبابنا . موقعنا من سلم النجاح في عملنا . موقعنا من الذين تربطنا بهم مصالح صغيرة . موقعنا من أسرتنا . موقعنا من وطننا .. ولكن ...

ولكن قلما نفكر في موقعنا من هذا الكون الشاسع ، وقلما نفتش عن معنى لوجودنا خارج إطار الأحداث اليومية الصغيرة ...

أقول لكم : يأتي الألم حين يتوهم الإنسان انه أكبر من الكون .

أقول لكم : يأتي الالم حين يصير غرور البشر أكبر من وعيهم ضآلتهم أمام

هذا الكون الهائل الشاسع .

ان رحلة بين الكواكب والنجوم ومجرات الكون اللامتناهية ليست رحلة علمية فحسب ، بل هي وقوف أمام مرآة الحقيقة حيث يستعيد الفرد حجمه الطبيعي . ولعل وعي الانسان حجمه الحقيقي وموقعه في هذا الكون الشاسع البهاء قد يعيد اليه رشده ، ويدفع به من جديد إلى اكتشاف ما هو جميل ونبيل في أعماقه — أي ما ينسجم ايقاعه مع ايقاع الكون — العظيم الجمال والبهاء والنظام — ويرسم له من جديد مداره النفسي الحقيقي ، ويرشده إلى الشمس المنسية في داخله ...

كل أولئك « الديكتاتوريين » الذين يتوهمون أن من حقهم التحكم بمصير الآخرين ، ترى هل وقف أحدهم مرة في ظل نجمة ليرى حجمه الحقيقي ؟

هتلر ، مثلا ، لو كان يعرف ان الأرض بأكملها ليست سوى كوكب صغير يدور في فلك نجم متوسط الحجم (شمسنا) عند طرف مجرة تضم مئة ألف مليون مليون نجم ولكنها بأكملها ليست أكثر من مجرة واحدة من ملايين لا تحصى من المجرات الاخرى ، تراه كان يغزو الدنيا ويحلم بامتلاك الأرض بأكملها ، أم كان يفتش عن معنى آخر لوجوده وعن ايقاع لحياته ينسجم وإيقاعَ الكون الإلهي ؟

وأياً كانت همومنا الصغيرة مهمة في عيوننا (نحزن . نفرح . نحب . نفترق . نغار . نكره . نتعذب ...) ، يظل من الضروري التذكر بأن كلاً منا ليس سوى فرد واحد من أربعة مليارات إنسان يغطون حالياً وجه الأرض ، واننا نحن وهم ، من دون استثناء ، لن نكون على وجه هذا الكوكب بعد مئة عام ! فلنطر معاً في جولتنا الكونية قبل أن نسقط من جديد في مستنقع الحياة اليومية ، ولنحدق ببعض الاهتمام في بيتنا في الفضاء : الارض !

الأرض تشرق على القمر :

الأرض مسطحة ، محمولة على ظهر أربعة أفيال ، والافيال واقفة على صدفة سلحفاة بحرية ، والسلحفاة البحرية تسبح في محيط لامتناهي الاتساع ...

هكذا كان الهندوس وبعض الاقدمين يتصورون الأرض !

وكانوا يتوهمون فيما مضى أن الارض مسطحة ممدودة وثابتة في مركز الكون بينما تدور حولها بقية النجوم والكواكب والشمس مرة كل يوم !

وهكذا كانت للأرض أهمية قصوى بالنسبة إلى بقية الاجرام السماوية ...

ولكن العلم الحديث خلع عن الأرض أردية أوهام العظمة ، وعرّاها من الأساطير التي تخصها بالأهمية ، وأعادها إلى حجمها الحقيقي . ولم يعد في يومنا هذا من يتوهم أن الأرض مركز الكون وانما هي بكل بساطة كوكب عادي هو الثالث في المجموعة الشمسية . والصور التي التقطت للأرض من الفضاء زودتنا بمعلومات دقيقة عن وضع الأرض الحقيقي وموقعها في الكون الشاسع اللامتناهي الشموس – التي يكبر بعضها شمسنا ويفوقها حرارة بـ ٤٠٠٠٠ مرة ! – والنجوم والكواكب والمجرات الأخرى غير مجرتنا .

ولكن هذه المعرفة استغرقت من الانسان قروناً طويلة من العمل والرصد والشجاعة وكاد عدد كبير من العلماء يفقد حياته خلال محاولة نسف الافكار السائدة الخاطئة عن الارض وحقيقتها ، وكيف انها ليست مسطحة وانما كروية ، وليست ثابتة وانما تدور حول الشمس كبقية الكواكب السيارة ، وليست فريدة في نوعها . وليست بقية النجوم نقاطاً مضيئة مدقوقة على سقف ليلها الأسود كالمصابيح الثابتة بل هي شموس وكواكب أخرى تبعد عن أرضنا ملايين ملايين الاميال .

ربما كان الفيلسوف أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٥ قبل الميلاد) من الاوائل الذين هاجموا نظرية الأرض المسطحة ورفضوها انطلاقاً من أسس علمية .

وحوالي عام ٢٧٠ قبل الميلاد استطاع ايراتوسثينس أن يتوصل إلى قياس محيط الأرض بدقة مذهلة بالنسبة إلى ما كان متوافراً من الأدوات العلمية في ذلك العصر ، وكانت قياساته أفضل من تلك التي اعتمدها كريستوف كولومبوس بعده بحوالي ١٧ قرناً حين قام برحلته الشهيرة لاكتشاف أميركا .

أما بطليموس الاسكندري فقد كان يظن أن الكواكب كلها تدور حول الأرض ، وظل ذلك الخطأ شائعاً حتى عام ١٥٤٣ حين جاء كوبرنيكوس البولوني – وهو رجل دين مسيحي – بنظرية اعتبرت ثورة في ذلك العصر . فقد أعلن أن الكواكب كلها ، بما فيها الارض ، تدور حول نفسها وحول الشمس . وعارضته الكنيسة في ذلك كما عارضه رجال العلم أنفسهم !

أما غاليليو غاليلي ، العالم الايطالي العظيم . فقد قدم إلى المحاكمة عام ١٦٣٣ وكاد يواجه عقوبة الحرق حياً لانه أعلن أن لديه أدلة مادية على أن الارض تدور حول الشمس وليست محوراً للكون . واضطر غاليليو إلى سحب كلامه ناجياً بحياته ، لكنه همس لمن حوله : « ولكنها ما زالت تدور ! »

وفي عام ١٦٨٧ نشر العالم نيوتن كتاباً مهماً أثبت فيه هذه الحقائق العلمية ، وصار من المتعارف عليه أن الأرض ليست أكثر من كوكب آخر من الكواكب السيّارة ، وثبت نهائياً أنها ليست محور الكون، وتم إنزالها عن عرشها الزائف ووضعها بين بقية الكواكب والنجوم .

أما في عصرنا ، عصر الفضاء ، فقد استطاع الانسان دراسة الأرض من الفضاء بدقة لم تكن ممكنة في أي عصر آخر . وللمرة الاولى تمكن الانسان من تصوير كوكبه وهو واقف خارجه بل وتمكن من تصويره من كوكب آخر . وصُوَرُ الأرض بينما هي تشرق على سطح القمر هي بمثابة حلم إنساني تحقق في عصرنا العلمي . والرجل الواقف على القمر يستطيع أن يرى الأرض وهي تشرق هلالاً ثم تكبر لتصير بدراً ... تماماً كما يبدو القمر من أرضنا !

صور الأرض من الفضاء تجيب بوضوح قاطع على سؤال : كيف نحن ؟ ولكن يبقى السؤال الاساسي : أين نحن ؟

حين نتأمل السماء في ليلة صحو ونحدق في آلاف النجوم المضيئة التي تحيط بأرضنا، تلك التي أسماها العرب منذ أقدم العصور « درب التبانة » ينطلق السؤال كصدى لايقاع الدهشة والخشوع : أين نحن ، وما موقع أرضنا من هذا الكون الشاسع الغامض ، أرضنا التي تبلغ مساحتها ١٩٧ مليون ميل مربع ووزنها ٦٥٨٦ بليون بليون طن ، أي ٢١ صفراً إلى يمين الرقم ! ودرجة حرارة مركزها ٧٣٠٠ درجة فهرنهايت !

سؤال في الليل يرد عليه العلم في النهار بلغته المباشرة وبعيداً عن خيالات الشعراء . يقول العلم دونما محاباة للانسان المزهو بكوكبه : ليست الأرض أكثر من مجرد كوكب سيّار آخر يدور مطيعاً حول أمه الشمس ، أسوة ببقية أفراد الاسرة الشمسية المكونة من تسعة كواكب سيارة هي على التوالي وحسب قربها من الشمس : عطارد ، الزهرة ، الارض ، المريخ ، المشتري ، زحل ، أورانوس ، نبتون ، بلوتون .

ويضم النظام الشمسي إلى جانب كواكبه السيارة التسعة ٣١ قمرا وحوالي ٣٠ ألف كويكبة ونحو ١٠٠ ألف مليون مذنب بالاضافة إلى ما لا حصر له من الذرات الغبارية والجزيئات الغازية والذرات المفككة .

وذلك النظام الشمسي بأكمله يعمره نجم واحد فقط هو الذي ندعوه الشمس وهو الذي يشرق على أرضنا كل صباح . فما هو هذا النجم ؟

الشمس

ليس في الكون جسم سماوي يعادل الشمس في أهميتها للانسان . فالشمس هي النار المركزية التي تعتمد عليها الحياة على الأرض وأي حياة مشابهة لحياتنا قد تكون موجودة في أي مكان آخر من النظام الشمسي . والشمس هي محور النظام الشمسي بأكمله ، ومحور مدارات مذنباته ونجيماته وكواكبه السيارة ، ومنبع الطاقة فيه ، والعامل الاساسي في تغيراته . وحركاته الرئيسية ، وألمع ضوء فيه ، وأثقل كتله .

ورغم ان الشمس ، طبقاً للنظريات الحديثة ، لا تعدو أن تكون نجماً متوسط الحجم والحرارة بالقياس إلى نجوم الكون الاخرى (في الكون نجوم أشد التهاباً من شمسنا بأربعين ألف مرة !) ، إلا أنها تظل هائلة الضخامة بالنسبة إلى مجموعتنا الشمسية ، اذ تشكل وحدها ٩٩,٨٦ في المئة من مادة النظام الشمسي . فما تمثل الأرض والقمر معاً أقل من ٠,١٪ من الجزء الضئيل الباقي .

والشمس أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة ، اذ يبلغ قطرها ٨٦٥ ألف ميل وزنها أكثر من وزن الأرض بحوالي ٣٣٣ ألف ضعف مكونة بكاملها من الغازات. وتبعد عن الأرض ٩٣ مليون ميل بحيث ان رحلة الضوء من الشمس إلى الأرض تستغرق ٨,٣ دقائق ، أي اننا لا نرى الشمس أبداً كما هي « الآن » وانما نراها كما كانت قبل ٨,٣ دقائق ! والمعروف ان سرعة الضوء هي ١٨٦ ألف ميل في الثانية ، أي ان الضوء يحتاج إلى ثانية واحدة ليقطع الطريق إلى عيوننا من نقطة تبعد عنا ١٨٦ ألف ميل .

* * *

وحرارة الشمس الداخلية عند نواتها ترتفع إلى ما لا يقل عن ١٤ مليون درجة مئوية تنشر الحرارة ليس فقط في غلاف الشمس الغازي الهائل بل في سائر النظام الشمسي . أما مصدر هذه الطاقة فليس احتراق الشمس كما كان الاقدمون يظنون ، واهمين ، انها كتلة هائلة من الفحم ، بل هو تحول المادة ، أي هذا التدمير البطيء المستمر الذي لا مناص منه لمادة الشمس عند النواة عن طريق تحول ذرات الهيدروجين إلى ذرات الهيليوم ، على غرار ما يجري تقريباً في التفاعل الانفجاري الذي يتم في القنبلة الهيدروجينية .

ومنذ أقل من قرن مضى لم يكن أحد يدري كيف يعمـــل الأتون الشمسي . أما الآن ، وبعد أن اصبحت مبادىء التفجير النووي معروفة . لم تعد معرفة الإنسان تقتصر على نوع التفاعلات التي تتم في الشمس بل أصبح في مقدوره أن يُحدث مثلها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عطـــارد

أصغر السيّارات وأقربها إلى الشمس وأصغر من الأرض بأكثر من ١٨ مرة . العام في عطارد ٨٨ يوماً (من أيامنا الارضية) لانه يتم دورة واحدة حول الشمس كل ٨٨ يوماً . أما دورته حول نفسه فبطيئة جداً تستغرق ٩٠ يوماً ، أي أن اليوم في عطارد أطول من العام !

الزهرة (فينوس)

أشد الكواكب التماعاً في سمائنا ، بعد القمر . والزهرة توأم الأرض من حيث الحجم ، هبطت فوقها عربة الفضاء « فنيرا ٧ » وصرنا نعرف أن حرارتها لافحة تقارب ٣١٦ درجة مئوية فلم تعد « نجمة الصبح » ذلك الفردوس الذي تخيله كتاب أدب الفضاء !

يوم الزهرة يعادل ٢٢٤,٧ يوماً أرضياً . وكذلك سنتها تقريباً ، وهكذا فطول يومها يعادل طول سنتها على نحو ما !

المـــريخ

هو الكوكب الذي يلي الأرض بعداً عن الشمس . سطحه شبيه بسطح القمر ، تغطيه أراض بركانية وفوهات خامدة وهضاب عالية . لا حياة عليه ، هذا ما يكاد يجزم العلم به بعد أن دار لغط طويل حول وجود الحياة على هذا الكوكب وحول سكانه الذين يأتون إلى الأرض في صحونهم الطائرة !

النجيمـــات

المشتري يلي المريخ على بعد ٣٠٠ مليون ميل . ويوجد في هذه المسافة حوالي ٤٠ ألف نجيم تتراوح في أحجامها بين الحصيات المتطايرة في الفضاء (نجيم ايكاروس الذي لا يزيد قطره على ١,٦ كم) والجبال السابحة فيه (نجيم سيرز وقطره ٤٢٧ ميلا) .

والنجيمات كلها لها مدارات حول الشمس كبقية الكواكب السيارة ، من الغرب إلى الشرق .

المشــتري

أكبر كوكب في أسرة الشمس . حجمه أكبر من حجم الارض بـ ١٣١٢ مرة .

وهو كوكب غازي يتألف من أقل عناصر الطبيعة وزناً كالهيدروجين والهيليوم . درجة حرارة سطحه ١٣٠ درجة مئوية فقط ! وهو كوكب « رأسمالي » له ١٤ قمراً — لا قمر واحد كالارض — واثنان من اقماره أكبر من قمرنا الأرضي ، وسنةُ المشتّري تعادل في طولها ١٢ سنة أرضية .

زحـــل

كوكب جميل لا مثيل لجماله في النظام الشمسي بحلقاته الثلجية الغازية الثلاث التي تحيط برأسه كهالات القديسين ، وهو أكبر من الأرض بـ ٩٥ مرة وله عشرة أقمار ..

أورانوس ، نبتون ، بلوتون

كان القدماء يظنون العالم مكتملاً بالشمس والقمر والكواكب السيّارة الخمسة المعروفة منذ القدم ، ما دام مجموعها مع القمر والشمس ٧ والرقم ٧ كان رقماً سحرياً في تلك العصور !

لكن العلم الحديث أفسد هذه النظرة السحرية باكتشاف ثلاثة كواكب سيّارة جديدة هي اورانوس ونبتون وبلوتون ... وقد نكتشف المزيد من الكواكب في حواشي النظام الشمسي .

المذنبـــات

تمتاز على بقية أفراد المجموعة الشمسية بشذوذها وغرابة أطوارها !

لقد لاحظها البشر منذ أقدم العصور . ورصدوها في مصر والصين القديمة ، واعتبروا ظهورها شؤماً وتطيروا منها .

حجم المذنب صغير جداً إذا قيس بالكواكب وحتّى بالاقمار ، ورأس المذنب وحده يتكون من عناصر مادية أساسية وقد يبلغ قطره عدداً من الأميال ، أما بقية المذنب فتتكون من تجمعات غير محددة المعالم متجمدة وحبيبات خشنة .

وهنالك مئة ألف مليون مذنب أو أكثر تسبح على حدود النظام الشمسي الجليدية وتدور في هالة كروية تحيط بالنظام الشمسي من بعيد .

وهكذا فالمذنبات هي أعضاء في النظام الشمسي تسبح في مدارات على هيئة القطع الناقص .

وإذا حدث ان اقترب المذنب من الشمس فان في ذلك لعبة خطرة فيها نهايته أحياناً .

وعلاقة المذنبات بالشمس كعلاقة الفراشة بالمصباح !

وان حياة مذنب « بييلا » القصيرة العاصفة هي خير نموذج لما يمكن أن يحدث لمذنب يكثر من اللعب بنار الشمس . لقد شوهد هذا المذنب وهو ينطلق وافداً من الفضاء عام ١٧٧٢

وصار يعود إلى الظهور في جوار الشمس مرة كل ست سنوات ونصف . وعندما ظهر عام ١٨٤٦ انقسم فجأة إلى مذنبين يتحركان جنباً إلى جنب . ثم ظهر على هذه الصورة « التوأمية » مرة أخرى عام ١٨٥٢ واختفى بعدها تماماً . وكان الفلكيون لا يزالون يبحثون عنه بعد ٢٠ عاماً حين شهدت أوروبا مطراً هو وابل من الشهب التي كانت تظهر كعرض للألعاب النارية ثم تحترق عند دخولها الغلاف الجوي ، وكان هذا الوابل من الشرارات الكونية يزداد غزارة كلما اتجه نحو الغرب . وفي انكلترا شاهد الناس مائة شهاب في الدقيقة ، وشاهد سكان نيويورك رذاذاً مضيئاً . وقد تأكد العلماء ان هذه الشهب لم تكن سوى بقايا مذنب بييلا . وطوال السنين السابقة كاد المذنب يصطدم بالارض . ولو أن مذنباً اصطدم بالارض قبل ان يتآكل ويتحطم بتأثير الشمس ، فان في وسعه ان يوجه اليها ضربة أعنف مما قد يتصور الإنسان حدوثه .

والارض إلى جانب صداماتها النادرة مع المذنبات أو النيازك التي لا يقضي عليها — لكبر حجمها — أتون الاحتكاك بالغلاف الجوي ، تصطدم بمائة مليون نيزك وبملايين لا تحصى من الشهب الدقيقة كل يوم . ومجموع هذه الصدامات الدقيقة يضيف إلى كتلة الارض ما يزيد عن مليوني طن من المادة سنوياً .

ومعنى هذا ان أكثر ما يحرثه الفلاح ليس سوى تراب نجوم قديمة ، تم طحنه ومزجه بواسطة الهواء والمطر عبر آلاف السنين .

المجـــرات

يتألف الكون من مجموعة مجرات ، بينها المجرة التي تقع أرضنا فيها .

والمجرة هي الوحدة الاساسية في الكون ، وهي تجمّع كبير للنجوم . وهناك ملايين من المجرات تدور في الفضاء في نظام مذهل الحركة والتنوع ، وتجري في في أفلاكها وفقاً لأنماط من الدقة تفوق الوصف والخيال .

وكل مجرة لا تشتمل على نجوم مرئية من كل نوع فحسب ، بل أيضاً على سحب دافقة من سديميات الغاز والغبار الكوني .

والشمس و ٧٠٠٠ من الشموس الاخرى التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة ليست سوى عدد قليل من سكان مجرة واحدة من هذه المجرات ، هي مجرتنا التي يطلق عليها اسم « درب التبانة » أو « الطريق اللبني » . وهنالك أكثر من ألف مليون مجرة أخرى تقع في مدى الرؤية بالمناظير المقرّبة !

والنجوم كلها تسبح حول مركز مجرتها وأثناء قيام الفلكيين بدراسة حركات النجوم استطاعوا حتى اليوم رصد ما يزيد على مليون نجم بكل دقة وسجلوا مواقعهم في أطالس وخرائط .

وهكذا فان الانسان يعرف اليوم الكثير عن ذلك الكون البديع ، لكنه أيضاً يعرف أكثر من أي وقت مضى كم من الأسرار يجهل ! فحتى عام ١٩٢٣ لم يكن معروفاً ما إذا كانت بقية المجرات مستقلة عن مجرتنا أم أنها امتداد لها . أما اليوم فنعرف ان « درب التبانة » هي مجرد جزيرة كونية من ملايين الجزر الكونية الاخرى ، وانها مجرة حلزونية واحدة تدور ببطء في الفضاء الهائل حيث يتوزع عدد لا يحصى من المجرات الأخرى في كافة الاتجاهات وإلى ما وراء اقصى مدى يمكن ان تصل اليه المناظير الحديثة .

ودوران المجرات لا يحدث بصورة اعتباطية والا لاصطدمت الافلاك بعضها ببعض ، وانما وفقاً لقوانين مدهشة الدقة ما زال الانسان يحاول فهم المزيد عنها .

وشمسنا مثلا تدور حول محور مجرتنا دورة كاملة كل ٢٢٥ مليون سنة ! أما النجوم الأكثر قرباً من محور مجرتنا فان دورتها تستغرق وقتاً أقل ، كما ان النجوم الاكثر بعداً عن الشمس، عن محور المجرة، فان دورتها تستغرق زمناً أطول . ثم ان النجوم لا تدور حول محور مجرتها فحسب ، بل ان المجرات بأكملها هي في حالة ركض مستمر في الفضاء الكوني ، وهي تنتشر بعيداً عن مركز الكون — اذا صح التعبير — ليس فقط بأكثر من سرعة الضوء بل بسرعة لامتناهية . ويظن بعض علماء الفلك ان مجرات جديدة تتكون في الفضاء الناتج عن الامتداد ، وتجعل هذا الفضاء يبدو شبيهاً بنفسه ، أي في « حالة استقرار » .

ومجرتنا تتضمن مئة مليون نجم . وتمتد على قطر يبلغ حوالي ١٠٠ ألف سنة ضوئية وعلى عرض ٢٠ ألف سنة ضوئية . (السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء

في سنة مع العلم ان المسافة التي يقطعها الضوء في الثانية الواحدة هي ١٨٦ ألف ميل !)

وجميع النجوم التي نستطيع رؤيتها في وضوح بالعين المجردة تنتمي إلى مجرتنا التي تضم مئة بليون نجم . اما ملايين المجرات الاخرى فاننا عاجزون حتى اليوم عن دراستها ما عدا القريبة نسبياً منا .

وفي السماء الشمالية (بالنسبة الينا) هنالك مجرة قريبة منا نسبياً حتى ان رؤيتها بالعين المجردة ممكنة وهي مجرة « ميسييه ٣١ » الشبيهة بمجرتنا من حيث شكلها اللولبي .

أما في السماء الجنوبية فتوجد مجرات أخرى قريبة منا مثل « سحابة ماجلان الكبرى » و « سحابة ماجلان الصغرى » . وجميع هذه المجرات تبدو بالمناظير العادية شبيهة بالسحب الكونية ، الا ان دراستها بدقة — بعد تصويرها — تكشف عن عناقيد النجوم اللامتناهية المرشوقة فيها .

بالحب لا بالغرور

ان حجم الأرض إلى حجم الكون المعروف كحجم جرثومة الدفتيريا إلى حجم الكرة الارضية ! وحجم جرثومة الدفتيريا صغير إلى حد أننا نستطيع ان نضع مليون جرثومة على رأس دبوس !

ومع ذلك فالانسان يتوهم انه شيء مُهِمّ حين يحكم رقعة من الأرض أو يمتلكها؟

ان مجابهة هذا الكون العظيم بالغرور لا تجدي . المجابهة الوحيدة الممكنة هي بالاستماع إلى أصوات الافلاك ، وماذا يقول لنا هذا النظام البديع المذهل الانسجام : « أحبوا . ولا تصدموا مدارات بعضكم بعضاً . ففي قلب الله متسع للجميع » !



إقرار

نشرت محتويات هذا الكتاب بأكملها في المجلتين التاليتين (وفقاً للترتيب الأبجدي) :

مجلة الأسبوع العربي (اللبنانية)

مجلة الحوادث (اللبنانية)



الفهـــــرس



مؤلفـات غـادة السمـان

الأعمال غير الكاملة

صـــدر منهـا :

١ ـ زمن الحب الآخر	(الطبعة الخامسة)
٢ ـ الجسد حقيبة سفر	(الطبعة الثالثة)
٣ ـ السباحة في بحيرة الشيطان	(الطبعة الرابعة)
٤ ـ ختم الذاكرة بالشمع الأحمر	(الطبعة الرابعة)
٥ ـ اعتقال لحظة هاربـة	(الطبعة الخامسة)
٦ ـ مواطنة متلبسة بالقراءة	(الطبعة الثالثة)
٧ ـ الرغيف ينبض كالقلب	(الطبعة الثانية)
٨ ـ ع غ تتفرس	(الطبعة الرابعة)
٩ ـ صفارة انذار داخل رأسي	(الطبعة الثانية)
١٠ ـ كتابات غير ملتزمة	(الطبعة الثانية)
١١ ـ الحب، من الوريد إلى الوريد	(الطبعة الرابعة)
١٢ ـ القبيلة تستجوب القتيلة	(الطبعة الثانية)
١٣ ـ البحر يحاكم سمكة	
١٤ ـ تسكع داخل جرح	

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان ص.ب : ١١١٨١٣
تلفون: ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠

مؤلفات غادة السمان

عيناك قدري	(الطبعة التاسعة)	(قصص)
لا بحر في بيروت	(الطبعة الثامنة)	(قصص)
ليل الغرباء	(الطبعة الثامنة)	(قصص)
رحيل المرافئ القديمة	(الطبعة السادسة)	(قصص)
بيـــروت ٧٥	(الطبعة الخامسة)	(رواية)
كوابيس بيروت	(الطبعة السادسة)	(رواية)
ليلة المليار		(رواية)
حـــب	(الطبعة الثامنة)	
أعلنت عليك الحب	(الطبعة التاسعة)	
غربة تحت الصفر		
الأعماق المحتلة		
أشهد عكس الريح		



منشورات غادة السمان

بيروت ـ لبنان ص.ب : ١١١٨١٣

تلفون: ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠







★ هذا الكتاب هو الكتاب الثامن في سلسلة « الأعمال غير الكاملة » لـ « غادة السمان » وتضم السلسلة كتابات لم يسبق نشرها في كتبها .

وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن « زمن الحب الآخر »،« الجسد حقيبة سفر »،« السباحة في بحيرة الشيطان » ، « ختم الذاكرة بالشمع الاحمر »،« اعتقال لحظة هاربة »،« مواطنة متلبسة بالقراءة »،« الرغيف ينبض كالقلب »،« صفارة انذار داخل رأسي »،« كتابات غير ملتزمة » ، « الحب من الوريد الى الوريد » ، « القبيلة تستجوب القتيلة » .

منشورات غادة السمان